حكايات مصرية
من زمن العز القديم!

عرفه عبده على السيد



مكتبة الأنجلو المصرية

بطاقة فهرسة

على ،عرفة عبده

حكايات مصرية من زمن مصر القديم

تأليف الدكتور: عرفة عبده على

13× 20 سم

1- العنوان

رقـــم الإيداع : 2018/16730

ISBN : 978-977-05-3225-6

طبع فى جمهورية مصر العربية بمطبعة محمد عبد الكريم حسان

مكتبـة الانجلـو المصريـة 165 شارع محمد فريد القاهرة – مصر

تليفون : 23914337 (202) ؛ فاكس : 23957643 (202)

E-mail : angloebs@anglo-egyptian.com

Website www.anglo-egyptian.com

الفهرس

تقديم

ظللت لنحو ألف عام أبحث عن بلادي الجميلة : مصر .. بين أطلال المجد والعز القديم، وآلاف الحكايات والأساطير التى شكلت سحر مصر وخصوصيتها وعزها القديم .. بعيدا عن خطب الحكام والساسة .. فى تراثنا الشعبي وفى كتب الرحالة ولوحات الفنانين المستشرقين وصور زمن الأبيض والأسود .. وفى ظلال لوحات الشجر والنخيل على ضفاف النيل، فى عطاء العباقرة ورواد صناع الحضارة وبناة الإنسان المصري .. فى تماثيل مختار وروائع الرواد من الرسامين المصريين وحيث الخيال والفن الجميل يمرحان على صفحة الخلود!*

وربما يجد القارئ فى هذا الكتاب سطوراً بين السطور .. معانى وكلمات .. إنها مصر التى لم نعشها، ونقرأ عنها فقط!

فيا عزيزى القارئ .. ترفق بما ستقرأه

فهذه الصفحات بعض من قلبى!

عرفة عبده على

---

* نشرت هذه الموضوعات فى مجلة "الأهرام العربي" ومجلة "الهلال" فى الفترة من أكتوبر ٢٠١٤ إلى يونيو ٢٠١٧

طومان باى .. السلطان الشهيد

صفحة حافلة بالبطولة النادرة .. والخيانة النادرة أيضا!

مصر الدرة الأغلى فى عمامة السلطان سليم!

كانت مصر "الذرة الأغلى فى عمامة السلطان سليم الأول" .. وعند ذكر "الغزو العثمانى" يحرص مؤرخو أو كتاب ما يسمى بالإسلام السياسى على إستخدام مصطلح "الفتح العثمانى"!!.. فى حين أن المؤرخ العظيم "ابن اياس" الذى عاصر وعاش تلك الأحداث .. شبه "الغزو العثمانى بغزو نبوخذ نصر لمصر القديمة الذى خرب البلاد كلها" .. كما قارنه بتدمير بغداد على يد المغول عام ١٢٨٥م .. ووصف كيف "أباح سليم لجنوده نهب القاهرة لمدة ثلاثة أيام وبلغت حصيلة المذابح أكثر من عشرة آلاف مسلم"!.. ووصفه ابن اياس بأنه "رجل متعطش للدماء، فظ عصبى لا ذوق له، لا يحافظ على كلمته ولا يعدل بين الناس كما كان يتعاطى الخمر فيصبح ضعيف الشخصية، لم يتمتع بكرامة الملوك أو ما يتحلون به من آداب السلوك"!..

ووصف جنود العثمانلى بأنهم "كانوا يقبلون على شرب الخمر ولم يكونوا حتى يقيموا الصلاة وإنتهكوا حرمة شهر رمضان وحرمة الأضرحة والأماكن المقدسة، وتحرشوا بالنساء فى الدروب، وكانوا يسرقون الطعام من الحوانيت، ويجبرون العامة على خلع الرخام من قصور المماليك وشحنها بالسفن المتجهة إلى إستانبول"!.. وعلى الرغم من أن شعب مصر محب للحياة والمرح إلا أنه "منع الإحتفالات العامة وعروض الفروسية التى كانت موضع إعجاب المصريين لبراعة فرسان المماليك"!

وقامت السلطات العثمانية بفصل قضاة مصر ونوابهم، وتعيين قضاة جدد للمذاهب الأربعة خضعوا لقاض تركى وطبقا لتعبير ابن اياس: "كان أجهل من حمار!.. لم يكن لديه فهم بالشريعة ونصب من نفسه وصيا على أخلاق النساء فحد من حريتهن فى مغادرة منازلهن"!

وبسقوط القاهرة، توالى سقوط المدن العربية الكبرى: دمشق وحلب وبغداد وسامراء والبقاع المقدسة فى القدس والخليل والحجاز .. وسرق سليم أحد ألقاب سلاطين المماليك "خادم الحرمين الشريفين"!.. وإنهار الوضع الإقتصادى والمالى بشكل غير مسبوق، كما شهدت الحقبة العثمانية السوداء "مضايقات ومظالم وأسوأ معاملة للأقباط والأرمن والشوام الكاثوليك واليهود وإعتبروا جميعا فى نظر العثمانلى: كفارا " طبقا لإبن اياس والجبرتى.

لن أسرد الوقائع التاريخية للغزو العثمانى وما أعقبه من تداعيات رهيبة على مصر والمنطقة العربية، فكتب التاريخ حافلة بالتفاصيل، ولكنى سأتحدث عن واحد من عظماء مصر .. سيرته جديرة حقا وغيره بعمل درامى ضخم بعيدا عن مسلسلات الهلس والبلطجة والدعارة ولا حول ولا قوة إلا بالله!

"ليون الأفريقي" يروى قصة سقوط إمبراطورية القاهرة

الرحالة الجغرافى "الحسن بن محمد الوزان" شخصية أندلسية فذة، إجتمع له من الخصال العلمية والإنسانية ما جعل جامعات أوروبا والجمعيات العلمية تقدره حق قدره، كان شغوفا بالرحلات وتسجيل مشاهداته فى مذكرات شبه يومية كانت أساس كتابه "الجغرافيا العامة" إشتهر منه الجزء الثالث "وصف افريقيا" الذى كتبه بالإيطالية ثم تُرجم إلى عدة لغات وضم تسع رحلات داخل بلاد المغرب ثم مصر والسودان

والحجاز، إلتحق ببلاط ليون العاشر - Leon X الذى إشتهر برعايته للعلوم والآداب، وحظى الحسن بمكانه سامية لدى البابا حتى لقبه بـــ"ليون الأفريقى"!.. وخلال زيارته للقاهرة فى نوفمبر عام ١٥١٦م عاصر ودون وقائع الغزو العثمانى حتى سقوط القاهرة - حاضرة الإسلام الكبرى - وشنق السلطان طومان باى، فكتب :

كان السلطان العثمانى وقد أصبح مالك القاهرة يطوف فيها وكأنه يريد أن يطمس بطيفه الذى لا يمحى كل مكان مقدس وكل حى وكل باب وكل نظرة مذعورة، وكان يتقدمه الرسل الذين لم يكونوا ينفكون عن الإعلان للناس أن يطمئنوا إلى سلامتهم وسلامة أرزاقهم، فى حين كانت تتواصل المذابح وعمليات السلب والنهب، وعلى بضع خطوات من الموكب السلطانى فى بعض الأحيان.

وكان الجراكسة أول الضحايا، وسواء كانوا مماليك أو من نسل المماليك فقد كانوا يطاردون بلا هوادة، وعندما كان يقبض على أحد الأعيان من العهد القديم كان يُركب على حمار ووجهه إلى مؤخرته وعلى رأسه عمامة زرقاء وحول عنقه عدد من الجلاجل، وكان يُطاف به بهذا الزى فى الشوارع قبل أن يفصل رأسه، ثم يعلق الرأس على عصا طويلة فى حين يرمى بالجسد إلى الكلاب، وكانت مئات العصى الطويلة قد زرعت فى أرض كل مخيم من المخيمات العثمانية على هذا النحو الواحدة بجانب الأخرى مؤلفة غابة جنائزية كان سليم يحب الطواف فيها.

ولم يلبث الجراكسة الذين خُدعوا بعض الوقت بالوعود العثمانية أن تخلصوا بالطبع مما كانوا يعتمرونه من عمائم خفيفة وطواقى وإعتمروا عمائم كبيرة ليذوبوا فى مجموع الشعب، وبعد ذلك أخذ الجنود العثمانيون يعتقلون جميع المارة

بلا تمييز متهمين إياهم بأنهم جراكسة متنكرون مطالبينهم بدفع جزية لإخلاء سبيلهم، وعندما كانت الشوارع تخلو كانوا يكبسون البيوت ويقومون، بحجة إخراج الجراكسة الهاربين من مخابئهم، بالنهب وإغتصاب النساء.

وفى اليوم الرابع، كان السلطان سليم فى ضاحية بولاق حيث نصب عسكره أكبر مخيماته، وكان قد شهد إعدام بعض الضباط ثم أمر بأن يُلقى بمئات الجثث التى فصلت رؤوسها وكانت تزحم المعسكر فى النيل على الفور، ثم إنتقل إلى الحمام ليتطهر قبل الذهاب لصلاة المغرب فى مسجد قريب من الميناء، وما إن خيم الليل حتى عاد إلى المعسكر وإستدعى إليه بعض معاونيه.

كان الإجتماع قد بدأ للتو عندما تعالى صخب غير مألوف: كانت مئات الجمال المحملة بمشاقات مشتعلة قد هجمت على المواقع العثمانية مضرمة النار فى الخيم، وكان الظلام قد أسدل ستاره فإجتاح آلاف من المسلحين المعسكر يساعدهم على ذلك الذعر الذى دب فيه، وكان على رأسهم طومان باى، وكان عسكره يضم جنودا بالطبع، لكنه كان يضم على الأخص أناسا من العامة والبحارة والسقائين وبعض الذين كان قد حكم عليهم والتحقوا بالفرق الشعبية المسلحة، وكان بعضهم يحمل خناجر، ولم يكن مع بعضهم الآخر سوى المقاليع أو الهراوات، ومع ذلك فقد زرعوا الموت فى صفوف العثمانيين يساعدهم على ذلك الليل والمباغته، وفى خضم المعركة حوصر سليم نفسه من كل صوب وكانت ضراوة حرسه وحدها هى التى أتاحت له شق طريق إلى الخارج، وأمسى المعسكر فى يدى طومان باى الذى أمر أنصاره من غير أن يضيع لحظة واحدة بأن يلاحقوا عسكر الإحتلال فى جميع أنحاء القاهرة، وبألا يأخذوا أسيرا واحدا.

ولقد استعيدت العاصمة شارعا بعد شارع، وأخذ الجراكسة يطاردون الجنود العثمانيين بمساعدة الشعب النشطة، وإذ غدا الضحايا جلادين فقد بدوا بلا رحمة، ولقد رأيت بنفسى غير بعيد من منزلى مصرع سبعة من الأتراك كانوا قد إحتموا بالمسجد، فإذا كان حوالى العشرين قاهريا يلاحقونهم فقد لجأوا إلى أعلى المئذنة وشرعوا يطلقون نار بنادقهم على الحشد، لكنهم ما لبثوا أن قبض عليهم وذبحوا ورموا مسربلين بدمائهم من أعلى المبنى.

كانت المعركة قد بدأت مساء الثلاثاء، ويوم الخميس نزل طومان باى فى جامع شيخو بشارع الصليبة وإتخذ منه مقرا لقيادته، وبدا أنه غدا سيد المدينة، حتى إنه خطب له مجددا فى الغداة من فوق المنابر.

بيد أن وضعه لم يكن أقل هشاشة من ذى قبل، فما إن إنقضى هول المباغتة حتى كان العثمانيون قد تمالكوا أنفسهم فإستعادوا بولاق وتسربوا إلى القاهرة القديمة حتى أطراف الشارع الذى أنا فيه وملكوا شبرا فشبرا ما كانوا قد فقدوه، وكان طومان باى يسيطر بشكل أساسى على الأحياء الشعبية فى الوسط، وقد منع الوصول إليها بحفر خنادق على عجل وبإقامة السواتر والحواجز.

وفى الشوارع كان القتال لا يزال ضاريا، وكان العثمانيون يحاولون وقد إستردوا السيادة على معظم الضواحى أن يسيروا نحو القلب، لكنهم لم يكونوا يتقدمون إلا ببطء وهم يتلقون أفدح الخسائر، ومع ذلك فإنه لم يكن هناك من ريب فى نتيجة المعركة، فقد أخذ العسكر والمسلحون من الفرق الشعبية يفرون شيئا فشيئا من معسكر طومان باى، بينما ظل السلطان المملوكي يقاتل نهارا بطولة على رأس حفنة من المخلصين وبعض رماة البنادق والجراكسة من حرسه

الخاص، وعزم ليل السبت على مغادرة المدينة من غير أن يفقد مع ذلك شيئا من تصميمه على الصمود، وأشاع أنه سوف يعود عما قريب بمزيد من القوى لإخراج المجتاحين.

كيف السبيل إلى وصف ما فعله العثمانيون عندما تمكنوا من النفاذ مجددا إلى أحياء القاهرة؟ فلم يكن الأمر فى نظرهم كما كان عند إنتصارهم الأول، أى قتل العسكر الجراكسة الذين قاوموهم، بل كان بعد الآن معاقبة جميع أهل القاهرة، فقد إنتشر جنود السلطان العثمانى فى الشوارع حاملين أمرا بقتل كل ما يتنفس، ولم يكن فى وسع أحد مغادرة المدينة الملعونة لأن جميع الطرق كانت مقطوعة ؛ ولا كان فى وسع أحد أن يجد ملاذا لأن المقابر نفسها والجوامع تحولت إلى ساحات قتال، وقد أرغم الناس على الإختباء فى منازلهم ريثما يهدأ الإعصار، وسقط فى ذلك اليوم من الفجر إلى الهزيع الأخير من الليل أكثر من ثمانية آلاف قتيل، وكانت الشوارع ملأى بجثث الرجال والنساء والأطفال والخيول والحمير مختلطة فى موكب دموى لا نهاية له!

وفى الغداة نصب سليم فى معسكره رايتين إحداهما بيضاء والأخرى حمراء وهى إشارة لرجاله بوقف الإقتصاص ورفع السيف عن أهل المدينة، وكان الوقت قد حان لذلك لأنه لو إمتد الثأر بضعة أيام أخرى بالعنف نفسه لما كان السلطان العثمانى إستولى فى ذلك البلد على غير مدفن عظام كبير.

"تذكر الأهرام! كم من رجل ماتوا فى سبيل بنائها وكان فى وسعهم العيش سنين أطول يفلحون الأرض ويأكلون وينجبون الأولاد! وربما ماتوا بعدئذ بالطاعون ولم يتركوا أثرا، ولقد بنوا وفقا لرغبة فرعون نصبا سوف يخلد طيفه إلى الأبد ذكرى عملهم وآلامهم وأشرف تطلعاتهم، ولم يفعل طومان باى غير ذلك، ألا تساوى أربعة أيام من البسالة

والكرامة والتحدى أكثر من أربعة قرون من الخضوع والإستسلام والدناءة؟ لقد قدم طومان باى للقاهرة وشعبها أجمل هدية ممكنة: نار مقدسة سوف تنير الليل الطويل الذى بدأ وتدفئه".

ولم يكن لى من طموح سوى البقاء على قيد الحياة أنا وذوى لأحكى ذات يوم على ورق صقيل قصة سقوط القاهرة، وسقوط إمبراطوريتها، وسقوط آخر أبطالها.

وصدر قرارى، وإذ منيت النفس بالرحيل فى الأيام الثلاثة القادمة فقد قمت بجولة أخيرة فى المدينة لتنظيم بعض الأمور، وإذ بى أسمع أن طومان باى قد أسر بسبب خيانة من زعيم قبيلة بدوية.

وحوالى الظهر دوت صيحات مختلطة بأصوات الأذان للصلاة، ولفظ اسم بالقرب منى، باب زويلة، وبالفعل فقد كان آلاف الأهالى، رجالا ونساء، شبانا وشيبا ، يهرعون بإتجاه ذلك الباب، وفعلت فعلهم، وكان جمع غفير لا ينفك يتزايد ويلفت النظر بصمته شبه التام، وفجأة انشق الجمع فاتحا الطريق لرتل عثمانى ضم نحو مئتى خيال وضعفهما من المشاة وأداروا ظهورهم للناس مشكلين ثلاث دوائر بعضها داخل بعض وفى الوسط رجل على حصان، ولم يكن من اليسير التعرف فى ذلك الطيف على طومان باى، فقد كان حاسر الرأس أشعث اللحية، ولم يكن عليه من الثياب سوى مزق من القماش الأحمر تسىء سترها عباءة بيضاء، ولم يكن فى قدميه غير لفافتين من جوخ أزرق.

ونزل السلطان عن حصانه بناء على طلب من ضابط عثمانى، وحل وثاق يديه، غير أن اثنى عشر جنديا لم يلبثوا أن أحاطوا به شاهرى السيوف، مع أنه لم يكن يبدو عليه أنه يفكر فى الهرب، وحيا بيديه الطليقتين الذين هتفوا له بشجاعة،

وإتجهت جميع الأنظار، بما فيها نظره ناحية الباب الشهير الذى كان الجلاد يدلى من فوقه حبلا .

وبدت الدهشة على وجه طومان باى، بيد أن البسمة لم تفارق شفتيه، وأما نظراته فكانت وحدها التى فقدت إتقادها، وهتف بالناس قائلا : "اقرأوا لى سورة الفاتحة ثلاث مرات!"

وتعالت آلاف الغمغمات وكأنها دوى يزداد زلزلة فى كل لحظة: "الحمدلله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين.."

وكان لفظ "آمين" صرخة ممدودة حانقة ثائرة، ثم لا شىء، وران الصمت، وبدا العثمانيون أنفسهم مشدوهين، وكان طومان باى هو الذى حركهم بقوله: "أيها الجلاد، قم بعملك!"

ولفت الحبل حول عنق المحكوم عليه، وشد من الطرف الآخر، وإرتفع السلطان مقدار قدم ثم سقط على الأرض، لقد إنقطع الحبل وأعيد ربطه وشده الجلاد ومعاونوه من جديد، وكرة أخرى إنقطع، ولم يعد التوتر ليحتمل، وبدا السلطان وحده مرحا وكأنه يشعر بأنه أصبح فى مكان آخر، مكان يجزى فيه الإقدام جزاء يختلف إختلافا تاما عن هذا الجزاء، وأعاد الجلاد ربط الحبل للمرة الثالثة، ولم ينقطع، وتعالت صرخة ممزوجة بالدموع والنحيب والدعاء، فلقد قضى آخر أباطرة مصر، أبسل من حكم وادى النيل طرا ، مشنوقا على باب زويلة!

فارس الزمان .. السلطان الشهيد

تاريخ العظماء دائما قدوة وسيرة ... وحكاية السلطان الشهيد "طومان باى" آخر سلاطين المماليك فى مصر "هى سيرة لشخصية عظيمة آن لنا أن نحيطها بالتقدير الذى تستحقه" ...

مما حملنى على كتابة بعض من سيرة هذا الفارس الذى فرض بطولته .. بالرغم من قلة حيلته .. أن كتب التاريخ عندما تشير إلى غزو العثمانيين لمصر .. تلخص الوقائع الرهيبة كلها فى إنتصارهم على طومان باى فى موقعة "الريدانية" ثم شنقه على باب زويله وإستتباب الأمر للسلطان سليم خان .. وينتهى الأمر!!

ولكن .. ما بين موقعة "الريدانية" ٢٩ من ذى الحجة ٩٢٢هـ/ ٢٢ يناير ١٥١٧ م ويوم تنفيذ الحكم بالإعدام شنقا على بطلنا فى ٢٢ من ربيع الأول ٩٢٣هـ/ ١٤ أبريل ١٥١٧ م نحو ثلاثة شهور .. حافلة بأروع صور البطولة النادرة .. والخيانة النادرة أيضا !!.. هى بكل المقاييس صفحات مجيدة فى تاريخ بلادنا - جديرة - أن يعرفها المصريون وبكل تفاصيلها، وهى أيضا فترة فاصلة، بها ودعت مصر حياة زاخرة مزدهرة، لتدخل بعدها فى عصر مجهول وقاس، لم تفق منه إلا بعد ثلاث قرون .. هذه الثلاثة شهور، كم من أزمات مرت قبلها، وكم من عهود جاءت بعدها، لكنها تظل بأحداثها اللاهثة المريرة التى إجتاحت "عصر الدولة المملوكية" بأكملها: غاضبة كبحر هادر، قاسية كعاصفة عاتية .. حددت مصير دولة المماليك الجراكسة .. ومصير شعب!

كانت هزيمة الجيش المملوكى عقب مقاومة رائعة نادرة، حتى من قبل موقعة "الريدانية" .. فقد حارب السلطان الغورى وجيشه فى موقعة "مرج دابق" بشجاعة وبسالة حتى كان لهم النصر فى بداية المعركة، ثم حدثت الخيانة الفاجرة التى كسرت الجيش وأتاحت للعثمانلى معاودة القتال حتى تم لهم النصر .. لقد حارب الغورى ومن بقى معه، حتى أن خيولهم كانت تخوض فى بطون القتلى، وقد أمر السلطان سليم بإحصاء القتلى من الجانبين، فكان أمام كل شهيد مصرى:

أربعة قتلى من العثمانلى .. وتحدث الأمراء العثمانيين عن الشجاعة النادرة لجند مصر، أمام جحافل مدججة بأحدث الأسلحة فى ذلك العصر – المدافع والبنادق – والتى أحدثت ثورة فى الخطط الحربية آنذاك، وحمل نماذج منها "أبو حمدون الأندلسى" وقدم بها من المغرب وعرضها على السلطان الغورى، وقد أدرك أبو حمدون خطورة هذا السلاح الجديد، بينما لا يملك العرب سوى السيف والفروسية، لكن السلطان أعتبر هذه البندقية "بدعة من الكفار .. ولن نترك سنة لأسلافنا"!!

وتحمل طومان باى المسئولية الجسيمة، وحارب فى "الريدانية" فى بضعة آلاف من الفرسان سلاحهم السيوف والخيول، مائتى ألف من العثمانلى مزودين بالبنادق و٦٠٠ مدفع (ضربزانات) .. حارب طومان باى ومن معه، حربا كلها إصرار على النصر أو الموت .. حربا تشرفهم على مدى الدهر .. وقتل طومان باى بنفسه عددا من قواد السلطان سليم، وإقتحم سنجق (مخيم) سليم وأمسك بأعظم قواده سنان باشا (الوزير الأعظم وصاحب المسجد الشهير ببولاق أبى العلا) وجذبه من فوق فرسه وأوقعه أرضا وقتله، وظن طومان أنه قتل سليم نفسه!...

ويشهد التاريخ أن طومان باى والأمراء والفرسان – بالرغم من الخيانة – وتفوق العدو تسليحا وعددا، قد قتلوا من العثمانيين – فى عدة مواقع شرسة – الآلاف وكبدوهم خسائر فادحة، جعلت سليم خان يفكر أكثر من مرة بالرحيل من مصر وينجو بحياته وحياة حيشه ويعود إلى بلاده .. غير أن الخونة (جان بردى الغزالى وخاير بك ..) خوفا على حياتهم ومناصبهم وطموحاتهم، كان يزينون لسليم (سفاك الدماء الذى لم يتورع عن قتل أبيه وأخوته فى سبيل العرش!) الثبات والبقاء ..

حارب طومان باى فى كل مكان .. داخل القاهرة وخارجها .. فى الجيزة واطفيح ودهشور وفى الفيوم .. ودافع أولاد البلد عن القاهرة بكل ما يملكون، حتى أوشك سليم إزاء هذه المقاومة النادرة أن يغلبه اليأس ويعود من حيث أتى، ووجه إلى خاير بك (أطلق عليه الشعب: خاين بك!) لوما عنيفا على تحريضه إياه لغزو مصر، وهو الذى أطمعه فى سهولة النصر على جيشها!.. وحاول سليم بالفعل الإتصال بطومان للتفاوض حول الإنسحاب ..!

لقد أجمع المؤرخون على أن طومان باى كان "نادرة زمانه" فى العقل والتدبير والصلاح، وفارس يتحلى بكريم الأخلاق – حتى مع من خانوه! – وإذا كان الحظ قد عانده، والمقادير كانت ضده .. حتى كانت نهايته فى مشهد درامى!.. إلا أنه لم يحاول أبدا أن يهرب من قدره وظل الفارس النبيل .. باذلا غاية الجهد دون تقصير وهو يدافع عن بلاده إلى النهاية .. كان حتما أن يسير إلى قدره، وعلى حد تعبيره: "كان لابد أن أسير إلى النهاية، فى سبيل من حملونى المسئولية وقبلتها منهم" ...

إن سيرة هذا السلطان الشهيد: صفحة رائعة .. ومريرة .. حافلة بالتفاصيل الكثيرة المثيرة، كما حفلت بالبطولة النادرة .. والخيانة النادرة أيضا !!

"مصر" .. أغلى درة تزين عمامة سليم!

أمضى السلطان سليم فى مصر نحو ثمانية شهور .. بعد أن أصبحت أغلى درة تزين عمامته!!

وقام سليم بزيارة المنطقة الأثرية بالجيزة .. ودخل حمام المؤيد وأبدى إعجابه الشديد به .. صلى الجمعة بالجامع الأزهر – أكبر جامعة إسلامية – وشاهد الإحتفال بـ"جبر

الخليج" يوم وفاء النيل، كما شاهد الإحتفال بـ"طلعة المحمل الشريف" .. وإنبهر بـ"خيال الظل" حتى أنه خلع على "المخايل" قفطانا مخملا مذهبا!

وأمضى ثلاثة أيام بالإسكندرية التى وصفها بأنها "مدينة لا نظير لها"!.. وكان العثمانيون قوم بلا حضارة .. فبهرتهم مصر بمظاهر حضارتها ..

وقد أصر سليم وأمرائه على أن تكون هذه المظاهر الحضارية لهم وحدهم، وحرمان مصر وشعبها منها!.. لم يكفهم ما غنموه فى "مرج دابق" من الخيول المطهمة بسروجها المذهبة .. وخزائن الأموال .. وخزائن الذهب .. وحواصل الذخيرة .. وآلات السلاح الفاخرة التى كانت لملوك مصر السابقين .. وما نهبوه فى "الريدانية" .. من "قماش وخيام وسلاح وخيول ومكاحل وجمال وأبقار، وشون الغلال" .. ثم "كبس" قصور الأمراء والأعيان وبيوت الناس .. ونهب كل ما يلوح لهم!

كتب "اميل لودفيج" المؤرخ العظيم :" ان اكثر ما اكترث له اولئك الغزاة هو ان ينالوا منها اقصى ما يمكن نيله من اموال وذهب، ولم يأت خلفاء السلطان سليم الى مصر لزيارتها .. ولم يترك هؤلاء الاتراك اى تراث ثقافى، حتى ان نفوذ الخلافة الذى نزعه سليم من صاحبه الشرعى الاخير لم يكن من القوة ما يجمع به البلاد المفتوحة به حول مثل عال مبدع لحضارة"!

مارس العثمانلى "سياسة النهب العام" لكل ما يحمل قيمة فى مصر، فبدأوا بقلعة الجبل، حيث نهبوا ما جمع فيها من تحف السلاطين على مدى ثلاثة قرون، ونهبوا حواصل "الشرابخاناه" .. و"الركبخاناه" .. و"الطبلخاناه" .. و"الزردخاناه" .. أفخر أدوات الطعام والشراب المطعمة بالذهب والجواهر،

وآلات السلاح والموسيقى وخزائن المال والكتب .. حتى السجاد النادر والأعمدة ورخام الأرضيات الفاخر .. وآثار النبى ومفاتيح الكعبة وأبوابها .. وغير ذلك مما تتباهى به اليوم متاحف تركيا!..

لم يكتفى سليم بذلك، وإنما سعى أيضا إلى القضاء على مقومات مصر الحضارية، فأراد أن يحرمها من صناع الحضارة فى كل فن، على أمل أن تكون دولته وحدها رائدة للحضارة الإسلامية!

فحمل معه إلى "إستانبول" الآلاف من الفنانين والمهندسين والبنائين والنجارين والحدادين والنساجين وصناع السلاح .. "مما لايمكن حصر أعدادهم" على حد تعبير "ابن اياس" .. وغيرهم من أرباب الحرف والصناعات .. وجملة من فنانى خان الخليلى .. ومن كتاب الدواوين ورجال الإدارة والقضاء، ومن معلمى المدارس الحربية .. والفلاحين .. حتى عمال معامل تفريخ الدجاج والبيض!.. وكانت تكتب أسماء المرحلين فى قوائم، ويتم حشدهم فى المراكب إلى استانبول، وكم كابدوا من صنوف التعذيب والإذلال .. ومقر إقامتهم فى السجون والأبراج!.. هؤلاء المصريون هم الذين شيدوا روائع العمارة الإسلامية التى تفخر بها تركيا اليوم!.. كما نشروا بها فنون الحرف والصناعات، مما كان له أروع الأثر فى النقلة الحضارية للدولة العثمانية!

وكأنه "قدر" مصر .. بلدنا الموعودة دائما بـ"الحرامية الخواجات"!.. لصوص الحضارة وبلطجية التاريخ!..

كلمة للتاريخ

تلك كانت حكاية الملك الأشرف أبو النصر "طومان باى" آخر سلاطين المماليك الجراكسة فى مصر، ومن أعظمهم

سيرة بالرغم من أنه لم يحكم سوى ثلاثة شهور وخمسة أيام، إلا أنها كانت فترة عصيبة ومريرة فى تاريخ مصر، أنذرت بنهاية دولة من أعظم الدول فى التاريخ، لتدخل مصر بعدها فى سرداب مظلم ثلاثمائة سنة ..!

وما كان لطومان باى أن يلقى هذه النهاية الدرامية، إلا أن سوء الحظ قد يصيب غالبا الرجال الذين يتحلون بالمبادىء وسمو النفس، وكأنها سخرية من الأقدار أو اختبار منها!.. ومع ذلك فلم يحاول أن يهرب من قدره، باذلا غاية الجهد وأروع مثال للشجاعة فى سبيل مصر ودفاعا عن شرفها .. وكان لابد أن يسير فى الطريق الذى إختاره لنفسه حتى النهاية!

ولقد إمتد الإعجاب بشخصية طومان باى وبطولته إلى الأوروبيين، فقصة مقاومته للإحتلال العثمانى ثم إعدامه تناولها عدد من الرحالة الإيطاليين والفرنسيين، فى إطار تجاوز التعاطف والتأثر إلى الإعجاب الخالص .. حتى أن الرحالة الإيطالى "باولو جيوفيو - P.Jiovio" وضع طومان باى فى مؤلفه: Le Histoires بين الشخصيات التاريخية الكبرى فى العالم - فى ذلك العصر - كما نلمس فى كتابات الفرنسى "اندريه تيفيه - A.Thevet" رحلات فى مصر - Voyages en Egypte 1549/1552 إعجابا رائعا بطومان باى، حتى وصفه بأنه "لا يقل مكانة عن صلاح الدين"!

صفحات ذهبية
من دفتر ذكريات المملكة المصرية

أفراح الأنجال .. وليالي ألف ليلة وليلة!

شهد عصر الأسرة الملكية في مصر الكثير من مظاهر العظمة والفخامة في حياة القصور، وفي الأعياد الدينية والمناسبات القومية، بلغت ذروتها في احتفالات افتتاح قناة السويس الاسطورية في عهد إسماعيل العظيم، وفي احتفالات زفاف أولاده والتي اشتهرت تاريخيا بـــ "أفراح الانجال" .. وفي احتفالات زواج الملك فاروق والملكة فريدة، وجميعها عكست أبهة الملك وجلاله وكانت أشبه بالأحلام في مخيلة التاريخ!

كانت سراي القصر العالي وحديقته الي أرض حي "المنيرة" .. مسرحا للأفراح الأسطورية التي اشتهرت بـــ "أفراح الأنجال".. والتي لم تر القاهرة شبيها لها في ماضيها.. وقد وصف "محمد شفيق باشا" في مذكراته و"الياس الأيوبي" في كتابه: "مصر في عهد الخديو إسماعيل"، مظاهر العظمة والفخامة التي واكبت الاحتفالات بزواج أنجال إسماعيل باشا كتب الياس الأيوبي: "وأما الأفراح والأعراس فلا أوقع في تقريبها الي دائرة المخيلة من وصف الأعياد التي أقيمت احتفالا بزواج الأمراء الثلاثة: توفيق وحسين وحسن أبناء إسماعيل، من الأميرات أمينة هانم بنت إلهامي باشا بن عباس الأول والأميرة عين الحياة هانم بنت الأمير أحمد باشا بن إبراهيم الأول والأميرة خديجة هانم بنت الأمير محمد علي الصغير بن محمد علي الباشا العظيم وزواج أختهم الأميرة فاطمة هانم بالأمير طوسون بن محمد سعيد، تلك الأعياد وقد أقيمت ابتداء من ١٥ يناير سنة ١٨٧٣ دامت أربعين يوما كاملة باعتبار عشرة أيام لكل فرح منها: ولا يزال ذكرها الي يومنا هذا يبهر تصور الذين رأوها وعاشوا أيامها اللامنسية

فإن شوارع العاصمة المهمة وعلي الأخص ما كان منها مؤديا الي القصر العالي مقر والدة إسماعيل والي سراي الجزيرة مقر حفلات إسماعيل المفضل، وسراي القبة مقر ولي العهد زينت بالنجف والفوانيس المختلفة الألوان علي مسافات بضعة آلاف من الكيلو مترات ووضع في نهايتها أقواس نصر مختلفة الأنوار وجعلوا في أعاليها طرقات رصعت بالشموع، فسطعت ملايين الأضواء تتلألأ في الليل كأنها نجوم سطعت فجأة فقلبت الظلام نهارا أو جعلت المتفرجين يتصورون مدة ستة أسابيع متوالية، أنهم ينتقلون في الليل من منطقة مدار الشمال الي منطقة أحد القطبين صيفا، حيث لا تغيب الشمس عن الآفاق أشهر متعددة، وأقيمت في أهم الميادين هنا جوقات موسيقية وأهمها التي اتخذت موقفها في الطرقة بعالي قوس النصر تجاه القصر العالي وهناك تخوت آلاتيه وأهمها تخت عبده الحامولي، بلبل الأفراح ورب الطرب الشرقي علي العموم، فأخذت تلك تصدح وتعزف وأخذت هذه تشنف بالحان بديعة وأصوات رخيمة تجعل سامعيها يتخيلون أنهم انتقلوا الي جنة الخلد البهية وأنهم يسمعون ترانيم الملائكة المختارين حول عرش الرحمن

ونصبت في كل جانب المسارح المرتجلة ليمثل عليها غواة الفن وجوقات كراكوز، فيحضر من شاء تمثيلها مجانا ويعود الي منزله مرتاحا مبتهجا ومدت الحبال في الساحات العمومية، لاسيما جهة القصر العالي ليعلب عليها" البهلوانيون "ألعابهم المدهشة المحيرة الألباب فشبكت بصواري عالية جدا ملفوفة عليها أقمشة ملونة تعلوها مراء فاخرة وتتخللها مناور ساطعة، ورتبت الصواريخ بتفنن غريب في تلك الجهة عينها وأخذوا يشعلون كل ليلة جانبا منها فتدوي طلقاتها في آفاق العاصمة كلها وتتناثر نجومها وأهلتها في جميع الأحياء ست

ساعات متوالية، ناشرة فيها أنباء الأفراح القائمة وداعية الأهالي علي اختلاف طبقاتهم الي الاشتراك فيها

وفي اليوم الخامس عشر من شهر يناير، بدأ خروج الهدايا المهداة من سمو الأميرة والدة إسماعيل وزوجاته الفخيمات الي العرائس من القصر العالي وشوارهن وكان شوار الأميرة أمينة هانم زوجة ولي العهد أول ما خرج من ذلك النوع فسير به الي قصر القبة تخفره صفوف الفرسان بزي عربي بديع والاي بيادة بأسرة بملابس بيضاء ناصعة كالثلج، تتقدمه جوقة موسيقية من أمهر العازفين وكانت الهدايا موضوعة في اسبتة مكشوفة فوق عربات مكسوه بالقصب، علي مخدات من القطيفة المزركشة بالذهب والماس، يغطيها شاش فاخر، يمسك بأطرافه أربعة عساكر في كل عربة ويتبعهم ضباط بملابسهم الرسمية والسيوف مشهرة في أيديهم

وكانت تلك الهدايا عبارة عن مجوهرات سنية وقلائد ماس ساطعة من النوع المعروف عامة باسم "البرلنتي" ومناطق من الذهب الخالص وأقمشة مطرزة باللؤلؤ العديم المثيل وزمرد في حجم البيض، وملابس بيضاء مطرز عليها رقم الأميرة باللآلي والحجارة الكريمة، وأنية متنوعة من الفضة الصب الخالصة بكمية عظيمة وثمن ذلك جميعه يفوق الحصر والعد وكان بين الهدايا المقدمة من إسماعيل لأكبر أبنائه سرير من الفضة الصب الخالصة شبيه بالذي أهداه الي الإمبراطورة أوچيني أثناء أقامتها بمصر، محلي بماء الذهب الإبريز، وعواميده الضخمة مرصعه بالماس والياقوت الأحمر النادر والزمرد والفيروز فإجتاز الموكب المهيب شوارع العاصمة بين سياج حي من العساكر الشاكي السلاح، وتقدم يتهادي في سيره، مختالا كأنه طرب بذاته شاعر بقيمته

ولم يختلف شوار الأميرات عين الحياة هانم وخديجة هانم

وفاطمة هانم والهدايا المهداه إليهن عن شوار أمينة هانم وما أهدي إليها مما تقدم وصفه

وفي اليوم السادس عشر أحيي في العباسية السباق الأوحد وكان معظم الجوكيه من السود اللابسين لباسا من الحرير الأحمر ومد فيه علي نفقة الخديو الخاصة، مقصف للمدعوين فاقت أصناف مأكولاته ومشروباته في التنوع واللذة كل ما ظهر من نوعها علي المقاصف الخديوية الي ذلك الحين

وفي التاسع عشر منه بدأت أعياد القصر العالي فنصبت حول الساحة الممتدة أمامة الصواوين والسرادقات وعليها أسماء أصحابها وبيان الغرض المعد كل منها لأجله وفرشت بالطنافس العجمية الفاخرة، وأقبل أرباب اليازرجة يقيمون ألعابهم اللطيفة في وسط تلك الساحة الواسعة، ومن ضمنهم بهلوان كان يصعد علي حبله بخروف ويجزره فوق، ثم تفرق لحومه علي الفقراء ورتب مقصفان للعموم، أحدهما علي النمط الغربي وما فتئ مزدحما بقاصديه، الراغبين علي الأخص في انبذته العتيقة الجيدة والآخر الشرقي وما فتئ هادئا بالمقبلين عليه وأقيمت صواوين خاصة للقناصل وغيرها للتجار وأخري للعلماء وسرادق لمحافظ العاصمة، علاوة علي الصواوين التي أقامها الأعيان علي نفقتهم لأنفسهم ليتمتعوا بمشاهدة الأعياد

علي أن الرقص والغناء لم يكونا قاصرين علي الخارج بل ما كان منهما في داخل القصر وفي سر دور الحريم كان أهم واشهي منظرا، هناك كنت تسمع (ألمظ) التي كانت إذا غنت أخذت بمجامع القلوب واستولت علي الأسماع برنين صوتها الرخيم وتوقيع أناشيدها الفتانة، هناك كنت تنظر مشاهير البهلوانية من الإنجليز يأتون من صفوف الألعاب ما يخلب العقول ويدهش الألباب وأساتذة الكار من أهل اليازرجة

والسيماء يأتون من الملاعيب ما يحير الأبالسة أنفسهم وذلك لبهجة ساكنات تلك الدور وانشراح عيونهن وأفئدتهن"

ويصف "شفيق باشا" شوار العرائس ومظاهر الاحتفالات بالقصر العالي فيقول:

"كانت الذبائح تقدم الي بعض الفقراء والمحتاجين والي البعض الآخر في أماكن مخصوصة منها اللحوم والديكة الرومية والدجاج والخبز والحلوي وغيرها وكانت النيازك (الصواريخ) تطلق من حديقة الأزبكية، وكان جهاز كل من عروس البرنسين حسين وحسن، وكذلك جهاز البرنسيسين فاطمة خانم وأمينة خانم، منسقا في ثلاث غرف فسيحة بالقصر العالي للعرض علي الأنظار وهو يتكون من أنواع الحلي المختلفة الأشكال، المرصعة بالجواهر والماس هذا عدا الأواني الذهبية والفضية والمرايا وفناجين القهوة بأظرفها الذهبية المحلاة بالجواهر، وافمام الشبوكات التي من الكهرمان المطوق بالذهب المحلي بالجواهر

وكان كل جهاز من الجهازات الأربعة يطاف به في أنحاء المدينة محملا علي عربات تحت حراسة الجند الراكب، تتقدمها فرقة موسيقية لإرسالها الي سراي العروس وكانت الشوارع التي يمر بها مزدحمة بالجماهير الغفيرة وكذلك كانت شرفات المنازل والفنادق غاصة بالمتفرجين

وبعد ظهر يوم الأحد ١٩ يناير توجهت عروس توفيق باشا التي كانت تقيم في سراي الحلمية مع والدتها منذ عقد العقد الي القصر العالي لتقضي فيه حتي الخميس ولتشاهد الحفلات التي تقام فيه بهذه المناسبة ولتزف بعدها الي سراي زوجها، وكان من المقرر إقامة المآدب العديدة في الخارج للأجانب والمصريين وفي داخل الحريم للأجنبيات وعدد عظيم من الوطنيات

وداخل السراي كان الأغوات يرشدون ويصحبون المدعوات الي داخل الحريم، علي حين كانت القلفوات ومعهن بعض من تتكلم اللغات الإفرنجية واللغة التركية في استقبالهن من الوطنيات والأجنبيات، فيحملن عنهن ملابسهن الخارجية "اليشمق والفرجية" ومعاطف الإفرنجيات ثم يرافقنهن الي الأمكنة التي أعدت لكل منهن، بين عزف الموسيقي بجوقاتها المختلفة وأصوات المغنيات ومناظر الرقص بأنواعه، وبعد تقديم التهاني للوالدة وللأميرات تقدم للمدعوات القهوة والسجاير وعند تكامل حضور الأميرات وكبيرات المدعوات، يقمن الي غرفة المائدة وهي غرفة فخمة وواسعة تتدلي من سقفها في الوسط ثريا كبيرة علي حين زينت الجوانب الأربعة، بأشجار نخيل مصنوع من البلور، ذي جذع سميك، كأنه المنشور الزجاجي يعكس الأضواء التي تسقط عليه، من ثريا مثبتة في أعلي الشجرة وكانت المائدة علي الطريقة الفرنكية

ويلبس الأميرات الملابس الفخمة الإفرنجية التي جلبت خصيصا من أشهر محلات "المودة" بباريس وقام بضبطها وتكييفها علي الجسوم أجنبيات مختصات بفن الخياطة بمصر وقد جلسن بثيابهن البديعة حول المائدة، يشغف أسماعهن أثناء المأدبة فرقة موسيقية ماهرة، وبعد العشاء يرجعن الي الصالون الأول وهناك تقدم لهن القهوة والسجاير ثم ينزلن الي صالون كبير في الدور الأول، تجلس الوالدة في أحد أركانه فيقدمن لها التهاني كل بدورها ثم تبدأ الراقصات وتتعدد أنواع الرقص من تركي الي "مازوركه" الي "بولكه" وهما رقصتان مزدوجتان علي نحو الرقص الإفرنجي غير إن إحدي الراقصتين تكون بملابس رجل الي رقص السيف الذي يرقصنه بخفة ورشاقة

وكان الجوقات التي استدعاها الخديوي إسماعيل كما قدمنا تقوم بألعابها في جزء من البهو المفصول بشيش لتتمكن الزائرات الجالسات فوق "شلت" من مشاهدة التماثيل بدون أن يتمكن أحد من رؤيتهن من خلفه

وكان الممثلون بين الفصول يخرجون لتناول المرطبات في محل مخصوص، معصوبي الأعين ويقودهم الاغوات الي المقصف الموجود داخل الحريم ويفعلون مثل ذلك عند عودتهم لاستئناف التمثيل، وفي الساعة العاشرة تزف العروس ويصطف الاغوات صفين، وبيد كل واحد "فنيار" ذو شمعات تعطي ضوءا كبيرا وبين الصفين تسير العروس في أبهي حلل العرس مسدولا علي وجهها الدواك الذهبي الرفيع، وتكون العروس محلاه بأكثر ما يمكن أن تحتمله من الحلي والجواهر الكريمة، ويسندها في مشيتها اثنان من الاغوات، ثم تبدر عندئذ البدرة الفضية التي تحملها إحدي "القلفوات" في كيس كبير وعندما تصل العروس الي غرفة العرش "الكوشة" تجلس علي مقعد عال بين أمها وبين الوالدة، ويكثر التزاحم علي الدخول لمشاهدة العروس في حليها الجميلة بسهولة وهناك تنثر البدرة الذهبية، وبدلة العروس مرصعة من الرأس الي القدم بالماس، ثم تخرج العروس من غرفة العرش وتتوجه الي غرفتها الخصوصية ثم تخرج بعدها البرنسيسات وتنفض الحفلة

وبعد ظهر يوم الخميس ينتظم موكب زفافها للذهاب الي سراي زوجها ويتقدم الموكب الموسيقي السواري، وفرقة من المشاة، واخري من السواري ثم يتبع ذلك العربات المقفلة فيها البرنسيسات قريبات العروس، ثم تأتي عربة العروس وهي عربة تشريفه كبري مذهبة يجرها ستة من كرام الخيل ويقف في مؤخرة العربة اثنان من الفرنساويين بزيهم المخصوص الأبيض القصير الملاصق لأجسامهم وصديرياتهم ذات

الأزرار الذهبية وقيعاتهم، ويلبس الحوذي والذي بجواره مثل تلك الملابس أيضا علي حين يركب آخر في نفس الزي علي الحصان الأول الأيمن ويحف بالعربة صفان من الأغوات علي جيادهم، وكلهم يرتدون الشيلان المهداه لهم، ويلي ذلك العربات الخصوصية لكبار المدعوات لمرافقة العروس، وعند وصول العروس الي سراي زوجها يستقبلها الزوج وتنحر الذبائح وتزف داخل الحرم ويحسر زوجها النقاب المبرقعة به عن وجهها

زفاف البرنسيسات!

وفي ظهر الثالث والعشرين من يناير خرجت العروس الأميرة أمينة هانم بصحبة سمو الوالدة باشا من سراي الحلمية، وتوجهت باحتفال عظيم الي قصر سمو ولي العهد بالقبة يتقدمها ويحف بها موكب مهيب مؤلف من ثلاثة آليات من الخيالة، الأول آلاي ذوي الرماح وراياتهم المرفرفة من رماحهم خضراء وحمراء ورؤسهم مغطاه بخوذات الدراجون، والثاني آلاي ذوي الدروع، ودروعهم تسطع عليها الشمس فيتلألأ كل منها كأنه قرصها المنعكس ويتدلي من خوذاتهم شاش جميل أصفر وأبيض يلعب الهواء به حول وجوهم السمراء الهيجائية، والثالث آلاي ذوي الزرد وسلاحهم كسلاح الغز أيام الصليبيين وخوذاتهم الصغيرة يتدلي منها قناع علي وجوهم من الأمام وأكتافهم من الوراء وهم في كسوتهم الفولاذية جامدون، كأنهم قدوا من جلمد قطعة واحدة كفرسان شاهين شاه وصلاح الدين والظاهر بيبرس وسارت وراءهم العربات وأهمها عربات التشريفة يجرها الستة والثمانية من الخيول ذات اللون الواحد: أبيض كالنور أو أشهب كالذهب أو أسود كالليل ويقودها حوذيون بملابس حمراء تخططها شرائب

القصب والفضة، بجوارب حريرية تصعد لغاية ركبهم، وبجدائل شعور مستعارة مرشوشة بالودرة علي رؤوسهم كأنهم غلمان أحد اللويسات، الرابع عشر أو الخامس عشر أو السادس عشر، ملوك فرنسا، أعيدوا الي الوجود ويسير بجانبها مشيا علي الأقدام خدم باللباس عينه، أيديهم علي عضاضات أبوابها، وعلي رؤوس الجميع، من حوذيين وخدم، برانيط واسعة من ذوات القرون وسار وراء العربات: الأغوات، بلباس إفرنجي وبنطلونات ملونه فرايحية، يمتطون صهوات خيول قلما يدركون كيف يحكمونها، وكانت العين تري في وسطهم شيخا جليلا وقورا مهيبا، وتسمع الأذن همسا إنه "أمين بك آخر المماليك"، وصاحب الوثبة المشهورة، علي أنه إنما كان رئيس إدارة بيت دولة الوالدة

وعلي هذا النمط عينه، وبالأبهة والجلال ذاتيهما، خرجت عروسا الأميرين حسين وحسن الي قصري زوجيهما: وأما الأميرة فاطمة هانم فقد كانت زفتها أبهي وأجمل وقد وصف إدون دي ليون كيفية الاحتفال بفرحها في داخل القصر العالي عينه كما نقلته اليه عقيلته فقال: اجتازت المدعوات بستانا فسيحا منارا، كأنهم أرادوا أن يبقوا فيه نور النهار بملايين المصابيح المتعددة الألوان، وسرن فوق طرقه رخامية تحف بجانبيها الأشجار والمغرسات الغريبة فبلغن مدخل سراي الوالدة حيث كان الأغاوات في انتظارهن يوصلوهن الي قاعة واسعة ذات رياش فاخر، فوجدن هناك جواري الحريم، ونصفهن مرتديات لباس رجال من أفخر الملابس الشرقية، وواقفات بصفة حجاب وبعضهن لابسات لبسا بسيطا بطرابيش حمراء علي رؤوسهن، وشاهرات في أيديهن سيوفا لامعة، وبعضهن لابسات لبسا عسكريا ساطعا، وواقفات وقفة عسكرية بمظهر عسكري حربي لا بأس به، كأنهن وصيفات الملكة زبيدة زوجة أمير المؤمنين

هارون الرشيد فأدخلن الضيفات الي حجرة كانت "العوالم" ترقص فيها بالصاجات بينما كانت موسيقي نسائية تعزف ألحانا شجية، تلك الحجرة كانت تفتح علي حجر أخري، يتناول النظر أطرافها وفيها جوار عديدات يرقصن رقصا غريبا بعصي وسيوف ودرقات في أيديهن

ثم أجتازت الضيفات عدة بلوكات أو صالات قدمت لهن فيها جميع أنواع الشربات والمشروبات والحلوي المصنوعة علي الطريقتين الغربية والشرقية، معروضة علي موائد جمعت كل ما لذ وطاب وترأست أميرات الأسرة المالكة المائدة الخصيصة بزوجات الخديو وقرينات القناصل وغيرهن من قرينات كبار رجال الدولة فبينما هن يأكلن ويشربن، جعلت الموسيقي تصدح صدحا مفرحا

ولما انتظم العقد بجميع المدعوات، دخلت الراقصات والمغنيات وأطربنهن مدة ثم قدمت إليهن الهدايا الفاخرة من لدن الأميرات وأزواج الباشوات أصحاب المقامات الرفيعة في الحكومة المصرية فتغنين بمديح الهاديات، بعد استئذان دولة الوالدة والهاديات شكرنهن - وهي عادة "الشوبش" المعروفة بيننا حتي يومنا هذا

بعد ذلك استجلبت العروس فأمسك كل من أغاوات السيدات المدعوات شمعدانا فيه شموع مختلفة الألوان، واصطفوا من أول السلالم حتي القاعة العظمي، حيث كان عقد المدعوات منتظما وفرش علي الأرض منسوج من ذهب لتخطر العروس عليه، وانصرفت الراقصات ليعدن بمعيتها وما هي إلا برهة قصيرة حتي تجلت الأميرة فاطمة هانم تستند علي ذراع الأميرة أمها، في وسط جمهور أميرات البيت الخديوي الكريم فتقدمت بخطوات بطيئة، وبوقفة بعد كل خطوة كأنها تقول للناظرات: ها أنا فأعجبوا بي! واجتازت،

وعيناها مطرقتان، صفي الأغوات علي النسيج الحريري، بين أغاني المغنيات والراقصات يتقدمنها فحالما أطلت أعين المدعوات عليها نهضن وبينما هي تتقدم كإلهة من آلهات الأزمنة الماضية نحوهن، بمعيتها وجواريها، صعدت كواعب كالبدور علي كراسي وراءهن، وأخذت تنثر عليهن خيريات ذهبية، ضربت لتلك المناسبة، فتعلق برؤوسهن وملابسهن، فامتلأت القاعة علي سعتها بالأميرات والسيدات والجواري والراقصات والمغنيات، وتألقت كلها بالديباج الساطع والذهب الوهاج وبثت في كل مكان زهور البرتقال والورود، ونثرت فوق الملابس اللماعة البراقة

وكانوا قد أقاموا في صدر تلك القاعة، فوق منصة مرتفعة ثلاثة عروش مكسوة بالحرير الأبيض فجلست دولة الوالدة علي عرش اليمين، والأميرة أم العروس علي عرش الشمال وجلست العروس وعلي رأسها تاج من الماس ثمنه أربعون ألف جنيه، علي عرش الوسط وكان فستانها من الحرير الأبيض الفرنساوي الأغلي ثمنا، كله مرصع بأنفس أنواع اللؤلؤ والماس، وله ذيل طوله خمسة عشر مترا، رفعته الجواري وراءها وهن راكعات، فتقدمت المدعوات وهنأنها، وبعد أن جلست معن برهة عادت إلى حجرتها واستمر الفرح حتي مطلع الفجر

ومما يحسن ذكره بمناسبة تزويج الأمير حسن من الأميرة خديجة أن إسماعيل وقد أعجب بملامح الذكاء المرتسمة علي محياها - لما ادخلها المدرسة التي أنشأها لأميرات البيت العلوي خصيصا، وعدها بتزويجها من أحد أولاده إذا هي أظهرت اجتهادا في تعلمها ثم مضي علي ذلك زمن، وعن إسماعيل يوما أن يزور تلك المدرسة، ويتفقد حال الطالبات فيها فلما وصل الي الأميرة خديجة سألها ألي أين

بلغت من تعلم القرآن، يا بنيتي؟ فأجابت من فورها الي "واذكر في الكتاب إسماعيل انه كان صادق الوعد" .. فسر الخديو بجوابها جداً وقال "أجل، أجل" ثم بر لها بوعده!!

البرنس يصف زفاف "توفيق" و"أمينة هانم"!

حرص البرنس "محمد على توفيق" ولى العهد على تسجيل مراسم زفاف والديه كما رويت له، وهو صاحب السراى "متحف المنيل حاليا" كما كان كاتبا ورحالة .. فكتب :

"قرر جدى إسماعيل أن يحتفل بزواج أبنائه الأربعة مدة شهر كامل.

ولما كانت تلك هى المرة الأولى التى ينتمى فيها العرسان جميعا إلى الأسرة المالكة، فقد أعد كل شئ لتبلغ الأفراح روعة لم يسبق لها مثيل ...

وقد أستغرق الأحتفال بكل زواج أسبوعاً كاملا، بحيث خصص شهر كامل للأفراح والمهرجانات.

وفى الأسابيع التى سبقت التوقيع على عقود الزواج، تدفقت على قصور العرائس الصناديق المملوءة بالأدوات المنزلية وأقمشة الجهاز الفضية والحلى.

ولما كان ذلك متشابهاً بالنسبة إلى العرائس الأربعة، فأننى أكتفى هنا بوصف ماهو خاص بزواج والدتى، كما روى لنا نحن أطفال فيما بعد.

ففى قاعة كبيرة عرضت مجوهرات العروس على وسائد من القطيفة الحمراء: التيجان، والأساور، والحلى الثمينة والحجارة الكريمة .. وألقى على كل وسادة غشاء من الأسلاك الحديدية الدقيقة، تسمح للزائرين أن يروا الحلى وتحميها فى آن واحد من كل محاولة للسرقة .. وفى قاعتين أخرين، وضعت رفوف صفت عليها قطع الأدوات الفضية والذهبية

المحلاة بالحجارة الكريمة، كالأطباق والفناجين، والمباخر والمصابيح وأدوات الزينة وطائفة أخرى لا تحصى من البدائع، التى تجعل الناظر إليها يتساءل إذا كان علاء الدين بفانوسه السحري لم يأمر الجن بأن تنقل إلى هناك كنوزها الهائلة بمناسبة زواج أبى وأمى!!

وقد طاف بهذه الهدايا موكب خاص فى شوارع القاهرة، وفى حراسة الجند وحماية من الشباك الحديدية، لكى يراها الراغبون فى ذلك.

و بدأت الأفراح يوم الأربعاء ١٦ يناير سنة ١٨٧٣ فتم فى ذلك اليوم التوقيع على عقد الزواج بين أبى "توفيق باشا" وأمى "الأميرة أمينة" وأطلقت المدافع فى ختام هذه الحفلة، كما أطلقت أيضا فى ختام كل من الحفلات الثلاث الأخرى.

وفى ذلك اليوم واليوم التالى أقيمت بعض الألعاب منها سباق الخيول وسباق الجمال. وفى ١٨ يناير، أقيمت حفلة ساهرة فى قاعات الأستقبال بقصر الجزيرة، على ضفاف النيل، وقد أضيئت الحدائق بحيث ظن الناس أنهم أنتقلوا إلى عالم الخيال، وقد سعى الناس للحصول على بطاقات الدعوة، التى وزعت بسخاء، فضاق القصر على رحبه بجموع المدعوين بأثوابهم البديعة، وكانت الأميرة أمينة والدتى مقيمة منذ التوقيع على العقد عند أمها، فأنتقلت فى يوم ١٩ إلى قصر الوالدة أى القصر العالى حيث أقامت إلى يوم الأربعاء التالى فذهبت إلى قصر زوجها.

وفى أيام الأثنين والثلاثاء والأربعاء، أقيمت الأفراح فى قصر الوالدة، للنساء والرجال على السواء.

وجئ بوسائل التسلية من جميع أنحاء العالم، من أنجلترا وفرنسا وإيطاليا وتركيا، علاوة على مافى مصر، ووفد أرباب الفنون من كل صوب، وكانت أجورهم باهظة، فالمغنيات

والراقصات والممثلون والبهلوانيون والمهرجون والحواة، جميعهم جاءوا من أشهر أماكن اللهو، لتسلية ضيوف الخديوى بل لتسلية الشعب المصرى بأسره مدة شهر كامل.

وأطلقت الألعاب النارية كل ليلة من حديقة الأزبكية وغيرها، وأضيئت الأماكن العامة وأمتدت المصابيح فى حلقات بلغ طولها نحو كيلو مترين، بين قصر الوالدة والأزبكية ..

وفى خلال أربعة أيام من كل أسبوع، مدة شهر كامل، كان والدى يأمر بأن يوزع كل يوم على الفقراء – وعلى نفقته الخاصة – ٥٠٠ خروف و٣٠٠ حمل و٢٠٠ ديك رومى و٨٠٠ دجاجة و٥٠٠ رطل من البن و٨٠٠ أقة من الخبز.

ولم تنقطع مظاهر الفرح والمرح طوال الشهر، لا فى داخل القصور ولا فى خارجها ...

وفى خلال الأيام الأربعة الأولى من الأسبوع، بقيت العروس قائمة فى الجناح المخصص لها فى القصر، لا يراها غير بعض المقربين.

وفى الساعة العاشرة تقريبا من مساء يوم الأربعاء، إجتازت فى موكب خاص القاعات المتلألئة بالأنوار، مرتدية حلة بهية تسطع فيها اللآلئ، بين صفين من الخصيان حاملى الشمعدانات، وفى كل منها ثمانية شموع مضاءة.

ولما وصلت إلى قاعة العرش، جلست تحت قبة بين الوالدة وجدتها.

جعل الواقفون يتزاحمون لدخول القاعة قبل أن تغلق أبوابها. وذلك لسببين: الأول لرؤية العروس وتهنئتها، والثانى لأن قطع النقد تساقطت من كل ناحية كالمطر: قطع ذهبية فى قاعة العرش، وقطع فضية فى القاعة الكبرى، وكانت إحدى الجوارى تحمل الكيس المملوء بالنقود، فتغترف منه إحدى

السيدات ملء يدها وتلقى القطع على الحاضرين. وبعد ربع ساعة، عادت العروس من حيث أتت فى موكبها الفخم وفى يوم الخميس، غادرت أمى مع أهلها قصر الوالدة، فى موكب رائع أجتاز المدينة إلى قصر القبة مقر العريس. وقد أستغرق مرور الموكب ثلاث ساعات، وكان مؤلفاً من أورطة من المشاة، وكوكبة من الفرسان، وعدد كبير من المركبات الفخمة جلس فيها أهل العروس، وجاءت والدتى فى نهاية الموكب، فى مركبة تجرها ستة جياد.

ويتبع ذلك كله عدد لايحصى من المركبات الخاصة ....

وقد تحدثت هنا عن الأيام الثمانية التى أستغرقتها الأفراح بالنسبة إلى أبى وأمى. ولم تكن الأسابيع الثلاثة التالية غير تكرار لما وصفت من أبهة وأعياد رائعة ...

ولما كان زواج أبوى قد تم فى القصر العالى، فلابد من الإشارة هنا إلى أن حفلات الأستقبال التى كانت تقام فى هذا القصر، كانت تبلغ أقصى مايتصوره العقل من العظمة والجلال!

ولا يجب أن يغرب عن البال أن هذا القصر كان مقر والدة اسماعيل باشا وزوجة إبراهيم باشا.

ولهذا، فأن قصرها كان أوفر القصور بمظاهره الشرقية. وكانت "الوالدة" فى ذلك الوقت لا تزال محتفظة ببقايا جمالها الباهر، ولكنها كانت تفضل، بسبب سنها ومقامها، أن تستقبل فى قصرها وأن لا يستقبلها الآخرون فى قصورهم"!

حكاية العلم المصرى

أول علم لمصر فى العصر الحديث كان فى عهد محمد على باشا ١٨٠٥-١٨٤٧ وكان لونه أحمر يتوسطه هلال يحتوى نجمة واحدة كعلم الدولة العثمانية، الذى احتوى نجمة" سداسية " بينما نجمة علم مصر كانت" خماسية "فى إشارة لوضع مصر المتميز فى الإمبراطورية العثمانية!

ثم واكب طموحات الخديو إسماعيل باشا فى الإستقلال عن "الباب العالى "وتحولها إلى خديوية أن تغير العلم المصرى إلى ثلاثة أهلة وثلاثة نجوم على خلفية حمراء ..

وعقب عزل إسماعيل باشا عام ١٨٧٩ عاد العلم المصرى فى عهد محمد على باشا مرة أخرى!

ومع نشوب الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ وفرض الحماية البريطانية على مصر وإعلانها سلطنة وفصلها عن الدولة العثمانية، عاد العلم المصرى ذو الأهلة الثلاثة والنجوم الثلاثة على الخلفية الحمراء.

وخلال ثورة ١٩١٩ العظيمة ظهر العلم بالهلال الواحد والثلاثة نجوم على خلفية حمراء حتى عام ١٩٢٣ ورفع الحماية البريطانية عن مصر وإعتراف انجلترا بمصر بدولة مستقلة - لها سفارات فى سبع دول - وتتويج السلطان فؤاد الأول ملكا وإعلان دستور ١٩٢٣ أصبح العلم الأخضر الشهير ذو الهلال الأوحد والثلاثة نجوم رمزا لمصر: الوجه البحرى والوجه القبلى والسودان ..

وتجدر الإشارة إلى القانون رقم ٤٧ لسنة ١٩٢٣ الخاص بالعلم الوطنى جاء فيه: نحن فؤاد الأول ملك مصر والسودان: بما أنه أصبح من الضرورى خصوصا من وجهة العلاقات الدولية أن يقرر قانونا شكل العلم الأهلى الذى هو رمز إستقلال

البلاد، رسمنا بما هو آت: مادة - ١ العلم الأهلى أخضر اللون "من نوع هوكر رقم١" وبه هلال وثلاثة نجوم بيضاء مطابق للنموذج الملحق بهذا القانون .. مادة - ٢ يحدد وزير الحربية بقرار يصدر منه شكل علم الجيش، وأعلام وحدات الجيش وما يجب أداؤه للعلم من تعظيم .. مادة - ٣ العلم الأهلى هو علم البحرية الملكية وعلم البحرية التجارية .. حتى المادة السادسة التى تحدد عقوبة كل من أسقط أو أعدم أو أهان بأية طريقة علم مصر أو أى شعار آخر للدولة المصرية ثم صدر ملحق لهذا القانون يحدد البيانات الخاصة بعلم مصر وبدقة بالغة، على سبيل المثال: عرض العلم يعادل ثلثى طوله وقطر النجوم يعادل ثمن عرض العلم وهكذا ..

أيضا تجدر الإشارة إلى "علم الملك" وهو العلم الشخصى لجلالته ولا يرفع على مكان إلا إذا كان جلالة الملك موجودا فيه بالفعل ويظل مرفوعا ليلا ونهارا طوال إقامته، وعلم الملك كالعلم الوطنى يزدان بالتاج الملكى فى الركن الأعلى المجاور لسارية العلم .. وكان أيضا للملك علم جوى، وعلم آخر مختلف لطائرته الخاصة! ..وعلم" لواء بحرى "يرفع على أعلى سارية فى اللحظة التى يشرف فيها جلالته" المحروسة "ويظل مرفوعا طوال رحلته البحرية .. ولا يمكن أن نغفل أعلام الجيش والبحرية الملكية وسلاح الطيران الملكى وولى العهد وعلم الفريق وعلم اللواء وعلم أمير البحار (الفريق بحرى) وعلم أمير البحر (اللواء بحرى) وعلم قائد سلاح الطيران الملكي!

إستمر علم مصر الأخضر الجميل هذا حتى إعلان الوحدة مع سوريا عام ١٩٥٨ عندما تغير إلى الألوان الثلاثة: الأحمر والأبيض والأسود - علم هيئة التحرير!

البريد المصرى

من" كارلو ميراتى "إلى" البوستة الخديوية"!

أدرك الخلفاء والسلاطين فى العصور الإسلامية المتعاقبة أهمية البريد على" جريد النخيل "لنقل الأوامر إلى العمال فى مختلف الأمصار ونقل الأخبار سياسية أو حربية أو إجتماعية من الولاه إلى الحكام ..

كما أدرك محمد على باشا مؤسس مصر الحديثة أهمية البريد، فأنشأ إدارة بريد فى القاهرة للمراسلات" الأميرية "فقط تحت إشراف الشيخ" عمر أحمد"ومعه سعاة مشاة لنقل الرسائل، ثم إمتد نشاط هذه الإدارة ليشمل الإسكندرية والسويس، وبعد أن فتح الباشا السودان عام ١٨٢١ إمتد نشاطها إلى السودان مع إستخدام" الهجن "فى نقل البريد .. ثم انشئت بالقاهرة" إدارة لنقل رسائل الجمهور "برئاسة الشيخ" حسن البديلى "وكان يتفق على الأجر بالمساومة و"حسب المزاج"!

ثم رأت الحكومة أن تؤمم هذه الإدارة على أن يشمل نشاطها عموم مصر والسودان وحددت رسوما تتفاوت بين ١٠ بارات و ٣٠ بارة أى ما يساوى ٢,٥ إلى ٧,٥ مليمات عن الرسائل المرسلة إلى الوجه البحرى، ومن قرش واحد إلى ثلاثة قروش عن الرسائل المرسلة إلى صعيد مصر، ومن ثلاثة قروش إلى ستة قروش عن الرسائل المرسلة إلى السودان.

فى حوالى عام ١٨٤٠ أنشأ الإيطالى" كارلو ميراتى "فى الإسكندرية إدارة خاصة للبريد تتولى إرسال وإستلام المراسلات الخاصة الخارجية عن طريق البواخر عرفت باسم" إدارة البريد الأوروبى"، وسرعان ما لقى مشروعه إقبالا ملحوظا فقرر أن يؤسس إدارة خاصة لنقل الرسائل بين الإسكندرية والقاهرة عن طريق سعاة يركبون البغال يقطعون المسافة فى ٣٦ ساعة!

عقب وفاة ك.ميراتى تولى أبناء شقيقته" اخوان تشينى إدارة "مكاتب البريد الأوروبى" فى عام ١٨٤٧ شاركهم اليهودى المصرى "موتسى بك"..

وفى الفترة من عام ١٨٥٤ إلى عام ١٨٥٦ والتى واكبت إنشاء خط السكك الحديدية من الإسكندرية إلى كفر الزيات ثم إلى القاهرة توسعت الإدارة فى إنشاء مكاتب للبريد فى القاهرة ورشيد ودمنهور وكفر الزيات وطنطا وبنها وبركة السبع .. ساهم فيه إمتداد خطوط السكك الحديدية وإستخدامها مما أسهم بالتالى فى توفير الوقت والجهد، بناء على إتفاق بين إدارة "تشينى وموتسى "عام ١٨٦٠ تدفع بموجبه مبلغ ٧٨٠ جنيها للحكومة المصرية سنويا وتتعهد الإدارة بفرز المراسلات الأميرية ونقلها مجانا !

فى ٢٩ اكتوبر ١٨٦٤ تم توقيع عقد بيع بين موتسى بك وبنك "ديرفيو" اشترى بمقتضاه البنك مكاتب البريد الايطالية وعددها ١٩ مكتبا لحساب الحكومة المصرية نظير مبلغ ٤٦ ألف جنية مصرى!

فى ١٤ يناير عام ١٨٦٥ صدر الامر العالى باقرار الصفقة وعين موتسى بك مأمورا لمصلحة "البوستة الخديوية" العمومية وخصصت عدة بواخر بميناء الاسكندرية بإسم "بواخر البوستة الخديوية" والتى إتسع نشاطها داخل مصر وخارجها .. وتجدر الاشارة الى ان اول طوابع بريد مصرية طبعت فى جنوة بايطاليا من فئة ١٠ و٢٠ بارة ثم تم تمصير طبع الطوابع فى مطبعة "بناسون" بالاسكندرية عام ١٨٦٧ وكانت الطبعة الثالثة بالمطبعة الاميرية ببولاق عام ١٨٧٢ .. واستحدث نظام "البريد المستعجل" فى ٢٠ سبتمبر عام ١٩٢٢ وكان قاصرا فى البداية على: القاهرة والإسكندرية وبورسعيد والمنصورة وطنطا والزقازيق وبنها والجيزة وبنى سويف

والمنيا .. على أن يضاف على قيمة التوزيع العادى مبلغ ١٥ مليما عن رسالة البريد المستعجل!

فى أغسطس عام ١٩٢١ أنشىء البريد الجوى من القاهرة إلى بغداد وبالعكس عن طريق الطيران الملكى البريطانى فى البداية .. إلى أن أسس طلعت حرب باشا شركة مصر للطيران فى مايو ١٩٣٢ والتى تولت نقل البريد الجوى من وإلى فرنسا وألمانيا وسويسرا وبلجيكا وإيطاليا وسوريا وفلسطين وبغداد .. أما مراسلات البريد الجوى إلى بلاد البنجاب والهند فكانت ترسل إلى مطار البصرة ومنه ببواخر سريعة إلى "كراتشى"!.. وقد تحدد رسم قدره ٢٥ مليما عن كل ٢٠ جرام من وزن الرسالة تم تخفيضها فيما بعد إلى ١٥ مليما!!

حكاية "الأوبيره" الخديوية!
أجمل دار أوبرا فى العالم

"الأوبيره الخديوية".. هكذا كانت تكتب فى بطاقات الدعوة وفى اعلانات عروضها بصحف ذلك العصر الجميل .. كانت هذه الدار الشهيرة كالقصر المسحور، الذى لا تدب فيه الحياة إلا مع إنتشار الظلام، فتزهو وتتألق بالأضواء، وهى تستقبل علية القوم والسعداء ممن إبتسم لهم الحظ لقضاء أمسية لا تنسى بين مباهج الفن الراقى.

لم يضن إسماعيل باشا على دار الأوبرا بكل ما يحيطها بالروعة، ويضفى عليها جمال الفن وجلاله لتكون إحدى فقرات الإحتفاء بضيوف إفتتاح قناة السويس، فأسند الخديو الإشراف على أعمال البناء إلى المهندس الإيطالى «بيترو أفوسكانى" الذى شيد قصر رأس التين لمحمد على باشا، وكان أحد مستشاريه المقربين، كما كان صديقاً لمعظم حكام أوروبا وفنانى عصره، كذلك أشرف على تنفيذ ديكورات قصور العباسية، الحلمية، الجزيرة، وشبرا، ومسرح سعيد باشا بقصر القبارى، ومسرح زيزينيا بالإسكندرية .. وتصميم البناء الرئيسى كان للمهندس الإيطالى "فاسكيوتوى" والمبنى الخلفى من تصميم المهندس "جيوفانى سالومون" وإكتمل البناء فى أربعة شهور!..

وكانت الفرمانات الخديوية قد صدرت إلى أفوسكانى فى منتصف إبريل عام ١٨٦٩ ليتولى أعمال بناء الأوبرا كمسرح مؤقت يتم إنجازه خلال بضعة شهور وفى نفس الوقت لا ينقصها الفخامة اللائقة بعظمة الملوك .. وذخرت تلك الفترة بفيض من المراسلات التى تبادلها أفوسكانى من القاهرة إلى «بول درانيت» بك فى باريس الذى تولى تدبير كافة إحتياجات

الدار الملكية حتى فى أدق التفاصيل .. بينما كان إسماعيل باشا يتابع أعمال التشييد بنفسه حتى أنه زار الموقع أربع مرات خلال الأسبوعين الأولين!

وبالنسبه لأعمال الأثاث فقد إتفق درانيت بك مع محلات "كريجر" الشهيرة فى باريس، والمرايا الذهبية الضخمة تولى تنفيذها الفنان الإيطالى «جوزيبى بارفيس» وتصميم الستائر كانت من إبداع الإيطالى "هانيبال جاتي. "وأشار المهندس «أفوسكانى » فى مراسلاته إلى أن أساسات المبنى إستنفدت ٣٥٠٠ متر مكعب من مواد البناء .. وروعى أسفل خشبة المسرح تصميم ممرات للفنانين، وغرف لإعداد الأطعمة والمشروبات، كل أدواتها وارد باريس.

أفتتحت دار الأوبرا، فى أول نوفمبر سنة ١٨٦٩، بأوبرا "ريجوليتو" وكان بالمقصورة الملكية الخديو إسماعيل والإمبراطورة أوجينى وفرانسوا جوزيف ولى عهد بروسيا، وإحتشدت المقاصير وصالة الدار بكبار الشخصيات فى عالم السياسة والأدب والفن فى أوروبا .. ومن بين فواصل الستائر الفخمة المطرزة باللونين القرمزى والذهبى كنت تلمح أجمل العيون، وتيجان مرصعة بالجواهر، وصدور رائعة تزيد الدر واللآلىء تألقا!..

وكانت الدار تسع ل ٨٥٠ مشاهدا، وأعدت بها أكثر من إستراحة، وقاعة خاصة للتدخين، حيث حرم التدخين أثناء مشاهدة العرض، صيانة لقداسة الفن.

كانت سعة القاعة ٣٠٦ مقاعد، وستين مقصورة موزعة على ثلاثة طوابق، بكل مقصورة خمس مقاعد على الأقل، وقد خصصت المقصورات الثلاث الأولى بالطابق الثانى، على اليمين، لحريم السراى، وكانت تتصدر واجهة هذا الطابق: قاعة المآدب الرسمية الفاخرة، بجوارها قاعة الموسيقيين، ثم

القاعة الفخمة التى كانت شرفتها تطل على الميدان، وعرفت ب »قاعة إسماعيل » وهى على شكل مسرح صغير بمقصورتين تمتدان على الجانبين، مرتفعتين بمستوى يكفل حجب الحريم فيهما عن الرؤية، اثناء الحفلات ذات الطابع الخاص، سقفها يزدان برسومات زيتية، تتوسطها أربع لوحات لمغنيات أوبرا شهيرات :باتى، فريتشى، جريمالدى، بيكولومينى .. المقصورات الثلاث التى كانت مخصصة للحريم، كان يصعد إليها بدرج خاص ملحق بالحديقة، وقد غشيت بالنقوش المذهبة، وستائر حريرية غاية فى الفخامة، وقد وضع أمامها حاجز معدنى مشغول بأشكال نباتية جميلة، مطلى باللون الأبيض، متناثرة عليه باقات من الزهور الذهبية .. وغرفة مدير الدار فى الطابق الثانى من الجهة القبلية، كما خصصت مقصورة لرجال الإطفاء (ألغيت فيما بعد!) يصعد إليها بدرج خشبى .. وصحن القاعة بمقاعده الثلاثمائة وستة المكسوة بأفخم أنواع الحرير القرمزى، ربما فاق أفخم مسارح القرن التاسع عشر، أطلق عليه أفوسكانى « Le paradis » أى الفردوس أو الجنة!

وأسفل قاعة إسماعيل كان هناك بهو رائع تميز بالفخامة وبعشرة أعمدة وأبوابه الخمسة المصنوعة بالحديد المشغول والزخارف، ويؤدى هذا البهو إلى قاعة المشاهدة، وإلى يساره مقصف فاخر، بينما يمتد إلى يمينه الصالون الكبير.

ومبنى الملحق كان يتكون من ثلاثة طوابق، الأول خصص لتغيير الملابس، والطابق الثانى لتخزين المناظر، بأسلوب روعى فيه الترتيب والتصنيف، بشكل يسهل معه إستخراج المنظر المطلوب ثم إعادته إلى مكانه، وكان يغلق ببوابة ضخمة حديدية، كأنها لأحد حصون أو قلاع أوروبا فى القرون الوسطى، وقد قبع فى هذا المخزن ولمدة نصف قرن

تقريبا، نموذج لسفينة شراعية إستخدمت فى أوبرا "الإفريقية" للفنان مايربير توحى بمشهدها وما أحاط به من لوحات ومناظر: كأننا وسط ميناء يموج بالسفن ذات الشراع، بينما طويت لوحات الخلفية كاملة ورصت بعضها فوق بعض، وقد ظل مشهد هذه السفينة راسخا فى أذهان العاملين بالدار .. أما الطابق الثالث، فقد قسم إلى عدة غرف، لحفظ الملابس والأثاثات، فكان وحده متحفا يحوى ثروة فنية هائلة، بما ضمه من وثائق كالخطابات والعقود الموقعة بين فيردى والخديو، وإسكتشات رسمها ماربيت لملابس أوبرا عايدة، ودروع وسيوف وحلى بلغ من روعتها ودقة صنعها حدا يضاهى صحيح الجوهر، وملابس وأثاثات فخمة تناسب العصور التاريخية المختلفة، وكان يتولى صنعها فريق من أمهر الحرفيين فى ورشة خاصة بنفس الطابق، الذى ضم أيضا مرسما للمصورين، وورشة لحياكة ملابس الروايات الجديدة، وترميم الملابس القديمة.

قبيل إفتتاح قناة السويس بخمسة شهور، كتب "ماربيت" إلى شقيقه ادوارد: "تخيل أننى كتبت أوبرا .. أوبرا ضخمة سيقوم – فيردى – بوضع موسيقاها، خصص لها الخديو مليون فرنك!".. لقد قام مدير الآثار المصرية بكتابة القصة والسيناريو، وصمم إسكتشات الملابس والديكور ولكن لم يتم عرض أوبرا "عايدة" فى الإفتتاح الذى تم فى الأول من نوفمبر عام ١٨٦٩، وشهد ضيوف إسماعيل باشا أوبرا أخرى هى "ريجوليتو" من ألحان الموسيقار فيردى، وكان لافتا للنظر إختيار ماربيت لاسم "عايده" وهو اسم له رنين عربى "فى أحداث تدور على ضفاف النيل فى زمن سطوة ومجد الفراعنة!" إمتد موسم الإفتتاح إلى ١٤ مارس سنة ١٨٧٠، وشمل ٧٠ حفلة!.. وهو عدد من الحفلات لم يكن متاحا فى

موسم واحد وفى دار واحدة، إلا للنادر من المسارح العالميـــة، وقد شملت العروض إبداعات فنية خالدة، منها: "تروفـــاتورى" "حلاق أشبيليه" "فاوست" "هيلين الجميلة" التى كانـــت موضـــع إعجاب الخديو".. أكسير الحب" "سميراميس" "غادة الكاميليـــا" "عروس الأربعاء السمينة!"

وجه إسماعيل العظيم بتكليف عالم المصريات الفرنـــسي الشهير "أوجست فرانسوا مارييت" بكتابة أوبرا ذات موضـــوع مصري تخليداً لافتتاح قناة السويس، كان مارييت عملاقا مهيبا يشاهد دائماً بالطربوش الأحمر – كعادة معظم الأجانـــب فـــي مصر آنذاك – والنظارة السوداء، وكان مكلفاً مـــن الحكومـــة الفرنسية بالاشراف علي أعمال التنقيب عن الآثار في مـــصر وكشف غموض النصوص المصرية القديمة، كـــان مارييـــت شغوفاً بمصر وحضارتها وآثارهـــا وأســـهم فـــي اكتـــشاف "السرابيوم" بمنطقة سقارة وقد كافأه الخديو إســـماعيل بمنحـــه لقب "بك" كما أشرف علي تشييد المتحـــف المـــصري القـــديم "متحف بولاق" ومنحه لقب "باشا" كمـــا رأس بعثـــة الـــشرف المرافقة لضيوف مصر وعلي رأسهم "أوجيني" الي الأقـــصر وأسوان، كما كان كاتباً وشاعراً ورساماً! .. واســـتعان فـــي كتابة رواية عايده بكتابه "عروس النيل" وأبدع تصميم الملابس التاريخية وبعض المشاهد، وقد أهدى ابنه "الفريد" بعض وثائق هذا العمل إلى المكتبة الوطنية بباريس، وتعرض حاليا بمتحف دار الأوبرا الفرنسية، ولقد كانت اوبرا القاهرة من أجمل دور الأوبرا فى العالم، وسرعان ما فاقـــت شـــهرتها أعـــرق دور الأوبرا فى أوروبا: "لاسكالا" بميلانو، ودار أوبرا بروكـــسل، كذلك لم تشهد مواسمها من الفرق العالميـــة، ومـــن مـــشاهير الضيوف والزوار، مثلما شهدت تلـــك الـــدار التـــى شـــيدها إسماعيل!

فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٧١، عرضت أخيرا .. وبعد سلسلة من المفاوضات والعقبات "أوبرا عايدة" بحضور إسماعيل باشا وكبار ضيوفه من نخبة المجتمع واقطاب الجاليات الاجنبية فى القاهرة ومراسلو اشهر الصحف الاوروبية الذين وصفوا الدار بـ "اجمل دار اوبرا فى العالم"، وكانت سعادة جناب الخديو تفوق كل وصف، بالنجاح المذهل الذى حققته "عايدة" مما جعل "درانيت" أول مدير للدار يبرق عقب الفصل الثانى إلى "فيردى" بالبرقية التالية: "المايسترو فيردى – جنوه لقد لاقت أوبرا عايدة نجاحا يفوق الخيال، وقد قوبلت الخاتمة الموسيقية الأولى والثانية وأداء ثنائى السوبرانو والقطعة الموسيقية الكبرى والمشهد العام بحماس رائع، ولقد حيا الجمهور – المايسترو الغائب – بعاصفة من التصفيق والإعجاب .. كل تهنئتى"!

لعبت "انطونيتا بوزوني" رائعة الجمال دور عايده وتقاضت مبلغ ١٠٠ ألف فرنك، واسند دور "امنريس" للفنان "اليونور جروسي" الذي ارتدي تاجاً من الذهب الخالص المطعم بالاحجار الكريمة! .. ولعب دور "امونا سترو" الفنان "فرانسيسكو سلتر" ولعب دور الكاهن الأكبر "راداميس" الفنان "ماديني" الذي ارتدي درعا من الفضة الخالصة، وقاد الاوركسترا العظيم "مارياني" .. حضر "فيردي" العرض فيما بعد وما أن شاهده الحضور حتي صفقوا له بحرارة لمدة ربع الساعة متواصلة!

ويجدر بالذكر، أن درانيت كان صيدليا فى بلاط محمد على باشا، ومديرا للسكك الحديدية فى عهد سعيد.. ثم مدير للمسرح الكوميدى والمسرح الخاص بقصر النيل وكان قد بعث إلى فيردى برسالة من الخديو، نصها: "إن بإختيارك أيها المايسترو العظيم، ان تكون مبدعا موسيقيا لأوبرا تدور

وقائعها فى دولتى، أكون قد حققت أمنيتى فى أن أخلق إنتاجا وطنيا، ربما يصبح واحداً من أمجد الذكريات لعصرى!.. وتحققت نبوءة إسماعيل!..

وأول مدير مصرى لدار الأوبرا كان "منصور غانم" لمدة عام (١٩٣٧- ١٩٣٨)، وقد تولى هذا المنصب من خلال السلم الوظيفى وليس "السلم الموسيقى! "ثم خلفه أشهرهم الفنان" سليمان بك نجيب "سليل الباشوات الذى مزج الفن بالواقع فى بساطة وتلقائية، لمدة ١٦ عاما، حتى سنة ١٩٥٤، ثم الشاعر "عبدالرحمن صدقى" الذى قال: "إذ كانت القاهرة هى عاصمة مصر، فدار الأوبرا هى عاصمة القاهرة!" وفى ١٩٥٦، تولى إدارتها المهندس محمود النحاس، ثم الفنان التشكيلى "صلاح طاهر" وأعقبه الفنان «صالح عبدون » الذى كان أول مدير أوركسترا سيمفونى حكومى. آخر عرض بالدار كان «كارمينا بودانا » لكارل اورن، وقاد الأوركسترا الفنان «بيلارد نيللى » وذلك قبل أربعة أيام من إتمامها العام الثانى بعد المائة .. وقبل شهرين من إنقضاء مائة عام على مولد "عايده" .. وكانت النهاية الحزينة المريبة!!

و أذكر فى اليوم التالى، أننى رأيت «مواطنا مصريا» بسيطا واقفا على رصيف "الكونتننتال" يبكى بكل جوارحه وهو يرنو إلى الأطلال المحترقة. ويقينى أنه مثل الملايين من عامة الناس، لم يدخل الأوبرا الملكية فى حياته، لكنه عبر عن حزنه على أحد شواهد العظمة لعصر مضى .. كما عبر أيضا عن مدى ألفة الأشياء والأماكن فى حياة المصريين!

يوم كان الجنية المصرى" أغلى عملة فى العالم"!

فى عهد محمد على باشا وبالتحديد فى عام ١٨٣٦ شيدت "دار الضربخانة" بالقلعة لسك العملة من الذهب والفضة تحمل عبارة "ضرب فى مصر" والتاريخ الهجرى، إلى جانب تداول العملات الأجنبية المعدنية مثل ريال ماريا تيريزا - وكان لـه شهرة فى المشرق العربى - والفرنك والعملات العثمانية!

وشهد عهد محمد سعيد باشا أول عملة تحمل اسم حاكم مصر فى عام ١٨٦٢، كما شهد عصر الخديو إسماعيل صدور عملات تذكارية ذهبية وفضية بمناسبة إفتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩

فى عام ١٨٨٥ صدر "ديكرتو" أو قانون توحيد العملة فى مصر، وأن يكون الجنية والنصف جنيه من الذهب، أما العملات من فئة الريال والعشرة والخمسة قروش فتكون من الفضة، والعملات من القرش والمليم فمن البرونز والنحاس!

فى ٢٥ يونيو عام ١٨٩٨ أنشىء البنك الأهلى المصرى ومنحته الحكومة إمتياز إصدار البنكنوت الورقى، فأصدر الجنية المصرى الورقى فى الخامس من يناير عام ١٨٩٩ على أن يحتفظ البنك بنسبة ٥٠% من "الغطاء الذهبى" لقيمة النقود التى يصدرها البنك وأن يحفظ النصف الآخر فى فرع البنك فى لندن .. كان ذلك قبل صعود الولايات المتحدة الأمريكية كقوة عالمية أولى عقب الحرب العالمية الثانية ولعبة أباطرة المال اليهود بإعتماد الإحتياطى من مليارات الدولارات بديلا عن الغطاء الذهبى!

فى بداية عام ١٩١٤ بلغ ما طبع من النقد المصرى ٨,٢٥ مليون جنيه مصرى، وفى الثانى من أغسطس ١٩١٤ صدر مرسوم بمنح الجنية المصرى "قوة ابراء كاملة" ويحرر

من قابليته للصرف بالذهب!

فى ١٥ يونيو عام ١٩١٨ صدرت الورقة النقدية من فئة العشرة قروش، وفى ١٨ يوليو صدرت الورقة النقدية من فئة الخمسة قروش .. وفى مايو عام ١٩٢٦ صدر أول جنية ورقى مصرى يحمل العلامة المائية .. وتوالت القوانين التى تنظم إصدار العملات المتداولة منها القانون رقم ١٥٠ لسنة ١٩٥٥ الخاص بإصدار أوراق نقدية متداولة للعملات فئات من ٢٥ قرش إلى ١٠٠ جنية وكذلك العملات التذكارية لتخليد المناسبات التاريخية والوطنية.

تجدر الإشارة إلى أن الجنية المصرى خلال النصف الأول من القرن الماضى كان أغلى عملة فى العالم .. ففى سنوات الحرب العالمية الأولى وما بعدها كان سعر الجنية المصرى ١٢ دولارا و٨ جنيهات إسترلينية، مما استوجب جلسة عاجلة لمجلس النظار (الوزراء) للنظر فى إنخفاض قيمة الجنية المصرى أمام العملات الأجنبية!!..

وعلى الرغم من التدهور الإقتصادى العالمى الذى إستمر إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، وحتى ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كان الجنيه المصرى يعادل ثمانية دولارات وخمسة جنيهات إسترلينية! .. وكانت بريطانيا العظمى مدينة لمصر بخمسة مليون جنيه مصرى!!

وخلال السنوات القليلة الماضية، استشرى الفساد وتدهور التعليم وإنهارت الأخلاق وكلمة الشرف والقيم المصرية الأصيلة ومعها انهارت قيمة الجنيه المصرى الذى كان فى عصر الملكية "أغلى عملة فى العالم"!!

الجمعية الجغرافية المصرية
وحكاية إكتشاف منابع النيل!

هى إحدى الصفحات الذهبية فى تاريخ مصر وعصر الخديو إسماعيل باشا .. وهى أقدم مؤسسة علمية فى مصر والشرق بعد "المجمع العلمى المصرى" الذى أنشئ عام ١٧٩٨ إبان الحملة الفرنسية على مصر.

ومن خلال إحدى رحلات البحث فى الدوريات "العتيقة" عثرت على خبر تأسيس "الشركة الجغرافية المصرية"!.. وذلك فى صحيفة "الوقائع المصرية" فى عددها رقم ٦١٠ الصادر فى يوم الأحد ٩ جمادى الأولى ١٢٩٢ الموافق ١٣ يونيو ١٨٧٥ على النحو التالى: "فى الساعة التاسعة الافرنكية صباحا من يوم الاربعاء الثانى من يونيو أجريت رسوم إفتتاح – شركة – جغرافية خديوية تحت رياسة الدكتور شواينفورت الرحالة الشهير بتشريف حضرة دولتلو حسين كامل باشا (السلطان فيما بعد) وحضور كل من إسماعيل صديق باشا وحضرات بارو بك والجنرال استون وافلاطون باشا وقناصل أوستريا والمانيا و(أمريقا) المتحدة وبلجيكا الجنرالية وماريبت بك وبروجش بك (عالما الآثار المصرية الشهيران) والكولونيل لونج ..."وتلا حضرة بارو بك منطوق الارادة السنية أعقبه" كاتب سر "الشركة بتلاوة نظامها الاساسى!.. ثم قرأ بحثا مطولا عن أهمية استكشاف كل شبر فى الأرض وحاجة الانسانية الى علم الجغرافيا وأهمية افريقيا بالنسبة لمصر والارادة "السنية" المشار إليها أو "الأمر العالى" الخاص بتأسيس "شركة جغرافية خديوية" صدر فى ١٩ مارس عام ١٨٧٥ .. وقد اكون أول من توصل الى "المسمى الأصلى" للجمعية الجغرافية المصرية!

ومما جاء فى هذه الإرادة السنية: ".. ونظرا لما يعود على مصر من نفع جزيل وفوائد جليلة من العلوم الجغرافية والمصالح الصناعية والتجارية بإرتياد الأمصار وأقطار افريقيا وما يجاورها من بلدان، أمرنا بما هو آت: أن تؤسس بالقاهرة شركة صرحنا بأن تحمل اسم الشركة الجغرافية الخديوية، وأن يصدق على قانون إنشائها وأن يصرف مبلغ أربعمائة جنية مصرى إعانة سنوية وأن يعين (السايح) الرحالة الشهير شواينفورت رئيسا للشركة .."!

وتم تخصيص المبنى - التاريخى - الحالى فى ١٠٩ شارع قصر العينى بالقرب من ميدان الاسماعيلية (التحرير) ورصد لها "أحمد خيرى باشا" ٦٠ فدانا من أوقافه للإنفاق عليها من ريعها، وهو صاحب القصر الشهير الذى أصبح مقرا للجامعة الأمريكية بالقاهرة!

ومن أشهر رؤساء الجمعية :

- د. أوجست شواينفورت ١٨٧٥-١٨٧٩
- جنرال ستون باشا ١٨٧٩-١٨٨٢
- إسماعيل ايوب باشا ١٨٨٢-١٨٨٣
- الأمير (الخديو) عباس حلمى ١٨٨٣-١٨٨٩
- الأمير (الملك) فؤاد فى ٣٠ أكتوبر ١٩١٥
- إسماعيل صدقى باشا (رئيس الوزراء الأشهر) فى ١٥ ابريل ١٩١٨

مقتنيات المكتبة :

تحتوى مكتبة الجمعية الجغرافية على أكثر من ٣٠ ألف مجلد بالإضافة إلى ما تضمه من خرائط نادرة، وقد أهداها إسماعيل باشا ١٥٠٠ مجلد، وتضم ذخائر علمية للأمير عمر طوسون والأمير يوسف كمال وأحمد حسنين باشا (رئيس

الديوان الملكى فى عهد الملك فاروق والرحالة والمستكشف العظيم) ومن أهم مقتنياتها أيضا: مكتبة العالم محمود باشا الفلكى، ومكتبة الأمير محمد على توفيق (ولي العهد) ومكتبة الأمير حيدر فاضل .. كما أهداها عدد من أمراء البيت المالك مقتنياتهم من كتب نادرة قاموا بشرائها خلال جولاتهم فى أوروبا ..

كما تضم نسخة من الطبعة الأولى لموسوعة "وصف مصر – عام ١٨٠٨ ومجموعة نادرة من أقدم الخرائط منها: خريطة الشريف الادريسى، وخرائط علماء الحملة الفرنسية والأطلس الجغرافى لمصر للأمير يوسف كامل .. وخرائط الحملة وأطلس الأمير يوجد نسخة منه محفوظة فى مكان بمكتبة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية IFAO حيث كنت أعمل فى زمن الشباب!.. وغير مسموح للاطلاع عليها سوى للاساتذة المتخصصين والعلماء فقط!

وكانت الجمعية تصدر مجلة سنوية ضخمة بالفرنسية حتى نهاية عصر الملكية، احتوت على أبحاث وتقارير علمية غاية فى الأهمية لعلماء مصريين وأجانب، وكانت لها إصدارات قيمة بالفرنسية والعربية – خاصة فى عهد الملك فؤاد – أبرزها موسوعة ضخمة عن "النيل" وروافده وبحيراته ومنابعه .. وعن فتح محمد على باشا للسودان عام ١٨٢٨ .. وعن علاقات مصر التاريخية بافريقيا .. وتوثيق جهود اكتشاف بلاد السودان والمناطق المجهولة فى افريقيا، وحركة الاستكشافات العظيمة لمنابع نهر النيل فى عهد إسماعيل العظيم!.. وتوج النشاط العلمي للجمعية بطبع المعجم الشهير للعالم محمد رمزى بك "القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين الى سنة ١٩٤٥" كذلك تضم المكتبة وثائق وتقارير أهم مؤتمر دولى عقد بمقر الجمعية عام ١٩٣٢

كانت أبرز نتائجه: أدق الخرائط الجغرافية والادارية السياسية لمصر وأواسط افريقيا والمشرق العربى!

الموسم الثقافى

وكما كان لدار الاوبرا الخديويه – الملكية موسما فنيا، كان للجمعية الجغرافية الخديوية موسما ثقافيا تألق بمحاضرات فى الأدب والفلسفة والموسيقى لأعلام المجتمع: العميد طه حسين، عباس العقاد، منصور فهمى، مصطفى عبدالرازق، محمد حسين هيكل، عبدالرحمن بدوى، على ابراهيم باشا، مصطفى مشرفه، مى زيادة وغيرهم .. وكان يصحب هذه المحاضرات عزف على البيانو للموسيقار مدحت عاصم وكانت بداية شهرته، بحضور اساتذة الجامعة ووزراء وكثير من المثقفين، كما كان الموسم الثقافى يتضمن أيضا محاضرات عن أشهر الموسيقيين العالميين: فاجنر، بيتهوفن، موتسارت، كورساكوف ...

عصر اكتشاف منابع النيل

خلال الاحتفالات الاسطورية بافتتاح قناة السويس نوفمبر ١٨٦٩ عرض الخديو إسماعيل باشا على الرحالة البريطانى الشهير "صامويل بيكر" والذى كان مقربا من الأسرة المالكة الريطانية، قراره بايفاد حملة عسكرية بقيادته لضم أعالى النيل لمصر .. أبحرت الحملة بعد إتمام تجهيزاته العسكرية والعلمية فى ٨ فبراير عام ١٨٧٠ حتى وصلت إلى "جوندوكرو" التى رفع عليها العلم المصرى وكذلك المديريات التى تم فتحها فيما بعد، وطوال تقدم الحملة عانت كثيرا من الغارات الليلة للقبائل إلى أن وصلت إلى "فاتيكو" والتى وصفها آلان مورهيد بأنها "الرمز الرائع للعهد الفيكتورى فى

قلب افريقيا"!.. عاد بيكر الى لندن، وبحث الخديو عن أوروبى آخر يتولى حملته إلى مديرية خط الاستواء والمناطق المحيطة بمنابع النيل، فوقع إختياره على الكولونيل "شارلز جوردون".. وبالتجاوز عن تفاصيل كثيرة، واصلت حملة جوردون زحفها حتى تحقق له فتح "لوجندا" أوغندا كما تعرف اليوم، حتى اقترب من بحيرة "فيكتوريا" ومنبع النيل ثم اتجه جنوبا ليكتشف الجزء غير المعروف من النهر والمؤدى الى بحيرة "البرت".. وشارك فى هذه الحملة الايطاليان "رومولو جيسى" و"كارلو بيادجيا"..

ومن فوق الباخرة "الخديو" كانت خريطة نهر النيل ترسم بدقة لأول مرة لمسافة ٦٠ ميلاً من منبعه .. وتوالت الحملات الاستكشافية التى أرسلها إسماعيل باشا، منها حملة العالم شواينفورت والذى وصف بأنه "أحد مستكشفى أعالى النيل" وهو صاحب كتاب "قلب افريقيا" الصادر عام ١٨٧٣ وقد تركزت جهوده فى اكتشاف طرق المواصلات القديمة ومناجم المعادن والمحاجر ..

فى عام ١٨٧٤ وبتكليف من إسماعيل باشا اكتشف الميرلاى الامريكى "شالى لونج" الضابط النشط بالجيش المصرى "بحيرة ابراهيم" ومعظم المجرى المسمى بنيل فيكتوريا وتحقق أنه يصب فى بحيرة البرت .. ثم حملة الكابتن "هـ. مكيلوب" عام ١٨٧٥ وعقب فتح دارفور أرسل الخديو ثلاث بعثات لاكتشاف بلاد دارفور وكردفان برئاسة المهندس الامريكى "ميتشل" ورسمت خرائط دقيقة لهذه البلاد ولوجندا وتاجورا .. وخلال حملات الحبشة رسمت خريطة لبحيرة "أوسا" نفذها "محمد أفندى عزت" كما رسم كل من محمد مختار باشا وعبدالله فوزى باشا خريطة بلاد "هرر" بالحبشة" .. وفى عام ١٨٧٧ توغل الميرلاى "ماسون بك" فى

أعالى النيل واستكمل ما بدأه ص. بيكر وبدأت أوروبا تنتبه لحملات وجهود الخديو إسماعيل لاكتشاف منابع النيل التى اعتبرها "حدود مصر الجنوبية"!.. وارتياد اعالى النيل ومحاولات اكتشاف منابعه حافل بالتفاصيل، وصراعات الدول الكبرى والجمعيات الجغرافية الأوروبية حول منطقة الكنوز البكر الجديد التى نبه اليها إسماعيل العظيم!.. عالم لمع فى سمائه وعلى أرض افريقيا أسماء مستكشفون عظام: ليفنجستون وشارلز بيرتون وسبليك وستانلى ..

المتحف الفريد!

يشغل متحف الجمعية طابقا كاملاً من احد قصور الخديو اسماعيل، ويضم هذا المتحف الفريد أربعة قاعات كبرى على النحو التالى :

١- المتحف الانثروبولوجى للعادات والتقاليد المصرية والحرف والصناعات اليدوية المتوارثة من مئات السنين والتى اختفت فى عصرنا هذا، بالإضافة الى "المحمل المصرى" وآخر كسوة مصرية للكعبة المشرفة، نموذج لكوشة عروس وفرح شعبى، ومشاهد تجسد "سبوع المولود" و"الزار" و"الهودج" ونماذج لبيوت تزدان بالمشربيات والتى كانت تلائم اجواء بلادنا فى الشرق وحياتنا وتقاليدنا، وملابس من عصور مختلفة وتماثيل شعبية "بائع العرقسوس" على سبيل المثال ..

٢- قاعة قناة السويس: يميزها اللوحات التى خلدت الافتتاح الأسطورى لقناة السويس نوفمبر عام ١٨٦٩ كما تضم "رايوهاما" لمجسم مصور فريد من نوعه يمثل سفينة تتحرك خلال رحلتها فى قناة السويس أهداه الملك فؤاد للجمعية عندما كان رئيسا لها .. وتمثال لـــ "فرديناد

ديلسبس" صاحب فكرة المشروع، ومجسم رائع ليوم الافتتاح حيث ديلسبس يشرح المشروع وتأثيره العالمى للامبراطورة أوجينى وضيوف مصر من أمراء أوروبا!.. كما تضم القاعة لوحات نادرة من الفن الاستشراقى.

٣- قاعة النيل: وتضم مجسمات بيانية لنهر النيل وروافده وبحيراته ومنابعه، ولوحة ضخمة للخديو إسماعيل، وبورتريهات مرسومة لمهندس القناطر الخيرية: لينان دى بلفون ومحمد مظهر باشا وموجيل بك .. وأشهر مهندسى الرى مثل: السير ويلكوكس واسماعيل باشا محمد وحسين سرى باشا .. وتمثال للعالم الكبير محمود باشا الفلكى .. وصور لرؤساء الجمعية منذ تأسيسها.

٤- قاعة افريقيا: تزدان بأهم خريطة تحدد ما وصلت إليه الكشوف الجغرافية من خلال الحملات التى وجه إليها اسماعيل باشا وهو الذى أمر بتنفيذ هذه الخريطة النادرة، كما تضم عدة خرائط لفتح السودان فى عهد محمد على باشا، و"السودان المصرى" كما كان يطلق عليه فى الدوائر الاوروبية فى ذلك العصر!.. وخرائط للمملكة المصرية فى عهد اسماعيل وما ضم اليها من بلاد الحبشة والصومال حتى اواسط افريقيا!

كما تضم القاعة: نماذج محنطة لحيوانات نهر النيل مثل التماسيح وفرس النهر .. وبعض من حيوانات الغابة، ونماذج من مصنوعات جلدية يدوية، ومجموعات من أسلحة القبائل الافريقية: رماح ونبال وسيوف وخناجر متنوعة ..

وتستوقفنى – حقيقة مريرة – هى ان الاجيال المعاصرة لا تعرف شيئاً عن هذه "المفخرة العلمية" ولا عن معالم أخرى من بقايا العز القديم!!

حكاية ترام القاهرة

كانت مصر من أوائل الدول التى استفادت من الثورة الصناعية والتطورات الهائلة فى مجالات النقل والمواصلات، وقبل تسيير خطوط الترام فى القاهرة، كانت وسائل الانتقال هى الحمير وعربات الحنطور وسوارس.

وصاحب فكرة الترام الكهربائى هو "جون ف. ترام J.F. Tram" الذى مد أول خط حديدى داخل مدينة نيويورك عام ١٨٥٨ أعقبه بثلاث سنوات مد أول خط حديدى بمدينة لندن، وفى البداية استخدم فى سير العربات الدواب، خاصة الخيول ثم تطور الأمر باستخدام القاطرة البخارية بدلا من الخيول، وقد استخدمت الخيل فى نطاق محدود، على خط ترام الرمل بالاسكندرية فى الفترة من ٨ يناير إلى ٢٢ أغسطس عام ١٨٦٣.

فى عام ١٨٩١، تقدمت شركة الترامواى البلجيكية إلى نظارة الأشغال بطلب الحصول على امتياز تسيير خطوط ترامواى بالقاهرة، وكان الطلب مدعما برسومات الخطوط، التى وضعها مهندس الشركة "جون فيل" على أن تمتد إلى ضواحى العاصمة.

فى نوفمبر ١٨٩٤، صدق مجلس النظار على منح الامتياز المطلوب للشركة، على أن ينتهى بعد ٥٠ عاما، ومنحها الحق فى مد ثمانية خطوط يتفرع معظمها من أمام سراى العتبة الخضراء، كان أهمها الخط الممتد إلى الخليج المصرى فمصر القديمة إلى جزيرة الروضة.

فى أغسطس عام ١٨٩٦، احتفل بتسيير أول مركبة كهربائية فى شوارع القاهرة حيث استقل ناظر الأشغال العمومية وكبار موظفى النظارة وبعض الأمراء والأعيان،

عربات الترام من بولاق إلى ميدان العتبة الخضراء، وكان في انتظارهم محافظ العاصمة ومدير الشركة البلجيكية وقناصل الدول وجمع من المدعوين، ثم سارت بهم المركبات بين حشد من الجماهير، تصلصل بأجراسها المميزة الشهيرة إلى ميدان محمد على (القلعة) وعن هذا الاحتفال، كتب مندوب جريدة الأهرام :

"احتفل عصر اليوم بافتتاح خط الترامواى من ميدان العتبة الخضراء إلى شارع محمد على من جهة وشارع بولاق من الجهة الأخرى، وكان فى العربة الأولى سعادة فخرى باشا ناظر الأشغال وبعض كبار الموظفين، وفى سائر العربات جميع الكبراء والأعيان المدعوين، وكانت المحطة مزدانة بزينة شائقة، فسارت العربات تجري الكهرباء ذهابا وإيابا، ونجحت تجربتها نجاحا تاما، وسيوالى افتتاح الخطوط فى الأيام التالية تباعا، جعل الله هذا المشروع جزيل الفوائد خلوا من المضرات"!

بعد أن افتتح فخرى باشا هذا المشروع الحضارى، سمح للركاب باستخدام الترامواى الكهربائى من الساعة السابعة من مساء نفس اليوم، على خطين، الأول من بولاق إلى كوبرى قصر النيل والثانى من العتبة إلى باب الخلق.

فى أول إبريل عام ١٩٠٠، أصدرت الشركة لائحتها التنظيمية بموافقة الحكومة، ونشرت بجريدة "الوقائع المصرية" – عدد ٢١ إبريل لسنة ١٩٠٠ – وكان أهم بنودها: "أن كل محدث غوغاء أو سكران أو مصاب بعاهة تشمئز منها النفس: يمنع من ركوب الترامواى، أو تعليق شيء عليها، أو السير أمام العربات السائرة أو مرافقتها أو السير خلفها أو التعلق بها"!

وبتعاقب السنين، امتدت شبكة من خطوط الترام تربط أهم أحياء وميادين القاهرة: باب الحديد والعتبة وشبرا وروض

الفرج وبولاق والسبتية وعابدين والسيدة زينب والسكاكينى والعباسية ومصر القديمة والإمام الشافعى، وحتى عام ١٩٢٢، كانت الشركة البلجيكية قد أتمت كثيرا من خطوطها، ومما لاشك فيه، أن هذه الشركة قد أفادت القاهرة كثيرا، وكان أثرها فى تزايد العمران بالغا، فقد ربطت المدينة وأطرافها والمناطق العمرانية الجديدة بشبكات منتظمة من خطوط الترام، وبأجور بستة مليمات للدرجة الأولى، وأربعة مليمات للدرجة الثانية، وكان النظام والنظافة والتفتيش اليومى والحرص على راحة الركاب: أبرز الخدمات التى تقدمها الشركة.

فى السنوات أولى، كان يوضع جهاز راديو لتسلية الركاب، وفى بعض الأحيان بالورود والرياحين ولافتات للدعاية لإفتتاح محل جديد أو مدرسة أو مطعم أو ملهى تطوف بالشوارع التى تمتد بها خطوط الترام!

وكان حديث الترام مادة ثابتة فى المجلات التى كانت تصدر بالقاهرة فى أوائل هذا القرن، والتى تولت متابعة أخبار "الدهس اليومى" لبعض المواطنين، من عربات الترام التى تمضى فى طريقها لا تلوى على شىء وكأنها "تسابق الريح"!!.. ولعل البعض ما زال يذكر حكاية "شد السنجة" التى كانت ظاهرة يومية دأب بعض الصبية على القيام بها لمشاغبة سائقى الترام وإجبارهم على التوقف!

وتجدر الإشارة إلى أن كوبرى الجيزة القديم "عباس" وكذلك كوبرى الملك الصالح عندما افتتحا فى ٦ فبراير سنة ١٩٠٨، تقرر مد خط مزدوج فى مارس من نفس السنة، يربط الجيزة بمصر القديمة، وخط آخر يربط الجيزة بالعتبة الخضراء، كذلك امتدت خطوط الترام فوق كوبرى بولاق (أبو العلا) وكوبرى الزمالك عقب افتتاحهما فى يوليو سنة ١٩١٢، وعن طريق هذه الكبارى، تكونت شبكة خطوط أخرى تربط

قلب القاهرة بأحياء الزمالك والجزيرة وإمبابة والجيزة والأهرام، على الضفة الغربية للنيل .. ومع بداية الثمانينات من القرن الماضي، كانت نهاية "العصر الذهبي" للترام!!

وتجدر الاشارة الي ما سجله الكاتب والأديب والمناضل الراحل فتحي رضوان في مذكراته "الخليج العاشق" عندما إنتقلت أسرته من سكني شارع سلامه الي منزل بشارع الخليج المصري فكتب: "كان أهم عناصر شارع الخليج هو – الترام – فقد كان الترام في ذلك العهد سيد الشوارع التي يمر فيها .. وقد زاد من ضخامة الترام في حياة الصبي أن بيته كان علي مرمي حجر من ميدان السيدة زينب، حيث نهاية خطوط عدة من خطوط الترام، فكانت المحطة النهائية عالما حافلا بالحركة والحياة، تلتقي فيه طوائف من البشر، من أهل المدينة ومن أهل الريف من الأغنياء والفقراء ومتوسطي الحال، في أزياء لا حصر لها وكان الي جانب ركاب الترام سائقو الترام ومحصلوه – الكمسارية – ثم المفتشون من المصريين ثم كبار المفتشين من الأجانب ثم الشيالون وبائعو الخردوات والحلوي والصحف ولعب الأطفال وفي كلمة واحدة، كان سلم الترام سوقا تتحرك معه يتوالي فيها عرض البضائع من أقمشة وكتب ومصاحف ونظارات وورق اليانصيب ..

وقد كان للسيدات قسم خاص في كل عربة ترام مكتوب علي بابه "حريم" علي لوحة من الصاج، وكانت الكتابة بالميناء البيضاء علي أرضية زرقاء .. سيدات وآنسات أسدلن علي وجوههن براقع بيضاء – يشمك – من الموسلين الرقيق، فزادتهن هذه الغلالة جمالا وإغراء، إذ أخفت تقاطيع وجوههن لكنها تركت العيون التي هي أجمل ما في المرأة المصرية، لتؤدي دورها في إثارة شجون وأوهام المحرومين!

ثم تطرق الي الحديث عن دور الترام في المظاهرات

ضد الاحتلال البريطاني "فإذا اشتد بهم الغضب وبنفوسهم اليأس انقلبوا علي صديقهم الترام فأحرقوه وقلبوه علي الأرض .. فإنتظام الترام معناه استقرار الحال، وإنقطاع سيره معناه أن الأمور لا تجري مجراها العادي .. تعبيرا عن مظاهر الغضب والسخط، ومظهر المدينة والعربات المقلوبة المحروقة يناسب تماماً بلداً لا ترضي عن حالها، ولا عن القائمين بالأمر فيها"!

حكاية أعظم إكتشاف أثرى فى العالم!

لم يقدر لملك من الملوك أن يردد العالم إسمه، وأن ينصبت إجلالاً لذكره، مثلما قدر للفرعون الذهبي "توت عنخ آمون" أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة – أشهر الأسر الحاكمة، في تاريخ الدولة الحديثة، في عصر الفراعنة ..

فمنذ أن كشف عن مقبرته الملكية في الرابع من نوفمبر عام ١٩٢٢، لا زالت كنوزه بعد ٩٣ عاما مثار الحديث والإعجاب، ومجالا للبحوث والدراسات، وتجذب إليها الزائرين من كل أنحاء العالم لتبهرهم بإبداعات الفنان المصري القديم!

من هو توت عنخ آمون ؟

بالرغم من كثرة الآثار التي اكتشفت بالمقبرة الملكية، إلا أنها تخلو من نص يروي قصة حياة "نب خبرو رع" أو توت عنخ آمون وأحداث عصره .. ويشير عالم المصريات الكبير "د. رمضان عبده" الي أن اسمه في الأصل "توت عنخ آتون" وتبوأ عرش مصر بزواجه من الابنه الثالثة لاخناتون ونفرتيتي "عنخ اس آن با آتون" ... وعاشا مع نفرتيتي في قصرها بشمال تل العمارنة، إثر خلاف نشأ مع زوجها إخناتون في أواخر حياته...

بعد وفاة إخناتون آل الحكم الي توت عنخ آتن سنة ١٣٥٢ ق.م وهو الصهر الثاني لإخناتون، فاعتلي العرش وعمره يتراوح بين ٩ سنوات واثنتي عشرة سنة، لقد نشأ توت عنخ آتن في بلاد إخناتون، ولم يعرف أبواه علي وجه التحديد، فبينما اعتقد "هوارد كارتر" انه كان إبنا لإخناتون، لوجود شبة كبير بينهما في الخلقة، إلا انه يرجح أنه كان إبنا للملك

أمنحتب الثالث من زوجته الملكة "ست آمون" التي كانت من أصل ملكي، ومن الثابت أن الملك أمنحتب الثالث قد اتخذها زوجة ثانية له مع الملكة "تيي" والدة إخناتون، وبناء علي هذا يكون توت عنخ آتن أخا غير شقيق للملك إخناتون، ولهذا فلا غرابة في وجود شبه كبير بينهما في الخلقة.

وإذا كنا متأكدين بصفة قاطعة من نسب "توت عنخ آتن" إلا أننا نعلم يقينا أنه تزوج "عنخ سن با آتن" الابنة الثالثة لإخناتون من زوجته الجملية "نفرتيتي" وبزواجه من هذه الأميرة التي يجري في عروقها الدم الملكي اصبح "توت عنخ آتن" وريثا شرعيا للعرش، إذ قضت قوانين وراثة العرش في مصر قديما أن تكون والدة الملك الجديد من أصل ملكي، فإن لم تكن كذلك تحتم عليه أن يتزوج شقيقة له من أبيه!

العودة لعبادة آمون

أقام "توت عنخ آتن" ثلاث سنوات في تل العمارنة مخلصاً لعبادة "آتن"، غير انه لاقي خلال هذه المدة مصاعب كثيرة، ومشاكل عديدة، تزداد تعقيدا يوما بعد آخر ... فالإمبراطورية في الخارج تتداعي بسبب عدم اهتمام السلطة المركزية في مصر بها ... والشعب في مصر نفسها ساخط بسبب اضطهاد عبادة "آمون" وغيره من آلهة المقاطعات ... والكهنة ثائرون لتضاؤل نفوذهم بسبب تغيير الديانة، ويتحينون الفرصة للإيقاع بأسرة إخناتون ... والجيش حانق بسبب عدم دعوته منذ وقت طويل للقيام بحملات تأديبية أو فتوحات جديدة ترد له اعتباره وتتوجه بالفخار ...

إزاء هذه الظروف، لم يكن هناك من حل سوي العـودة الي طيبة والرجوع الي عبادة "آمون" حتي تعود الحيـاة الـي

مجراها الطبيعي العادي، وتستتب أمور الإمبراطورية في الداخل، وتعود لها هيبتها في الخارج، وتصل إليها خيرات البلاد الأخري بلا انقطاع وبذلك يحل الوئام محل الخصام، والرضي محل التذمر، وفعلا عاد "توت عنخ آتن" الي "طيبة" وربما كان ذلك بناء علي نصيحة رائدة ومستشاره الأول "آ ي" الذي كان أحد القواد الحربيين المقربين للملك.

وكان أول عمل للملك هو تبديل أسمه من "توت عنخ آتن" الي "توت عنخ آمون" ومعناها "صورة آمون الحية" أو "جميلة هي حياة آمون" كما غير اسم زوجته "عنخ سن با آتن" الي "عنخ سن آمون" ومعناها "هي تعيش لآمون".

وقد أعاد توت عنخ آمون للآلهة القديمة اعتبارها فأعاد فتح معابدها ووهبها الكثير من الهبات والعطايا، يؤيد ذلك نص علي لوحة عثر عليها بالكرنك، ويشيد هذا النص بالآله آمون، كما جاء فيه أن توت عنخ آمون وجد المعابد مهجورة تنمو فيها الحشائش فأعاد بناء هياكلها وغمرها بكثير من الهبات والأشياء الثمينة، وعدد فيها المباني التي شيدها في طيبة تعويضا لما دمره إخناتون كما سمي نفسه بأنه هو الذي "أصلح الخطأ في أنحاء البلاد حتي استقر العدل" كما زين صالة الأعمدة بمعبد الأقصر بمناظر الموكب المقدس للآله آمون من معبد الكرنك الي معبد الأقصر.

ويتضح من بيانات علي بعض جرار النبيذ، التي وجدت بمقبرة "توت عنخ آمون" أنه حكم تسه سنوات أي الي أن بلغ حوالي العشرين من عمره، ويؤيد فحص مومياء الملك أنه لم يكد يتجاوز سن الشباب، ولذلك فقد بدأ حكمه صغيرا ومات صغيراً، ولم ينجب إلا طفلين لم يكتمل نموهما ووجدا كسقطين مدفونين في المقبرة.

كنوز الفرعون الصغير!!

المقبرة الملكية للفرعون "توت عنخ آمون" .. عبارة عن أربعة غرف، الغرفة الخارجية المواجهة للمدخل، وهي التي افتتحت في ٢٨ نوفمبر ١٩٢٢، وعثر بها علي ١٧١ قطعة أثرية ... ثم غرفة الدفن الملكية أو "حجرة التابوت" التي افتتحت في ١٧ فبراير ١٩٢٣ ... وقد وجد بها – كما يقول عالم المصريات الكبير د. "رمضان عبده" – مقصورة كبيرة من الخشب المذهب، بداخلها ثلاثة مقاصير أخري، الواحدة بداخل الأخري، مصنوعة من خشب الأرز، ومغطاه من الداخل والخارج برقائق الذهب، وعثر في أصغرها علي تابوت من الحجر الرملي يحتوي ثلاثة توابيت آدمية الشكل، الواحد بداخل الآخر أيضا، ويضم التابوت الأصغر المصنوع من الذهب الخالص، علي مومياء الملك بقناعها الذهبي الفريد، ومعه مجموعة من الحلي تبلغ ١٤٣ قطعة من الذهب، ويحمل هذه التوابيت الثلاثة سرير من الخشب المذهب، وقد نقشت أجزاء من "كتاب الأرض" علي مقاصير الفرعون.

ويبلغ وزن التابوت الذهبي وحدة ١١١٠,٤ كيلو جراما! ... وقد لفت مومياء الملك بستة عشر لفة كتانية، ومومياء الملك محفوظة في التابوت الأوسط بالمقبرة الملكية حتي يومنا هذا، بينما نقلت كنوز الفرعون وأثاثه الجنائزي الي القاهرة لتحفظ في قاعة خاصة باسم الملك توت عنخ آمون بالمتحف المصري .. ومناظر غرفة الدفن الملكية تمثل جنازة الملك وطقوس "فتح الفم" التي قام بها "الأب المقدس آي" علي مومياء الملك ثم استقبال "نوت" معبودة السماء له، ثم ظهور الملك مع المعبود "أوزير" .. ثم مشاهد تمثل الساعة الأولي مما هو موجود في العالم الآخر!

أما الغرفة الشمالية أو "غرفة الكنز" فقد عثر فيها كارتر

علي ٤٥ ألف قطعة من الحلي والمجوهرات! .. كما عثر بها علي مقصورة مقدسة تضم تحت أغلفة عديدة "أحشاء الملك" المودعة في أوعية كانوبية، كما ضمت أيضا بقية الأثاث الجنائزي من أسرة برؤس الفهود والأبقار، ومقاعد مذهبة وتماثيل من الذهب والفضة، وتماثيل من الخشب مغطاه برقائق الذهب وأواني مختلفة الأشكال.

في نهاية نوفمبر ١٩٢٧، بدأ كارتر العمل في الغرفة الرابعة، حيث اكتشف تكديس لا يتصوره عقل! .. أربعة أسرة ذات نموذج موحد، ومقاعد وصناديق مزخرفة، و٨٤ آنية من الالبستر و١١٦ سلة تحتوي علي بذور وفواكه جافة و٣٦ جرة نبيذ!

قصة الاكتشاف العظيم

وقصة اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون لا تخلو من طرافة، فقد اعتاد ملوك الدولة الحديثة تشييد مقابرهم في وادي الملوك وإخفاء أماكنها، علي أن ذلك لم يحمها من التعرض للسرقة ونهب ما تحويه من كنوز ونفائس. وفي منتصف القرن الثامن عشر، وجد بعض السائحين والمغامرين طريقهم إليها .. وفي أوائل القرن التاسع عشر، أشار "بلزوني" قنصل عام فرنسا والذي أشرف علي مجموعة من الحفائر: أنه لم يعد في وادي الملوك مقبرة غير معروفة! ... ومع ذلك كشفت بعثات مصلحة الآثار المصرية بعض المقابر الملكية الجديدة لتحتمس الأول وتحتمس الثالث وامنحوتب الثاني.

وفي عام ١٩٠٢، عثر الأمريكي "تيودور ديفيز" علي عدة مقابر أخري، وقام بالتسجيل العلمي لها، ومنها مقابر: حتشبسوت وتحتمس الرابع ويويا وحور محب .. وأعلن بدوره أنه لم يعد في وادي الملوك مقبرة أخري يمكن الكشف عنها!

وكان مسيو "ماسبيرو" قد منح "هيوارد كارتر" تصريحا بالتنقيب في وادي الملوك، وظل كارتر يعمل لحساب اللورد "كارنارفون" لمدة خمسة عشر عاما منذ عام ١٩٠٧ وتوالت مواسم الحفر من منطقة الي أخري دون أن يجد شيئا يذكر .. حتي أصيب بالإحباط وشعور باليأس يتملكه، وأخذ يفكر في مغادرة وادي الملوك وترك هذا الأمر نهائيا!..

وتلعب المصادفة دورا خطيرا، عندما زار "هربرت وينلوك" الأمين المساعد بالقسم المصري بمتحف "متروبوليتان" المليونير الأمريكي الأثري "تيوردور ديفيز" .. حيث شاهد لديه مجموعة من القطع الأثرية عبارة عن أواني فخارية وأقداح وقطع أقمشة، كان ديفيز قد عثر عليها عام ١٩٠٠ في غرفة صغيرة تحت الأرض علي مسافة ٤٥ مترا من مقبرة رمسيس السادس بوادي الملوك، وكان يعتقد أنها كل مخلفات مقبرة توت عنخ آمون .. وأدرك وينلوك أهمية هذه القطع، وبدأ في فحصها ودراستها بعناية، وكان من بينها قارورة نبيذ مختومة بخاتم المقابر الملكية وعليها اسم توت عنخ آمون، وأخذ في تجميع الرقائق الذهبية فشاهد ملامح توت عنخ آمون وهو يمارس هواية الصيد فوق محفة، وبعض الرقائق حملت اسمه، وأيقن وينلوك أن هذه الآثار قد سرقت منذ زمن بعيد من مقبرة الفرعون توت، ثم أخفيت في تلك الغرفة التي عثر عليها ديفيز، وتأكد له أن هذا هو مفتاح اللغز الملكي، وأن الفرعون الذهبي دفن في وادي الملوك ... فبعث برسالة متضمنة استنتاجه ورأيه الذي توصل اليه الي مستر كارتر.

وقرر كارتر أن يعود الي التنقيب في نفس المنطقة التي كان توقف عندها عام ١٩١٧، وأزيلت أكواخ العمال بعد رسمها وتسجيلها، وفي صباح يوم ٤ نوفمبر ١٩٢٢، ذهب علي حماره ليتفقد عملية التنقيب، فأسرع اليه رئيس العمال

قائلا: "وجدنا درجة منحوته وسط الصخر"!... وفي اليوم التالي اكتشفوا أربع درجات اخري تؤدي الي مدخل مختوم بخاتم جبانة طيبة وخاتم توت عنخ آمون، وازداد الأمل في التوصل الي المقبرة الملكية للفرعون الصغير ... وفي المساء كان عدد السلالم المكتشفة ١٦ درجة .. وعاد كارتر الي مقبرة بأختام سليمة وبعث ببرقية الي اللورد كارنارفون: "كل شئ مغلق انتظارا لوصولك"!..

ويصل اللورد وابنته مسز "ايفيلين" يوم ٢٣ نوفمبر، حيث كان كارتر ومدير قنا في انتظارهما بمحطة سكة حديد الأقصر .. واستقلوا الحمير لمسافة ستة أميال حتي وصلوا الي وادي الملوك، وكان العمال قد كشفوا عن ٢٦ درجة أخري بعد الباب الأول، الي أن وصلوا الي الباب الثاني المختوم بخاتم توت عنخ آمون .. يصيح كارتر: "مدخل مختوم، إذن فالأمر صحيح!.. سنوات شاقة من العمل الدءوب سوف تكلل بالنجاح في النهاية"!

ويبلغ مستر كارتر "بييرلاكو" مدير مصلحة الآثار و.. "انجلباك" مفتش الآثار بالأقصر ومحمد أفندي فهمي مأمور مركز الأقصر .. وفي يوم ٢٨ نوفمبر افتتحت رسميا الغرفة الخارجية، التي عثر فيها علي ١٧١ قطعة من التحف والمخلفات الأثرية.

ويطلب اللورد كارنارفون من المارشال "اللنبي" المندوب السامي البريطاني، إيفاد أحد رجال البوليس الحربي البريطاني الي الأقصر للقيام بمهمة حراسة المقبرة الملكية، ورشح الجاويش "ريتشارد ادامسون" لهذه المهمة، وكان ادامسون نفسه هو المكلف بحراسة "إبراهيم حسن" المتهم بمحاولة اغتيال "توفيق نسيم" باشا رئيس الوزراء، وظن الجاويش أن هذه المأمورية ستستغرق بضعة أيام ولم يدرك أنها ستمتد

لعشر سنوات كاملة!.. وكان كارتر قد سأله عن طلباته، فأجاب: أريد طعاما جيدا وفونوجراف وبعض الاسطوانات من فندق ونتر بالاس!.. لتصدح الموسيقي في وادي الملوك لأول مرة منذ آلاف السنين ...

وكانت صحيفة الأهرام قد نشرت الخبر التالي يوم ٢٨ نوفمبر ١٩٢٢:

"اكتشف اللورد كارنا رفون من أغنياء إنجلترا أثناء بحثه عن الآثار في صحراء مقام الملوك في الشاطئ الغربي بالأقصر، حفرة لملك من فراعنة مصر، وسيقيم حفلة شائقة في الأقصر، يحضرها جماعة من محبي التاريخ وبعض كبار الموظفين ودعا صاحب الدولة عبد الخالق ثروت باشا ليشرف الحفلة"!

وتوالت أخبار الاكتشاف العظيم في الأهرام .. يبعث مندوب الأهرام "الخصوصي" برسالة في ٢٢ ديسمبر من الأقصر، وتنشر في٢٧ منه بدأها بقوله: "ليس من قصة بشرية لها وقع جميل في النفس، ولا من رواية تهتز لها أوتار القلوب، ولا من اكتشاف عظيم من العاديات يمكن العثور عليه في بطون التاريخ أو بين زوايا ذكري العصور القديمة، أعظم من القصة التي تخبرنا بها اليوم التماثيل الصامته التي اكتشفت في مقبرة الملك توت عنخ آمون، في وادي الملوك بطيبة، أصنام صامته ومع ذلك تتكلم ببلاغة فائقة ولسان مبين، وكان للأهرام – امتياز عظيم خاص – لأنها أول من بلغت رسالتها الي العالم .. "ثم أورد المراسل نبذه عن تاريخ الملك توت عنخ آمون.. كما تحدث عن جهود اللورد كارنارفون وهيوارد كارتر في عملية البحث والتنقيب التي استغرقت خمسة عشر عاما الي أن افتتحت بحضور "عدد من العظماء" وقال: "تجلت حقائق جديدة منذ أعيد فتح المقبرة يوم الاثنين، فقد ثبت الآن

أن هنا مقبرة ملك سليمة تماما، وهي أول مقبرة من مقابر الفراعنة وجدت في مثل هذه الحالة الغريبة المدهشة!...

ويشير مراسل الأهرام الي أن مستر كارتر قد تفضل عليه – باسم الأهرام – لرؤية الغرفتين الجانبيتين من المقبرة ووصف ما بداخلهما.

الحكومة والقناصل في حضرة الفرعون!

وتحدد يوم ١٧ فبراير ١٩٢٣ لافتتاح غرفة الدفن الملكية، وكان مقررا دعوة عشرين من كبار الشخصيات، تضاعف الي أربعين تقدمهم الأميران: عمر طوسون ويوسف كمال، وخمسة من رؤساء الوزارات السابقين: حسين رشدي باشا، محمد سعيد باشا، توفيق نسيم باشا، عدلي يكن باشا، عبد الخالق ثروت باشا، وإسماعيل صدقي باشا الذي تولي رئاسة الوزراء فيما بعد، وسير "جون ماكسويل" القائد العام البريطاني، وقناصل الدول الأجنبية، وبعض علماء المصريات: لاكووجاردنر وبرستيد، الذي سجل انطباعاته عن هذه اللحظة التاريخية فقال:

"في القلب الساكن للجبل، ظل الملك راقدا طيلة ثلاثة آلاف عام تقريبا، منذ هبطت زوجته درجات السلم للمرة الأخيرة، وربما تكون هي التي وضعت الكفن بأصابعها علي جسده، وربما تكون هي التي وضعت باقة الزهور البرية الرقيقة التي شاهدناها، وكانت بمثابة إيماءة الحب والأسي الأخيرة التي قدمتها للملك الراحل، ولما أصبحنا في مواجهة مقدمة المدفن، فتح كارتر البوابتين الكبيرتين، فأصبح بإمكاننا رؤية ما بداخل هذا المدفن الملكي الذي يبلغ طوله ١٧ قدما وعرضه ١١ قدما، وعندما رفع كارتر غطاء التابوت الحجري، خرجت آهات الإعجاب والدهشة .. تابوت ذهبي

للملك الشاب من أبدع ما أخرجه الفنان المصري كان داخل التابوت الحجري .. وعلي جبينه وضع إكليل صغير من الزهور، هدية من الملكة .. وعرفنا أننا وحدنا رأينا الآثار المقدسة والأدوات الجنائزية لملك مصر، وغطاء التابوت جعلنا نتحقق من أننا في حضرة الفرعون الذي توفي منذ عصور مضت .."

وقال كارتر: "لقد كان أروع أيام حياتي، عندما شاهدت بريق الذهب .. لقد انفتح أمامي الكنز .. أو مغارة علي بابا! .. لقد عثرت علي مقبرة ملكية كاملة"!!

صالونات "الهوانم".. وسلطان الكلمة!

بعض النساء مثل الأساطير .. وشهر زاد أثبتت أن الجمال وحده لا يكفى ما لم يتوج بالخيال والأدب، ومنذ أكثر من قرن من الزمان، شهدت مصر الجميلة أول صالون نسائى فى الشرق .. بينما فى حياتنا المعاصرة تهجم علينا وتحاصرنا خفافيش الظلام والجهل والتخلف من المتاجرين بالدين والوطن، من اعتبروا المرأة كلها عورة!.. ثم استخدموها فى حمل السلاح والمولوتوف وفى "جهاد النكاح" ودعم تحالف الشياطين!

بعد ثورة ١٩١٩ تألقت صالونات الهوانم، وتوهجت دوما بسمو الأفكار ورقى العقول، فكان الإنتقال من "كلمة السلطان" إلى "سلطان الكلمة"!

وفى أجواء أول صالون نسائى دارت أفكار كتاب "تحرير المرأة" وكانت الأميرة نازلى فاضل هى المرأة الوحيدة فيه، لكن حضورها كان آخاذا فهى إمرأة لا تتكرر لأنها كانت قوية وحرة ومستقلة ذات سيادة!

"البرنسيس" وأول صالون نسائى فى الشرق

عرفت القاهرة موضة "الصالونات الأدبية" مبكرا ، وبدأت في القصور الكبيرة، وكانت تقتصر في البداية على الرجال، فالحريم في "الحرملك" والرجال في "السلاملك" .. وكل من يؤرخ للحياة الفكرية في مصر الحديثة لا يمكنه أن يغفل تلك الصالونات الأدبية "الأرستقراطية" التي كانت تجذب صفوة أعلام الرأي والتنوير في مصر من أدباء ومفكرين وعلماء وشعراء وسياسيين وصحفيين.

فى صالون "البرنسيسة" الذى كان جميع نجومه من الرجال

.. نخبه من العقول التي حددت ملامح ذلك الجيل، كانت المرأة الوحيدة فيه الأميرة "نازلى هانم فاضل" ابنة الأمير مصطفى فاضل باشا بن إبراهيم باشا بن محمد على باشا، وشقيق الخديو إسماعيل باشا، وكان أبوها من دعاة الحرية والدستور والثائرين فى وجه الاستبداد فى عاصمة الدولة العثمانية - استانبول - التى اتخذها مقراً ومقاما !.. وطالب بالدستور فى عهد السلطان عبد المجيد، حتى أطلق عليه "أبو الأحرار" ونتيجة ليأسه من العمل السياسى، وفشل مؤامراته ضد الخديو إسماعيل، انصرف الى العلم والأدب، وحول جانب من قصره الى مدرسة، كما كانت مكتبته الخاصة من أندر واكبر المكتبات فى مصر - وهى نواة دار الكتب الخديوية - مما جعل له منزلة خاصة فى قلوب المثقفين المصريين.

أفكار وحوارات :

مما لا شك فيه أن صالون الأميرة نازلى هانم - بسراى والدها الأمير مصطفى فاضل باشا بدرب الجماميز - قد أسس ما يمكن أن نسميه "حزب المثقفين" والذى خرجت منه جميع الأحزاب والحركات السياسية الحديثة فى مصر، وبفضل منها فى إرساء حرية النقاش العلمى الجاد الهادىء، والذى ارتكز على كيفية النهوض بالشعب المصرى، والدعوة الى يقظته بحكمة وتدرج دون ازعاجه بضوء باهر ولا جلبة فارغة، ودور الصحافة فى مواجهة مشكلات الاصلاح الاجتماعى، وفى تشكيل وعى عام ومن صالونها خرجت فكرة الدعوة إلى إنشاء جامعة مصرية، كما كانت تحاور الساسة البريطانيون حول سياسة الانجليز تجاه مصر، وسياسة الخديو الخارجية والداخلية، فلم يقتصر صالونها على تدارس الشعر والأدب والفنون الجميلة والفكر الراقى، بل تطرق أيضاً الى تناول

الفكرة الاسلامية والفكرة الوطنية القومية، وأوضاع المرأة فى مصر والشرق عامة، وامكانية الافادة من النموذج الحضارى الغربى، وأهمية التعليم فى النهوض بالأمة، ومناقشات حول التيارات الأدبية والفلسفية التى سادت الفكر الأوروبى فى ذلك العصر .. بينما قامت فى أحد الاركان شماعة جميلة من خشب الابنوس تزدان بالمعاطف الفاخرة والطرابيش الحمراء!

الأميرة التى حركت الرجال وصنعت الأحداث !

أجادت نازلى هانم اللغات الفرنسية والتركية وكانت تتحدث الفرنسية كاحدى بنات "السين" ذوات الثقافة الرفيعة، لكنها كانت تفضل الحديث بالانجليزية، وعرفت بعض من العربية. تركت الأميرة "المتمردة" أثرا كبيرا فى الحياة الفكرية بمصر فى مطلع القرن الماضى، فى صالونها تشكلت وزارات وخرجت الافكار والمبادرات، وأمسكت بخيوط اللعبة السياسية، ولجأ إليها جميع الأطراف، حيث كانت على علاقات وثيقة بالانجليز، كما ارتبطت بصداقة السلطان عبد الحميد الذى كثيرا ما التقى بها فى قصره، تزوجت وهى صغيرة بالسفير العثمانى فى لندن، كما كانت صديقة شخصية للملكة "فيكتوريا" والملك "ادوارد".

انها اكثر الشخصيات غموضا .. فهى أميرة ولكنها متمردة على الخديو والتقاليد البالية، حاربت تخلف الشرق وأثار غيرتها تقدم الغرب، وقد ترك لنا "رونالد ستورز" المستشار الشرقى بالسفارة البريطانية بالقاهرة التى وصل اليها عام ١٩٠٤م، صفحات مليئة بالذكريات عن صالون نازلى فاضل وتجربته فى مصر فى كتابه "شرقيات" .. وكان "ستورز" فى الأساس ضابطا فى المخابرات البريطانية، أجاد اللغة العربية، وشارك فى الاعداد للثورة العربية، كما ساهم

فى خدعة "سايكس/ بيكو" وكان صديقا للورنس العرب .. وكتب ستورز :

"تبنى الأميرة السفير البريطانى فى استانبول: سير هنرى لابارد الذى عاملها كابنته، ووضع أمامها تجربته وخبرته .. وكان يتردد على صالونها بالقاهرة اللورد كيتشنر واللورد كرومر الذى وضع معالم سياسة الاحتلال البريطانى فى مصر، وجيل من الساسة والمفكرين الانجليز الذين كانوا يقدرونها ويرون فى رواد صالونها خلاصة الفكر الراقى فى البلاد"

وضم صالون الأميرة صفوة المجتمع المصرى فى ذلك العصر، منهم "محمد شريف باشا" و"مصطفى رياض باشا" و"لطيف باشا سليم" و"عمر باشا لطفى" و"حسين رشدى باشا" بالاضافة الى سلطان باشا وشاهين باشا وسعد زغلول "بك" وقاسم أمين وابراهيم الهلباوى ومحمد فريد وأحمد فتحى زغلول وابراهيم المويلحى وأديب اسحاق والشيخ على يوسف .. وقد أسهم صالونها فى تغيير فكر واتجاهات جماعة الشيخ "محمد عبده" التى استمدت أفكارها من "جمال الدين الأفغانى" فى العقد السابع من القرن التاسع عشر، والافغانى نفسه كانت تربطه صداقة وثيقة بالأميرة التى قال عنها: "تمثال الكمال والجمال، حضرة البرنسيس التى لها من قلبى المنزل الأبهى والمقام الأسنى" .. وكانت الأميرة تجل الأفغانى وتخصه بمكانه متميزة ..

وقد ترك ستورز وصفا لصالون الأميرة، فكتب: "تدخل قصرها القريب من قصر عابدين، فيستقبلك اثنان من الأغوات، وعندما تمشى من البوابة الى مدخل القصر تمر بين بساتين ورود وأشجار وارفه، وسرعان ما يعلن أحد الأغوات عن وصولك ولابد أن تنتظرها للحظات، الى أن تطل عليك

باسمة متحررة رائعة الجمال بحضورها وتأثيرها الطاغى، قاعة الاستقبال وطرازها المميز يعكسان طبيعة وشخصية الأميرة، مازجاً بين الطابعين الشرقى والغربى، قناديل تضاء بالكهرباء، مقاعد من طراز لويس الخامس عشر، نقوش وزخارف عربية، صور شخصية للعائلة المالكة البريطانية الى جوار صورة السلطان عبد الحميد، وصورة اللورد جرانفيل الى جانب صورة اللورد كرومر، وتزدحم الجدران بصفحات من المجلات المصورة" .. وروى ستورز أن صداقتهما استمرت سبع سنوات وهى المرأة الوحيدة فى مصر التى تستقبل الضيوف من كبار الشخصيات من المصريين والاجانب حيث تدور المناقشات بالفرنسية والانجليزية والتركية .. منهم: "حسين رشدى طبوزاده" رئيس الوزراء وقائم مقام الخديو فيما بعد، وقد حرص ستورز أن يلاعبه الشطرنج "حتى يرى مدى ذكائه وتفكيره" كما التقى "رؤوف باشا" السفير التركى، والشيخ على يوسف وسعد زغلول وفتحى زغلول وقاسم أمين .. وحرص أيضاً فى هذا التقرير على هذا الحديث عن الولائم التى كانت تقدمها لضيوفها من الوزراء والسفراء والشخصيات العامة، بينما تتهادى الموسيقى الكلاسيك والموسيقى الشرقية من "الجرامافون" مع تباين الشخصيات والآراء والحوارات الراقية!

الأميرة والشيخ !

امتد تأثير الأميرة نازلى فاضل على رجالات مصر ولم يتوقف عند الشيخ محمد عبده وقاسم أمين وسعد زغلول ومحمد فريد ..

فقد توثقت علاقة الشيخ محمد عبده – مفتى الديار المصرية – بالأميرة عقب عودته من منفاه عام ١٨٨٨م وقد

سعت للعفو عنه لدى الخديو توفيق واللورد كرومر، وقد القى الشيخ مصطفى عبد الرازق الضوء حول علاقة الأميرة بالشيخ، فكتب فى (مجلة الرسالة، الجزء السابع، سنة ١٩٤٨، ص٨) :

"الأميرة نازلى فاضل من أميرات البيت المالك فى مصر، تميزت منذ نشأتها بذكاء ودهاء، وربيت على النمط الأوروبى، وتثقفت تثقيفا أوروبيا، وكان أبوها من دعاة الحرية والثائرين فى وجه الاستبداد التركى ثم كانت زوجة السفير العثمانى فى لندن فاتصلت بعالم السياسة والدبلوماسية، وجمعت الى ذلك كله جمالا رائعا وبيانا حلوا ولطفا نسويا فتانا، وكانت ساحرة النظرات عذبة الملامح رشيقة القوام ناصعة الجبين ذات ثغر يفتر عن ابتسامه دائمة فيها معنى الألم العميق والسخرية بالألم ومعنى العزيمة الماضية ومعنى الرجاء الذى لا يصل اليه اليأس .. كان قصر الأميرة ملتقى الكبراء وقادة الرأى وصفوة أهل العلم والأدب والفن بين أجانب ومصريين، وفى قصرها كانت تحل عظائم الأمور، وتمحص مسائل الاصلاح الاجتماعى وفى قصرها كان يشجع أهل المواهب وكان يمهد لنشر الجديد والدعوة الى الرقى والمدنية، وكان للخلصاء فى قصر الأميرة فرص أيضا للتمتع بنعيم الحياة وطيبها".

ويضيف الشيخ مصطفى عبد الرازق أن الأميرة عرفت الشيخ محمد عبده منذ كان مستشارا بمحكمة الاستئناف وظلا صديقين حتى فرق الموت بينهما "خصته بمكانة تجمع بين الحب والاجلال، وكان الشيخ يجد فى كنف الأميرة ما يغذى روحه الحساسه وذوقه اللطيف، ويجدد نشاطه للعمل ويرفه عنه فى أحمال الوقار ما لا يستطيع أن يرفهه إلا ذكيه حسناء، ونشأ الاستاذ على عداوة الانجليز، أما بعد اتصاله بالأميرة فقد

خفت حملته على انجلترا، وسمح بصداقته الشخصية للورد كرومر صديق الأميرة دون تفريط فى حق بلاده أو عدول عن رأيه السياسى".

الأميرة والباشا !

وعن طريق الشيخ محمد عبده، توثقت صلة "سعد زغلول" بك بالأميرة، وأصبح محاميا لها ووكيلا لأعمالها، ويشير "ستورز" الى أن الأميرة نازلى هى التى نصحت سعد زغلول بضرورة تعلم الفرنسية فبدأ دراستها فى صيف ١٨٩٢م وأتاحت له الاختلاط بأوساط الطبقة الارستقراطية، وهى التى زوجته من صفية "أم المصريين" كريمة رئيس الوزراء مصطفى فهمى باشا فى السادس من فبراير ١٨٩٦م، وهى التى قدمته للورد "كرومر "فعينه مستشارا ثم وزيرا للمعارف بعد منحه لقب "الباشوية".

وفى كتابه عن سعد زغلول باشا، كتب عباس العقاد :

"كان لورد كرومر يعرف سعدا من خلال زياراته للأميرة نازلى فاضل، ومن المحقق أن كرومر عرف من اللحظة الأولى للقاء سعد أنه يرى رجلا لا كالرجال .. جلس معه ساعة فأدهشة ألا يسمع منه ملقا أو رجاء!.. وأطلق كرومر على جماعة صالون الأميرة نازلى: "فريق الجيروند المصرى" فشبههم بحزب "الجيروند" فى الثورة الفرنسية!

قاسم أمين .. وتبدل المواقف والآراء !

استطاعت الأميرة نازلى أن تغير مفهوم "قاسم أمين" عن المرأة ويتحول من النقيض الى النقيض!.. فعقب عودته من باريس، نشر كتابا بالفرنسية بعنوان "المصريون – les Egyptiens، ردا على الكاتب الفرنسى" داركون – Duc de

Darcount "القاضى بالمحاكم المختلطة بالقاهرة، الذى انتقد فيه المجتمع المصرى وحياة المصريين الدينية والاجتماعية نقدا لاذعا L'Egypte et les Egyptiens, Paris, 1893 وفى كتابه، دافع قاسم أمين عن الحجاب، ونـدد بالـداعيات الـى السفور ومشاركة المرأة فى الحياة العامة وطالبها بالبقاء فـى البيت والاقتصار على شئونه وعدم الخوض فى الحياة العامـة خاصة أن مصر لا تزال تعيش فى حالة من التخلف!

ولما كانت الأميرة تمثل النهضة النسائية المصرية آنذاك، فقد اعتبرت أنها المعنية بهجومة، وهى من القلائـل اللاتـى يظهرن سافرات، وقد اكـد الـصحفى الكبيـر داود بركـات (الاهرام ٤ مايو ١٩٢٨م) والـشيخ عبـد العزيـز البـشرى (السياسة الاسبوعية ٥ مايو ١٩٢٨م) أن الأميرة تصورت أن ما كتبه قاسم أمين كان تعريضا جارحا لهـا، ولـم يـرق للأميرة موقفه من المرأة، وأعلنت أنها تتطلع للحـوار معـه، وتولى المهمة كل من سعد زغلـول والـشيخ محمـد عبـده واصطحبا قاسم أمين الى صالون الأميرة، التى قبلت اعتذاره، ودارت مناقشات طويلة بعد ذلك حول أفكاره، وكان واضحا أن كتابيه: "تحرير المرأة" ١٨٩٩م و"المرأة الجديـدة" ١٩٠٠م كانا نتيجة لتلك الحوارات التى دارت فى صـالونها، وكتـب قاسم أمين: "انه وجد نفسه أمام امرأة شرقية مثقفة تدافع عـن بلدها وتملك الحجة فى مواجهة الاجانب فى صالونها" واقتنـع قاسم أنه لا يمكن أن تتحقق النهضة إلا عندما تحصل المـرأة على حقوقها المتساوية مع الرجل .. بل "ويتمنى لو كانت كل امرأة فى بلد مثلها"!.. وكتب فى "المؤيد" مدافعا عن حقـوق المرأة وضرورة تحريرها من الجهل والتخلف وأن تخرج من "قوقعتها" كما طالب بخروجها للعمل إذا اضطرتها الظـروف، بعد أن كان اكثر الناس دعوة الى الحفاظ على حجاب المرأة!

أيضا ، كان واضحا أن هذه المقالات كانت بتشجيع ومباركة الأميرة، وقد جمعت فى كتاب "تحرير المرأة" وتسبب فى هز المجتمع المصرى من أعماقة وفى اثارة الكثير من الجدل والمعارك الفكرية الضارية!

وهكذا تغير فكر قاسم أمين وتطور على يد الأميرة نازلى، وقد لا نكون مبالغين اذا قررنا أن كتاب "تحرير المرأة" كان انتصارا لأفكارها وارضاء لتطلعاتها وترديدا لأصداء صالونها.

وهكذا استطاعت الأميرة "نازلى فاضل" التى فاقت اكثر أهل عصرها من أبناء الشرق: اشتغالا بالسياسة وقضايا المجتمع، أن تصقل مواهب رجالات مصر وأن تؤدى دورها الريادى فى الحياة الفكرية، وأن تهيىء المناخ الفكرى المناسب لحركة التغيير والنهضة التى كانت تترقبها مصر، حتى كتبت عنها "هدى هانم شعراوى": "لقد ظهرت الأميرة نازلى فى أفق الحياة الاجتماعية وفتحت أبواب دارها لعظماء الرجال، وساهمت مساهمة فعالة فى بناء النهضة الحديثة".

لقد جمعت الأميرة نازلى فى "الصالون النسائى الأول": اللوردات والباشوات، وصفوة مجتمع القاهرة من أصحاب المواهب الفكرية والسياسية .. فكان الانتقال من "كلمة السلطان" الى "سلطان الكلمة" أمرا طبيعيا عقب الثورة الوطنية سنة ١٩١٩م ..!

وحلقت بعيداً عن أسوار "الحرملك"!

"قوت القلوب الدمرداشية" .. أديبة ارستقراطية، ناضلت من أجل نيل المرأة حقوقها بعيداً عن أسوار الحريم .. وهى التى كانت شاهدة على عالم الجوارى والرقيق، كانت تتطلع إلى تحريرهن من عالم غامض حدوده أسوار "الحرملك" ..

حيث كن يقضين الساعات الطوال خلف المشربيات "وكل علاقاتهن بالعالم الخارجى تتوقف عند حدود ما يرين من خلف هذه المشربيات، لم يكن فى أذهانهن أى معنى للحرية، كن راضيات بالراحة التى يتمتعن بها"!

تنتمى "قوت القلوب" إلى عائلة عريقة تمتد جذورها إلى عصر سلاطين المماليك، فمؤسس العائلة "عبدالله تيمور تاش" تذهب بعض الروايات إلى أنه كان من بلاد القوقاز وجاء مع العثمانيين خلال غزوهم لمصر عام ١٥١٧ وفى رواية أخرى، أنه ولد فى "تبريز" ببلاد فارس عام ١٤٥٤ وتفقه فى علوم الشريعة والتفسير والحديث، غير أن اعتناقه للمذهب السنى حال دون توليه أية مناصب بطبيعة الحال، فرحل إلى مصر والتحق بديوان السلطان الأشرف قايتباى، الذى أحبه وقربه إليه وأنعم عليه بإقطاع فى قرية "الخندق" التى اشتهرت فيما بعد بقرية الدمرداش، وبنى له زاوية وأوقف على الفقراء أرض مثمرة، لم يذق منها هو وأسرته طيلة حياتهم!

وبتعاقب السنين، وكعادة المصريين تحول اسم "تيمور تاش" إلى "الدمرداش" مثلما تحول – على سبيل المثال – لقب "أمير الجيوش" إلى "مرجوش"!

وسرعان ما أصبح له أتباع ومريدين، بعد أن أرسى مبادىء الطريقة الدمرداشية، التى توارث خلافتها أبناؤه وأحفاده حتى الشيخ "عبدالرحيم الدمرداش المحمدى" الذى أصبح علامة مضيئة فى تاريخ العائلة، إلتحق بالجامع الأزهر وتلقى علوم الدين من منبعه الصافى الوسطى، وتتلمذ على والده فى علم التصوف، وجلس إلى مشاهير العلماء ومنهم الإمام محمد عبده والشيخ مصطفى المراغى، وتولى مشيخة السادة الدمرداشية عام ١٨٧٧ وجدد زاوية العباسية وجعل منها جامعاً كبيرا مازال قائماً وشاهدا على مكانة هذه العائلة

وعطائها الذى توج بتشييد مستشفى خيرى ضخم - الشهير الحالى - عندما تبرع "عبدالرحيم بك" بقطعة أرض مساحتها ١٥ ألف متر مربع، وبمبلغ ٢٥٠ ألف جنية مصرى (أغلى عملة فى العالم فى ذلك العصر وحتى قيام ثورة يوليو!) كما تبرعت قرينته بمبلغ ٢٥ ألف جنية، وأنعم عليه الملك فؤاد برتبة "الباشوية" عقب افتتاحها عام ١٩٢٨، توفى عبدالرحيم باشا الدمرداش فى الخامس من فبراير ١٩٣٠ وشيع جنازته أكثر من خمسة عشرة ألفاً من محبيه ومريديه، يتقدمهم فرقة من البوليس وكبار رجال الدولة وأرباب الطرق الصوفية.

ولدت "قوت القلوب" عام ١٨٩٢ بقصر والدها الملاصق للجامع، فنشأت فى أجواء إسلامية صوفية .. كتب عنها د.ناصر الدين النشاسيبى: "إنها من عائلة رائدة فى التصوف، وكانت الطريقة الدمرداشية تمتاز بالتربية الذاتية والخلوات الفردية ومن خلال هذه الطريقة الصوفية عاشت قوت القلوب وهى تسبح عكس التيار بالنسبة لإنتمائها الصوفى أو مسلكها العام .. وفر لها والدها - الذى كان يتمنى أن يهبه الله ذرية من الذكور - ثراءً واسعاً فتوفر لها قدر هائل من الرفاهية" .. تزوجت من رجل أقل منها فى المكانة الإجتماعية، واشترطت لنفسها حق العصمة، وأنجبت ثلاثة أولاد وإبنة واحدة.

عرفت "قوت القلوب" عالم الآدب، عندما إمتدت بها مرحلة التكوين الثقافى الراقى إلى سن الخامسة والأربعين، فكتبت بالفرنسية - لغة الطبقة الأرستقراطية - والتى كانت تجيدها بطلاقة، فكان كتابها الأول بعنوان "مصادفة الفكر" عن دار المعارف عام ١٩٣٧ ثم رواية "حريم" عن دار جاليمار الفرنسية، والتى قدم لها الأديب الشهير وعضو الأكاديمية الفرنسية "فرانسوا مورياك" ثم توالت رواياتها: "زنوبة" ١٩٤٧ "ليلة القدر" ١٩٥٤ "رمزة" ١٩٥٨ "حفناوى الرائع" ١٩٦٠ إلى

جانب القصص القصيرة واليوميات والمقالات، وترجمت بعض أعمالها إلى الألمانية والإنجليزية، وحظيت رواياتها بإهتمام أوروبى فقد قدمت عالم الشرق الغامض الساحر بلغة فرنسية وبأسلوب أدبى رفيع.

كانت قضية المرأة محور إبداعها وإهتمامها متأثرة بوضع المرأة الشرقية، والمصرية خاصة .. فكتبت فى مقدمة روايتها "رمزة": "لقد تورطت فى هذه القضية نصف قرن، هززت فيها أسوار الحريم، تمردت وثرت على عادات القرون الماضية، ووضعت أمام الرأى العام قضية الحرية وحقوق المرأة، وخضت حربا ضد المحافظين على التقاليد القديمة، وسددت (أطلقت) مدافع الأفكار الجديدة"!

ولأنه كان يجيد الفرنسية، فقد حظيت بإهتمام عميد الأدب العربى "طه حسين" واستحدث بابا جديدا فى مجلة "الرسالة" العتيدة بعنوان: مع أديباتنا المعاصرات .. بعد أن طال تردده "قبل أن يفتح هذا الباب من أبواب النقد .. لسبب يسير جدا وهو أن هذا النقد سيتجه إلى السيدات والآنسات" وهو الذى تعود أن يتحدث إلى الأدباء فى لهجة "لا تخلو من بعض الشدة والعنف أحيانا ، حتى أصبح النقد الحازم الصارم عادة لى لا أستطيع الإنحراف عنها مهما تكن الأسباب والمواضع"!

وكتب طه حسين بك تحت عنوان: "حريم – للسيدة قوت القلوب الدمرداشية" فأشار إلى أنه حين أقدم على نقد الكاتبات الأديبات، مضطر إلى أن يصطنع من "الرفق والتلطف" أكثر جدا مما يصطنعه حين يقدم على نقد الأدباء!.. ووصف نفسه بأنه "رجل قليل الحيلة، ضعيف الوسيلة فى التلطف والتظرف"!

ثم أشار إلى أن فى مصر "كاتبات أديبات ينتجن آثارا قيمة خصبة لعلها أن تبلغ من الإجادة والإتقان أكثر مما تبلغ

آثار الأدباء" .. ثم استطرد بأسلوبه المميز عن الكتاب "الحريم" الذى كتبته السيدة قوت القلوب باللغة الفرنسية ونشرته فى باريس، ووصل إلى مصر من باريس، ولم يصل إلى باريس من مصر!.. وتقديم الأديب الفرنسى "بول موران" للكتاب، وكتب عنه عدد من الأدباء والنقاد الفرنسيين .. ولم يقرأه – مع ذلك – المصريون!.. وأبدى عجبه من "كتاب مصرى تنشئه كاتبة مصرية، فى موضوع مصرى خالص يمس حياة المصريين .. ثم لا يعرف المصريون عنه شيئا "! ..

ويسجل العميد رضائه عن الرواية "من الناحية الفنية الخالصة" ويتحفظ بالنسبة لنقائض فى حياة المصريين أوردتها فى كتابها .. لكنه أثنى على كتابها "القيم الجميل ... وما فيه من جمال فنى يلذ ويمتع ويمكن للقارىء من أن ينفق فى قراءته وقتا مريحا "!

واصلت "قوت القلوب" سيرة والدها بتبنى الأعمال الخيرية ؛ إذ كانت تتبرع بمبلغ ألف جنية سنويا لكلية طب عين شمس للإنفاق على أبحاث الغدد الصماء تحت إشراف د. بول غليونجى، كما خصصت أموال للإنفاق على تعليم الطلاب الفقراء، وتكفلت بإنشاء مكتبة طبية بمستشفى الدمرداش، وفتحت مكتبتها الخاصة للطلاب، والتى كانت تحتوى أكثر من ثمانية آلاف كتاب .. كذلك خصصت جائزة مالية عن مسابقة أدبية باسمها، كانت تنشر إعلاناتها بمجلة الرسالة، ونال أول جائزة "الأديب الشاب نجيب محفوظ" وقيمتها ٢٥ جنيه .. كانت مبلغا ضخما فى الأربعينيات من القرن الماضى!

وعقب ثورة يوليو، كانت "قوت القلوب" من أغنى إثنتى عشرة شخصية فى مصر وعلى الرغم من تأييدها لـ"الحركة المباركة" إلا أنه وفى ظل حالة العداء المتصاعد لجميع

الأثرياء تم إتهامها بتهريب ١٠٠ ألـف جنيـه!.. وتعرضـت لمضايقات اضطرتها للرحيـل عـن مـصر بعـد أن أمـر عبداللطيف البغدادى بهدم قصرها، واتخـذت مـن سويـسرا مستقراً ومقاماً وفيها رحلت عن دُنيانا عام ١٩٦٤.

هُدم القصر بحجة إنـشاء نفـق الـشهيد كمـال الـدين صلاح!.. كان درة فى العمارة الحديثة، شيد علـى الطـراز الإنجليزى فى القرن التاسع عشر، وكـان ملاصـقا لقـصر الأمير كمال الدين ابن السلطان حسين كامل، والذى تحول إلى مقر لوزارة الخارجية المطل على ميدان التحرير .. وانـدثر القصر الذى كان ملكا للمليونير اليهـودى "قطـاوى باشـا" واشتراه منه والدها "عبدالرحيم باشـا" وأهـداه إليهـا عقـب زواجها، وكان صالونها ملتقى هوانم المجتمع، مثل: هدى هانم شعراوى، سيزا نبراوى، نبوية موسى، مى زيـادة، واميلـين هيكتور قرينة محمود خليل باشا رئيس مجلس الشيوخ وراعى الفنون ... كما كان مزاراً للمستـشرقين ومـشاهير الأدبـاء أمثال: فرانسوا مورياك، بول موران، أناتول فرانس!

دار مى ..!

كان صالون "مى زيادة" رائدا وعلماً فى الحيـاة الأدبيـة والثقافية .. فقد كانت شاعرة وأديبة وخطيبـة، أدركـت دور الصالونات النسائية عندما كتبت عن صالونات باريس، فكانت بثقافتها الواسعة والعميقة أيضا – فقد أجادت سـتة لغـات – تدرك أسرار الأدب الفرنسى والإنجليزى والألمانى .. كانـت فى البداية تكتب بالفرنسية باسم مستعار "ايزيس كوبيـا" ثـم كتبت على استحياء بالعربية باسم "خالـد رأفـت"!.. وحـين تأكدت من تأثيرها اختارت اسم "مى" وهو اسم الدلع والـشهرة لاسمها الأصلى "مارى"!

كان قصر أحمد باشا خيرى (الجامعة الأمريكية الآن) هو أول مقر للجامعة المصرية الأهلية سنة ١٩٠٨ قبل تأسيس جامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن) فى هذا القصر، كان أول لقاء لهدى هانم شعراوى بالفتاة الناشئة "مى" .. وكتبت هدى هانم عن هذا اللقاء :

"فى شهر ابريل من سنة ١٩١٤ نظمنا سلسلة محاضرات للسيدات فى الجامعة القديمة، وبينما كنت أغادر القاعة، عقب إلقاء المحاضرة، ألفيت فتاة لفتت نظرى برشاقة حركتها وخفة روحها وبريق عينين سوداوين تنبعث منهما أشعة الذكاء الحاد والفطنة النادرة، يزين هذا كله وجه صبيح تتألق فى أساريره ابتسامة كابتسامة الزهر فى فصل الربيع .. استوقفتنى تلك الفتاة قائلة: سيدتى هدى هانم، أنا معجبة بمشروعك، مقدرة لمجهودك، لذلك أضع نفسى تحت تصرفك، لا تظنى أننى صغيرة لا أستطيع معاونتك، أنا كاتبة وشاعرة، اكتب فى الصحف والمجلات .. أنا مى .. لابد أنك قرأت لى شيئا ، ألا تعرفيننى ؟.. لم أتمالك نفسى إذ ذاك من ضمها وتقبيلها وإبداء إعجابى بها وسرورى بمعرفتها واغتباطى بإشتراكها فى حركتنا، لقد رأيت فيها إنسانا غير عادى، كانت ذات عقل كبير وقلب أكبر ونفس عالية وتفكير واسع وإدراك بعيد، كانت تعرف قدر نفسها فى تواضع وبساطة .. وهى بين الجميلات فهى لا تبدو أقل منهن فتنة وجاذبية، والذى اكسبها هذه الفتنة هو جمال روحها ورقة إحساسها".

وأجمع الأعلام فى الأدب والصحافة فى المجتمع المصرى آنذاك، الذين إجتمعوا فى صالونها الشهير وكتبوا عنها فى حياتها وبعد رحيلها .. على نبوغها الأدبى وسمو أخلاقها وروحها، معتزة بعروبتها، محافظة على شخصيتها، موفورة الكرامة، رقيقة الشعور .. سارت فى طريقها

وقيثارتها فى يدها، خاضت بحار الأدب الغربى وأخرجت لنا منها دررا ثمينة .. لقد كانت وبحق المثل الأعلى للفتاة الشرقية الراقية المثقفة ...

ولدت مى زيادة عام ١٨٨٦ فى مدينة "الناصرة" التى استقبلت "المسيح" عليه السلام، التحقت بمدرسة الراهبات الفرنسيسكان فى بيروت، ثم رحلت مع أسرتها إلى مصر، وأنشأ والدها إلياس زيادة بك جريدة "المحروسة" وشغلت نفسها بتعلم اللغات والآداب الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية .. وترجمت عن الألمانية لماكس مولر "ابتسامات ودموع" نشرت فى حلقات بجريدة والدها .. وقام بتشجيعها "قاسم بك أمين" وملك حفنى ناصف "باحثة البادية" على مواصلة الكتابة وتنمية موهبتها الفكرية التى كان من آثارها ما اعتبر أنموذجا رفيعا للنقد الأدبى الحديث، وترجمات مصحوبة بآرائها الخاصة، أسلوب راقى امتزج بخيال رائع، وبالإضافة إلى "ابتسامات ودموع" أبدعت مى: "الحب فى العذاب" ؛ "سوانح فتاة" ؛ "ظلمات وأشعة" ؛ "الصحائف" ؛ "كلمات وإشارات" وغيرها من المؤلفات، والمقالات والمحاضرات ..

اعتادت مى زيادة أن تستقبل كل يوم ثلاثاء، فى صالون شقتها بالطابق العلوى من مبنى جريدة "الأهرام" القديم بشارع مظلوم باشا بوسط القاهرة، ثم انتقلت إلى ١٩ شارع أبو السباع (جواد حسنى حاليا) وظل صالونها قبلة الشوامخ من أدباء ذلك العصر، ورجال الفكر والسياسة، كان ملتقى لجميع الطوائف والأديان السماوية دون استثناء، وكان العميد طه حسين من رواد صالونها، وبالطبع إجتذبه صوت "مى" حين سمعها لأول مرة فى حفل تكريم الشاعر مطران خليل مطران فقال: "لم يرض الفتى عن شيء مما سمع إلا صوتا واحدا سمعه، كان الصوت نحيلا ضئيلا ، وكان عذبا رائعا ،

وكان لا يبلغ السمع حتى ينفذ إلى القلب .. كان صوت مـى، كأنه مس الحرير على الحرير"!

لم تكن مى جميلة وذكية فقط، وإنما كانت أيضا أصدق من وصفت نفسها فى خطاب إلى إحدى صديقاتها: "وجد وشوق وجوع فكرى لا يكتفى، وعطش روحى لا يرتوى، مع استعداد كبير للطرب والسرور، واستعداد أكبر للشجن والألم"!

كانت مى تدير الندوة الأسبوعية وتشارك فيها بلباقة نادرة وذكاء وذهن يقظ، فهى فتاة أحبت الحياة الإجتماعية وتذوقت معطيات الحضارة الحديثة، لكنها ظلت تعيش فى بيئة محافظة، وتكتب بتحفظ فى إطار الأخلاقيات والتقاليد، ففرضت احترامها على الجميع، على اتساع صالونها الفريد فى الشرق لكافة الآراء والمذاهب الفكرية وفنون الآدب بينما تقدم للجميع شراب الورد اللذيذ!.. فكان لعذوبة حديثها ورقى ثقافتها سلطان على عقول الرجال وتأثير فى الحركة الأدبية .. وليس أدل على براعتها يوم عقدت ندوتها وخصصتها للتشاور فى الإحتفال باليوبيل الذهبى لمجلة "المقتطف" وقد حضرها نحو ثلاثين كاتبا وأديبا ووزيرا ، فرقت بين أكثرهم الخلافات السياسية والحزبية، وهو ما عبر عنه العقاد، فكتب :

"اجتمعنا فى بيت مى للإحتفال بالعيد الخمسين لمجلة المقتطف سنة ١٩٢٦، وكان هذا الإجتماع عند مى إبان المناسبات السياسية التى وصلت إلى حد التقاطع، وقضينا عندها ساعتين نسينا فيهما أن فى هذا البلد إضرابا أو منازعات، وذلك بفضل براعتها فى التوفيق بين الآراء وقدرتها على توجيه الحديث إلى أبعد الموضوعات عن الخلاف، وما أحسب أن أحدا غير مى استطاع الذى استطاعته فى تلك الأيام" .. وكتب أيضا : "لو جمعت الأحاديث التى دارت فى ندوة مى لتألفت مكتبة عصرية تقابل

مكتبة – العقد الفريد – ومكتبة – الأغانى – فى الثقافة الأندلسية والعباسية"!

وكان رواد صالونها يستعجلون يوم الثلاثاء ليعيشوا أحلى الأوقات وأسعدها، كما عبر الشاعر اسماعيل صبرى :

إن لم أمتع بمى ناظرى غدا ... انكرت صبحك يا يوم الثلاثاء!

كان يختلف إلى صالون مى من أنصار الثقافة العربية، وأنصار الثقافة الأجنبية، وأنصار الجمع بينهما، مجددون ومقلدون، تباينت توجهاتهم الفكرية والأدبية، ومن هؤلاء الأعلام والمفكرين: طه حسين، أحمد لطفى السيد، مصطفى باشا عبدالرازق، ولى الدين يكن، أحمد شوقى، العقاد، منصور فهمى، حافظ ابراهيم، مصطفى صادق الرافعى، خليل مطران، داود بركات، انطون جميل، شبلى شميل، محمد رشيد رضا، يعقوب صروف، محمد حسين هيكل، قلينى فهمى، سلامه موسى، ابراهيم المازنى، محمد حسن المرصفى، إسماعيل صبرى، أحمد زكى، المطران دوريسان، نجيب هواوينى الخطاط، سامى الشوا أمير الكمان، د. بنت الشاطىء، ايمى خير ...

و روى العقاد شيئا مما كان يجرى من حوارات طريفه فى هذا الصالون، فقال: "كثيرا ما كان شبلى شميل (تزعم شرح نظرية دارون الشهيرة والترويج لها القائلة بأن الإنسان أصله قرد) يحمل على جميع الأدباء فى عصره حملاته المنكرة، ويصيح كأنهم حاضرون أمامه قائلا: فضونا من غلبتكم يا أدباتيه يا أولاد الكلب!.. فكانت مى تجيبه ضاحكة: قلمك يقول أننا أولاد القرد، ولسانك يقول أننا أولاد كلب .. فمن من الوالدين الكريمين تستقر نسبتنا إليه"!!

إن من يقرأ الآن انتاجها الفكرى من كتب ومحاضرات ومقالات وخطابات فى ذلك العصر الجميل، يذهل من اتساع

ثقافتها، فى لغات متعددة، تناولت المذاهب الأدبية والمذاهب الفلسفية الحديثة، امتدت إلى اهتمامها أيضا بالفنون والعمارة والموسيقى الغربية والشرقية.

ورحم الله العالم الفيلسوف الشيخ مصطفى باشا عبدالرازق الذى وصف فأوجز: "شهدنا مشرق مىّ وشهدنا مغيبها (١٩٤١) ولم يكن طويلا عهد مى .. على أن مجدها الأدبى كان طويلا فى الحياة عريضا ".

كثيرون أحبوا مى .. لكنها أحبت وأخلصت لواحد من شعراء المهجر، كان شاعرا ورساما وكاتبا موهوبا هو "جبران خليل جبران" فابتدعت معه فنا جديدا هو "أدب الرسائل" أو الحب "بالمراسلة"!

ورحم الله الشاعر خليل مطران عندما عبر عن حنينه لصالون مى بعد رحيلها :

أقفر البيت، أين ناديك يا مى ... إليه الوفود يختلفونا
صفوة المشرقين نبلا وفضلا ... فى دارك الرحيب يعتمرونا

سراى هدى هانم

داهمت أحداث ثورة ١٩١٩ مصر .. فإنتقلت هدى هانم شعراوى من "الحرملك" إلى الشارع .. من قصرها على ناصية شارع قصر النيل إلى الساحة الممتدة أمام بيت الأمة "بيت سعد زغلول". لتتزعم أول مظاهرة نسائية ضمت ثلاثمائة سيدة وفتاة، يوم الأحد ١٦ مارس ١٩١٩ وبالطبع كانت معها السيدة صفية زغلول "أم المصريين" والمئات من قرينات وبنات العظماء فى تلك الفترة، وحاصرت قوات الإحتلال البريطانى المظاهرة لمدة ساعتين لمنعها من الوصول إلى السفارة البريطانية "مقر المندوب السامى" لتقديم إحتجاجهن على سفك الدماء وإطلاق الرصاص على

المتظاهرين .. وفى ٢٠ مارس ١٩١٩ كتبت هدى هانم بالعربية والفرنسية :

"كان خروج المرأة من البيت إلى الشارع لتنظيم المظاهرات حدثا جديدا جريئا ، فكان الميلاد الحقيقى لتحرير المرأة، ولم تقتصر المظاهرات على بنات العائلات أو سليلات الأسر المعروفة، لأن أول شهيدة سجلها دفتر وفيات قسم الخليفة بحى القلعة كانت من عامة الشعب واسمها "شفيقة أحمد" وكانت جنازتها أول جنازة يسير فيها الرجال مع النساء .. وهكذا ولدت الحركة النسائية الجديدة فى أتون الثورة، ودفعت الثمن قبل أن تطالب المرأة بحقوقها"!

ولدت هدى هانم فى ١٣ يونيو عام ١٨٧٩ توفى والدها "محمد سلطان باشا" وهى فى الخامسة من عمرها، والذى عمل دائما على ترسيخ التقاليد الأصيلة المتوارثة داخل الأسرة، تلك التقاليد تركت بصماتها على شخصية ابنته فكرا وسلوكا حفظت القرآن الكريم وجمعت بين الثقافتين العربية والفرنسية، كان سلطان باشا يميل إلى مجالس الأدب والعلم، وتغنى الأدباء والعلم بشخصيته المتميزة التى زانها الكرم والوفاء والتمسك بجوهر الدين والشجاعة فى إبداء الرأى، كان بارا بأهله، وبالفقراء خاصة، أوقف جانب من أملاكه على الحرمين الشريفين والأزهر - الجامع والجامعة - والمدارس والمساجد، وكان وراء إلغاء نظام السخرة وإلغاء الضرائب الإضافية التى أرهقت كاهل الفلاحين، وإهتمامه بإصلاح أحوال الناس دفعه إلى قبول عدة مناصب: مديرا لمديرية (محافظة) بنى سويف ثم مديرا لمديريات الفيوم، أسيوط، الغربية ثم مفتشا عاما للوجه القبلى، كما كان أول رئيس لمجلس النواب ثم مجلس شورى القوانين وقائم مقام الخديو.

اقترنت هدى هانم بابن عمها "على شعراوى باشا" أحد

أقطاب الوفد ورئيسه فترة نفى الزعيم سعد .. وفى مذكراتها التى كتبتها بأسلوب أدبى نبيل، روت قصة زواجها وهى فى الثالثة عشرة من عمرها، وكان زوجها فى سن أبيها وهو الوصى على الأسرة وأملاك والدها .. وكيف اكتشفت عودة زوجها على باشا إلى زوجته الأولى وأولاده على الرغم من "التعهد المكتوب"!.. وانفصلت الهانم عن زوجها سبع سنوات كانت أخصب سنواتها، لأنها قررت أن تجيد اللغة العربية كما أجادت الفرنسية والتركية، وكشفت عن ميولها الأدبية والفنية، واكتشفت أن تعليم المرأة هو أنسب الحلول لإنقاذ المرأة .. والرجل أيضا ، ولنتأمل مقولة الشيخ والكاتب الفحل عبدالعزيز البشرى: "إن تحرير المرأة هو تحرير الرجل من المرأة الجاهلة"!

نظمت هدى هانم المظاهرات وجمعت التبرعات، وكشفت عن عزيمة تعز على بعض الرجال، وأخفت أحزانها عن الجميع وكانت لا تبوح بأسرارها إلا حين تختلى إلى نفسها ومذكراتها .. وعندما قرأتها، اكتشفت وأنا أتأمل صورها: سر الحزن الدفين على الرغم من الجمال الذى يزدان بالوقار!

كانت هدى هانم تؤمن بالعمل الجماعى المنظم، ولم تصب بالنرجسية وعقدة العظمة وملتقى الأضواء .. فى الثامن من يناير عام ١٩٢٠ تألفت لجنة الوفد المركزية للسيدات فى إجتماع حاشد ضم نحو ألف إمرأة فى الكنيسة المرقسية برئاسة "استر فهمى ويصا" وجصلت هدى هانم على أغلبية الأصوات على الرغم من تغيبها فى الأقصر!

فى مارس عام ١٩٢٠ جاءتها دعوة من الإتحاد النسائى الدولى لحضور مؤتمره فى سويسرا، لكن ظروف الثورة المصرية وتداعياتها حالت دون إجابة الدعوة، ثم كان المؤتمر الثانى فى روما ١٩٢٣ برفقة "سيزا نبراوى" و"ريجينا خياط"

ومدام ويصا واصف .. أعجبت رئيسة المؤتمر الأمريكية بعلم مصر الملكية الأخضر فوضعته فى صدارة القاعة بجوار العلم الإيطالى، وفى كلمتها أشادت بوفد مصر وتاريخها وحضارتها ونهضتها الحديثة .. فى القطار العائد بهن من الأسكندرية فكرن فى خلع "البرقع" وفوجىء المستقبلون لهن فى محطة مصر (باب الحديد) بسفورهن ولكنهم لم يستنكروا عملهن، وفى هذا العام أسست هدى هانم الإتحاد النسائى المصرى فى ١٦ مارس بشارع قصر العينى، ولم يقتصر نشاط الإتحاد على قضايا المرأة، بل إمتد ليشمل كل قضايا الوطن.

ارتبطت هدى هانم بصداقة وثيقة مع صفية هانم رئيس شرف لجنة سيدات الوفد وقرينة الزعيم سعد، إلا أنها بقوة شخصيتها وإعتزازها بحريتها وبرأيها، لم تفقد زمام المبادرة فى مواجهة الزعيم وشعبيته الطاغية عقب عودته من المنفى عام ١٩٢٢ واختلفت معه لموافقته على البند الخاص بالسودان خلال المفاوضات مع الإنجليز وثارت فلم يدعها للإحتفال السنوى للوفد "عيد الجهاد" فى ١٣ نوفمبر ١٩٢٢ فقدمت إستقالتها من رئاسة اللجنة .. وأسست على الفور جمعية "الرقى الأدبى للسيدات المصريات" ثم جمعية "المرأة الجديدة" بدعم من الأميرة عين الحياة والأميرة أمنية حليم والأميرة شويكار .. وأثمرت جهودهن عن إنشاء "مبرة محمد على" الباقية إلى يومنا هذا.

قامت هدى هانم بزيارات شخصية إلى عدة دول أوروبية والولايات المتحدة الأمريكية لشرح قضية مصر وحق شعبها فى الإستقلال وتقرير مصيره، وأعدت لها فى عدة عواصم أوروبية وفى نيويورك وواشنطن وديترويت: لقاءات وندوات ومحاضرات .. وشاركت فى مؤتمرات نسائية: امستردام ١٩٢٧، برلين وكوبنهاجن ١٩٢٩، مارسيليا ١٩٣٣ ورأست

وفد مصر فى مؤتمر باريس النسائى فى أغسطس ١٩٣٤ وفيه طالبت بربط حركة تحرير المرأة بحركة تحرير البلاد والشعوب من الإستعمار والفاشية .. وفى مؤتمر استانبول عام ١٩٣٥ انتخبت نائبة لرئيسة الإتحاد النسائى الدولى حتى وفاتها عام ١٩٤٧ ..

إجتمعت وفود ٤٠ دولة فى سراى "يلدز" وكتبت هدى هانم فى مذكراتها: "إن هذه السراى كانت تأوى حريم السلاطين حتى عصر السلطان عبدالحميد، ثم دار الزمن دورته، لتملى النساء على العالم رغباتهم من سراى يلدز نفسها!.. وألقت خطابا بالفرنسية عن ضرورة التعاون من أجل نشر السلام بين الأمم ومواصلة كفاح النساء من أجل المساواة والعدالة والإرتقاء بمكانة المرأة فى كل مكان.

ورأست كالعادة وفد مصر فى مؤتمر بروكسيل ١٩٣٦، وأعدت المؤتمر النسائى الشرقى (نساء البلاد العربية) أكتوبر ١٩٣٨ بالقاهرة، ورأست المؤتمر النسائى الشرقى الثانى فى ديسمبر ١٩٤٤ وفيه أعلن عن تأسيس: الإتحاد النسائى العربى، ورأست وفد مصر فى مؤتمر جنيف ١٩٤٦ ثم مؤتمر نيودلهى ١٩٤٧ قبيل رحيلها عن دنيانا.

حققت هدى هانم الكثير من أهداف الإتحاد النسائى، فتساوت الفتاة مع الفتى فى جميع مراحل التعليم، وبدأت الحكومة فى إرسال بعثات من الفتيات لتلقى التعليم فى أوروبا، بعضهن أرسلن على نفقة هدى هانم!.. وشجعت وساهمت فى إقامة معارض الفنون التشكيلية، بدعم من الأمير يوسف كمال راعى الفنون ومؤسس مدرسة الفنون التطبيقية وبعض أميرات البيت المالك ونخبة المجتمع .. وعقب رحيل الفنان العبقرى "محمود مختار" فى ٢٧ مارس ١٩٣٤ دعت ومجموعة من الصحفيين والفنانين إلى تخليد أعماله وذكراه، وتشكلت أول

جماعة لأصدقاء مختار برئاسة هدى هانم، ضمت فى عضويتها عدد من العلماء والأدباء والفنانين مصريين وأجانب، وفي مبنى ملحق بسراى هدى هانم أعدت معرضا - ٥٩ تمثالا - من روائع مختار، وتحت إشراف الأمير يوسف كمال والفنان راغب عياد وافتتح فى يونيو ١٩٣٥، وبعد حملة صحفية، قررت وزارة المعارف عام ١٩٣٨ إقامة متحف مختار، ضم معظم أعماله ومقتنياته الخاصة.

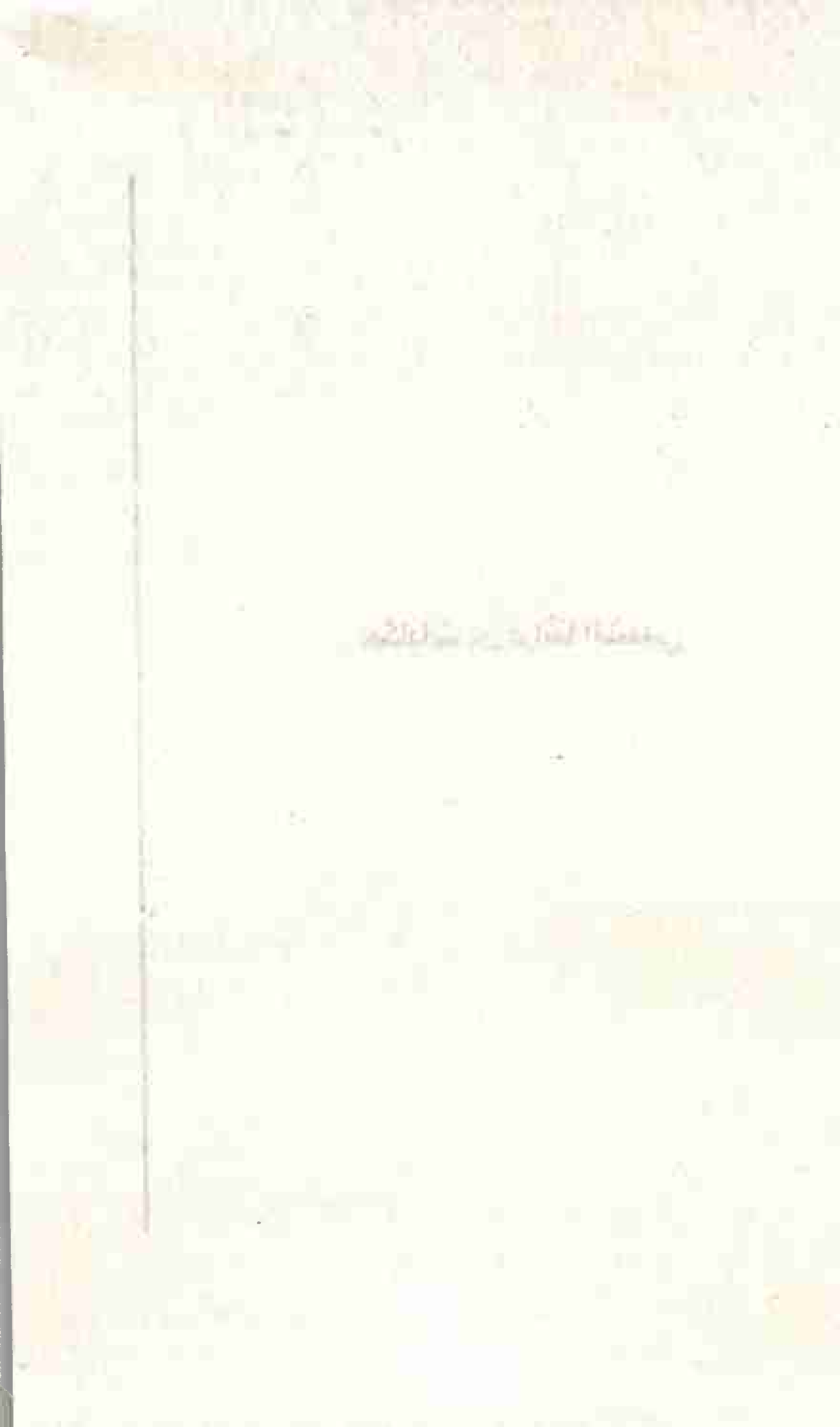
كانت سراى هدى هانم شعراوى على ناصية شارع قصر النيل تطل على ميدان الإسماعيلية "التحرير" شيدت على الطراز الإسلامى، وهو الطابع المميز للقصور التى شيدت فى القاهرة الحديثة، قاهرة الخديو إسماعيل، أؤكد أن هذا الطراز الإسلامى هو الذى كان سائدا (والصور أقوى دليل) قبل أن تسود طرز العمارة الفرنسية والإيطالية فى بدايات القرن العشرين، وعلى الرغم من القيمة الأثرية والمعمارية والتاريخية، إلا أن الوزير عبدالقادر حاتم أمر بهدمه فى بداية الستينات لإقامة فندق!.. وظل الموقع غارقا فى المياة الجوفية لأكثر من ثلاثين سنة، ثم تحول إلى ساحة إنتظار السيارات، إلى أن بدأت أعمال برج إدارى فى ٢٠١٤ فى نفس الموقع!

كان صالون الزعيمة هدى هانم فى تلك السراى .. صالونا نسائيا فريدا ، سياسيا وأدبيا وفنيا ، وكان يعقد فى مساء كل ثلاثاء، كما كان يختلف إليه عدد من أقطاب السياسة والصحافة والأدب، إلى جانب بعض الشخصيات العالمية خلال زيارتهم للقاهرة، وعضوات الإتحاد النسائى الدولى، والعربى، وكتبت "حواء ادريس" ابنة خالها والتى لازمتها فى حياتها وكفاحها :

"كان يؤم صالون هدى هانم كبار الشخصيات والزعماء والأدباء والمفكرون ومنهم: أحمد لطفى السيد، د. مصطفى

عبدالرازق وزير الأوقاف وشيخ الأزهـر، د.محمـد حسين هيكل، أحمد شوقى، خليل مطران، جبرائيـل تقـلا صـاحب الأهرام وانطون الجميل رئيس التحرير العتيـد وغيـرهم ... وكان لهذا الصالون فضل كبير فى تشجيع كثير مـن الأدبـاء والفنانين التشكيليين، ورصدت جائزة للإبداع الأدبى فى القصة والشعر كل عام، خصصت لها لجنة فـى المجمـع اللغـوى الملكى لإختيار الإنتاج الفائز .. وأبرز الشخـصيات النـسائية اللاتى كن يترددن على صالونها: النابغة مى زيادة قبل تأسيس صالونها، استر فهمى، سيزا نبراوى، أسماء فهمى، لبيبة هاشم صاحبة مجلة "فتاة الشرق"، وباحثة البادية ملك حفنى ناصـف وغيرهن من فضليات نساء مصر .." هكذا كانت "هدى هـانم" ابنة الباشا وزوجة الباشا .. قدوة عظيمة لأبناء مصر – رجالا ونساء – فى الجهاد والعطاء بلا حدود .. وسـتظل أسـطورة مصرية خالدة!

حكايات من تراثنا الشعبى



حكاية المحمل المصرى ..!

تتردد فى سمع الزمان كل الحكايات التى لا تنتهى عن واحد من أبرز مشاهد التراث الشعبى المصرى: "المحمل وقافلة الحج" وذكريات رحلة العمر، وكل ما كان يحيط بها من ضجيج عذب محبب فى أيام مشهودة كانت ترتج لها القاهرة .. "دوران المحمل" .. "طلعة المحمل" .. "نزلة المحمل" .. وجموع المودعين تحاول لمس الكسوة الشريفة وكسوة الحجرة النبوية تبركا، ونتنسم عطر الماضى فى ذكريات يختلط فيها الوعى بالمخيلة عن "مصطبة المحمل" و"جمل المحمل" و"شيخ المحمل" و"أمير الحج" .. وأمنيات وأشواق برؤية البيت العتيق وإستلام الحجر الأسعد والشرب من ماء زمزم وزيارة مثوى النبى فى المدينة المنورة.

وقد حظيت "الكسوة الشريفة" بأبلغ اهتمامات الخلفاء والملوك والسلاطين .. حيث كانت تحمل من مراكز القوة سواء من بغداد (الخلافة العباسية) أو من القاهرة (الخلافة الفاطمية/ الدولة الأيوبية/ سلاطين المماليك/ الإمبراطورية العثمانية) وكانت الكسوة تحمل إلي الكعبة المشرفة وسط حفاوة رائعة ومراسيم خاصة بحامل من الخشب يطلق عليه "المحمل" ..

ويذهب بعض المؤرخين إلي أن تاريخ "المحمل" يرجع إلي سنة ٦٤٥هـ، ووصف بأنه "الهودج" الذي أقل ملكة مصر "شجرة الدر" في حجها في ذلك العام، ثم صار يسير – فارغا – سنويا أمام قافلة الحج .. لأن مكان الملوك لا يشغله غيرهم!

ويذهب البعض إلي أن فكرة المحمل أقدم من ذلك، وربما إلي عصر ما قبل الإسلام، فكانت تطلق على الجمل الذي

يحمل الهدايا إلي الكعبة المشرفة، وقد سير خاتم المرسلين – صلى الله عليه وسلم – محملاً إلي مكة بهداياه إلي البيت المعظم .. وما ورد في المصادر التاريخية عن تجهيز ومسارات: المحمل العراقي، المحمل الشامي، المحمل اليمني، ومحمل "سبهان" ابن الرشيد ومحمل ابن دينار .. كذلك كان محمل النظام ملك حيدر أباد بالهند يأتي مكة مع الحاجين من بلاده حاملاً هداياه إلي أهل الحرمين الشريفين.

والمحمل عبارة عن إطار مربع من الخشب هرمي القمة مغطى بستار من الديباج الأحمر أو الأخضر وغالباً ما يزدان بزخارف نباتية وأشرطة كتابية مطرزة بخيوط من الذهب وينتهي من الأسفل بشراشيب وللمحمل أربعة قماقم من الفضة المطلية بالذهب في الزوايا الأربعة ويوضع داخل المحمل مصحفين صغيرين داخل صندوقين من الفضة المذهبة معلقتين في القمة إضافة إلي الكسوة الشريفة، يوضع المحمل على جمل ضخم يسمى (جمل المحامل) ويتمتع هذا الجمل باعفائه من العمل بقية أيام السنة!

وكان للمحمل عشرون جملاً لهذه المأمورية، وكان لها مناخ فى بولاق ابو العلا بجوار ضريح "سيدى سعيد" وكانت الحكومة تشترى مع هذه الجمال "جملا تجعله فداء عنها كل سنة" وقبل خروج قافلة الحج، كان "شيخ الجمل" يركب جمل الفداء هذا يحيط به: العكامة والضوية وامامهم الفرايحية، يحيط بهم حشود الناس، فى موكب يجوب شوارع القاهرة حتى يصل إلى باب ضريح سيدى سعيد، حيث يذبح هناك، ثم يقسم: الربع للمحاملى "شيخ الجمل" والربع الثانى للجمالة، والربع الثالث لسدنة ضريح سيدى سعيد، والربع الاخير لسدنه ضريح الشيخ يونس ..!

صرة المحمل

وأشار مؤرخو مصر الاسلامية الى جملة ما يصرف على المحمل وقافلة الحج: "مائة وعشرون الف دينار" وصلت في بعض السنوات فى عصر دولة سلاطين المماليك إلى: مائتى ألف دينار، شاملة "نفقة الوفد الواصل إلى الحضرة" وتكلفة الحمايات والصدقات وأجرة الجمال والمعاونين وخدم القافلة وحفر الآبار ..

وكانت هذه النفقات تودع فيما عرف ب"صرة المحمل" بمقتضى إشهاد شرعى، وكتب الأميرالاى "إبراهيم باشا رفعت" أمير الحج فى عام ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م "وكانت النقود التى أودعت – صرة المحمل – فى سنة ١٣١٨هـ سلمت لأمين الصرة بمقتضى إشهاد شرعى رسمى عمل بمحضر ناظر (وزير) المالية وأمير الحج – أمين الصرة – وصرافها وصراف من المالية ومندوب من قبل حضرة صاحب الفضيلة قاضى قضاة مصر ... وكان جملة ذلك بالجنية المصرى والمليم:

مليم	جنيه
¼ ٢٦٢	١٨٨٩٣

(لاحظ إثبات الربع مليم!)

والمبالغ المذكورة تشمل مرتبات رجال المحمل جميعهم مدة ثلاثة شهور وهى المدة المقدرة لسفر المحمل ومرتب أمير مكة والمقدر لأشرافها وللعربان ولتكيتى مكة والمدينة وجميع النفقات الأخرى اللازمة من أجرة الجمال وثمن علف الدواب ... الخ"!

وأورد "محمد لبيب البتنونى" كشفاً ببيان "ما يصرف من المالية سنوياً فى تسفير المحمل والمرتبات الجارى صرفها فى مكة المكرمة والمدينة المنورة حسب الوارد فى ميزانية

سنة ١٩٠٧" على النحو التالي:

جنيه مصري	
١٢٨٢	مرتبا وتعيينات لأمير الحاج ومستخدمي المحمل
٢٥١١	العربان
١٤٩٣	الأشراف بمكة والمدينة المنورة
١٩٦١	تكية مكة
١٦٥٧	تكية المدينة المنورة
٢٨٧٩	أهالى مكة والمدينة
٣٠٠٠	لمكة والمدينة تصرف من أوقاف الحرمين والأوقاف الخصوصية والأهلية ومن الخاصة الخديوية والمالية.
٢٢٥٠٠	ثمن ومصاريف قمح الصدقة بمكة والمدينة
١٦٢٩	شمع وقناديل للحرمين الشريفين
١٥٥	خيام وقرب وخلافها
٤٢٤٨	أجرة منقولات برا وبحرا وأجر جمال
٦٤٢٠	قيمة مخصصات الحرمين من الزيوت والحصر وخلافه من ديوان الأوقاف
٢٦٥	مصروفات نثرية
٥٠،٠٠٠	مجموع المنصرف سنويا ..!

المحمل المصرى فى عصر سلاطين المماليك

كان موسم الحج فى عصر سلاطين المماليك - خاصة - بمثابة تأكيد لزعامة مصر على العالم الإسلامي، فقد كانت قافلة الحج المصرى أضخم قافلة للحج وأوفرها نظاماً وحماية وأعظمها ثراء وأبهة، وكثيراً ما كان سلطان مصر يخرج

على رأس ركب الحج، فينشر هيبة دولتة، وحسب مصر فى عزها القديم أن كثيرا من ملوك العالم الأسلامى كانوا يستأذنون سلطان مصر قبل أن يخرجوا من بلادهم للحج ليكونوا فى حمايته! .. كما فرضت طبيعة موقع مصر أن تكون مركزاً لجمع نسبة ضخمة من حجاج العالم الأسلامى، خاصة شمال وغرب أفريقيا وجزر البحر المتوسط، كما كان يقصدها حجاج بلاد الشام وتركيا والقوقاز فىالسنوات التى لا يخرج فيها المحمل الشامى.

وللمحمل المصرى ذكريات وأيام مشهورة فى تاريخ القاهرة، حفظتها أقلام المؤرخون والرحالة المسلمون والأجانب .. وكان يضم ستائر الكسوة الشريفة الجديدة، ثمانية أحمال أو ستائر من الحرير الأسود الفاخر المخيط بالحرير الأبيض المفتول والمخيش الفضى الملبس بالذهب البندقى، بالاضافة إلى كردشيات (جامات) الكسوة، وستارة باب الكعبة (البرقع) وتتكون من: العتبة والطراز والقائم الصغير والقائم الكبير والوصلة، ثم كسوة مقام ابراهيم عليه السلام، وسستارة باب مقصورة ابراهيم عليه السلام، وستارة باب التوبة، وستارة باب منبر الحرم المكى ثم كيس مفتاح الكعبة المشرفة، بالاضافة إلى كسوة الحجرة النبوية الشريفة وستارة المنبر النبوى.

فى أحداث سنة ٩١٨هـ، أشار المؤرخ العظيم "إبن إياس" إلى أنه فى الرابع عشر من شهر شوال "جلس السلطان بميدان القلعة وعرضوا عليه كسوة الكعبة الشريفة والبرقع ومقام ابراهيم عليه السلام والمحمل وشقوا بهم من القاهرة وكان لهم يوم مشهود، وفى ثامن عشرة خرج الحاج من القاهرة وصحبتهم المحمل الشريف .. ".

حفل تنصيب أمير الحج المصرى

كان اختيار أمير الحج يتم بعناية فائقة من بين الشخصيات التي اشتهرت بالتقوى والصلاح، وعرف عنها القوة والشجاعة، والقدرة على حسن التصرف ..

وفي ليلة الاحتفال بالمولد النبوي .. كان السلطان يجتمع بالدوادار الكبير والقضاة الأربعة والعلماء والأمراء من كبار رجال الدولة .. في "الحوش السلطاني" بالقلعة .. وكان "يوما مشهودا" .. يبدأ بتلاوة القرآن و"ختم البخاري" وقصائد وابتهالات في مولد النبي .. ويمد "سماط حافل" .. وتقدم المشروبات المحلاة بالسكر وماء الورد وعصير اللوز إلي السلطان وضيوفه .. فكان السلطان يشرب بعضا من قدح شرابه، محتفظا بالباقي إلي من اختاره ليكون أميرا للحج .. وعند تقديم القدح للأمير المختار .. يتقدم من فوره لتقبيل يد السلطان، ويقوم شهود الحفل جميعهم بتقديم التهنئة إلي أمير الحج، ويقدم إليه السلطان "الخلعة" زي التشريفة، كما يخلع على الحاضرين الخلع ويفرق الصرر!.. وينزل أمير الحج من القلعة في موكب حافل يشق شوارع القاهرة حيث يبدأ على الفور الإعداد للرحلة المقدسة، وترتيب موظفي الهيئات الإدارية والقضائية والمالية والعسكرية والخدمات المعاونة.

فى عصر الامبراطورية العثمانية

وكان أبرز ما يميز الاحتفال بدوران المحمل فى العصر العثمانى كما أشار الرحالة الورثيلانى: "خروج العوام والنساء، حيث تنطلق الزغاريت من الطيقان، والناس مشرفون من الديار والمساجد التى تلى الشوارع، وتعطل فيها الأسواق فى ذلك اليوم" .. وسمى الورثيلانى دوران المحمل: "الخروج الأول"! فكتب: "يخرج المحمل الخروج الأول فيؤتى به من

دار الصنعة فتضرب سجافة على باب القلعة فتخرج الصناجق كلها والأمراء والولاة والحكام والقاضى، كل مع أتباعه، ولكل مجلس عموم فى السجافة المضروبة، ومجلس الباشا فى الوسط .." ثم يتوجه الجميع راكبين خيولهم فى حراسة طائفة من العسكر إلى ميدان الرميلة (القلعة) .. "فإذا جلس الباشا جىء بالجمل الذى يحمل المحمل، ويبدو على هذا الجمل حسن الطلعة!.. والكسوة من الديباج المخوص بالذهب، ورأس الجمل ورقبته وسائر أعضائه محلاة بجواهر منظمة أبلغ نظم .." وعندما تعرض قطع الكسوة بين يدى الباشا والأمراء "يقومون لها إذا مرت تعظيما لها" ثم يمرون بها فى الشوارع والأسواق، بينما تتدافع حشود الناس لمحاولة لمسها والتبرك بها، حتى تصل إلى مسجد مولانا الإمام الحسين.

وقد أشار مؤرخنا "الجبرتي" إلي ذلك الاحتفال المشهود الذي كان يعقد عند "إتمام عمل الكسوة "بحضور الباشا أو نائبه، فيسيرون بها في موكب عظيم يشقون به من القلعة إلي مسجد مولانا الإمام الحسين، إلي أن يحين موعد خروج المحمل وقافلة الحجيج إلي مكة .. وعندما تحدث علي باشا مبارك في خططه عن "المشهد الحسيني" قال: ".. وفي شهر شوال تحمل إليه كسوة الكعبة الشريفة بموكب، فتخاط فيه، وتحمل منه بموكب إلي غير ذلك من العوائد الجليلة "! ..

"دوران المحمل" فى عهد الأسرة العلوية

كان يحتفل بـ "دوران المحمل" عادة فى شهر رجب، وكان الغرض من تدوير المحمل هو إعلام من يرغب بالحج للتأهب والاستعداد لرحلة العمر، وإعلام الناس عامة أن طريق الحج آمن.

وكانت نظارة (وزارة) الداخلية ترسل الى نظارة المالية:

إشعارا بتعيين أمير الحج وأمين الصرة، ثم ترسل المالية إلى كلاهما خطابا محدد فيه واجباتهما وكشف بعسدد المسوظفين والأطباء والعكامة والمشاعلية وغيرهم من الضباط والجنسود والخدم وعدد الخيام والجمال وسائر المستلزمات.

وكتقليد متبع فى كل عام، وبالتحديد فى شهر ذى القعسدة، كانت نظارة الداخلية ونظارة المالية يتفقان على اليسوم المحسدد لنقل الكسوة من: دار الكسوة الشريفة (مصلحة الكسوة/ ورشسة الخرنفس) التى أمر ببنائها محمد على باشا عام ١٢٣٢هـ بحارة النصارى المعروفة بخميس العدس .. إلى مسجد الامام الحسين - رضى الله عنه - ويصدق الخديو على تعيين ذلسك اليسوم، ويصدر الأمر من رئيس مجلس النظسار بتعطيسل السدواوين والمصالح الحكومية، وينشر ذلك فى الجريدة الرسمية، وتخطر نظارة الداخلية نظارة الحربية ومحافظة العاصمة ليكون الجميع ضباطا وجنود على أهبة الاستعداد، كما تقوم المحافظة بإرسال الدعوات إلى العلماء وكبار رجال الدولة لحسضور الاحتفسال، الذى يبدأ غالبا فى الساعة التاسعة صباحا .

قبل أن يحين الموعد بنحو الساعة، وفى ميسدان القلعسة تجاه "مصطبة المحمل" تصطف الجنود حاملين أسلحتهم، ويبدأ توافد المدعوين فيستقبلهم وكيل المحافظة ومندوبوها، ويجلس العلماء فى الميمنة، خلفهم المندوب العثمانى والنظار والأمراء والأميرات وكبار الأعيان والتجار .. وفى الميسرة يجلس كبار موظفى الديوان الخديوى، خلفهم قادة الجيش والجميع بملابس التشريفة فى إنتظار "الجناب العالى" الذى يحضر فسى عربسة يجرها أربعة جياد، وبجواره رئيس النظار، ثم عربات كبسار رجال الياوران والمعية، يحيط بسالجميع ١٤٨ مسن فرسسان الحرس الخديوى، وتؤدى للخديو مراسم الاسستقبال الرسسمى باطلاق ٢١ طلقة مدفعية ثم السلام الخديوى، وبعد أن يحيسى

الجميع يجلس فى مكانه المخصص وبعدها يأخذ "مأمور تشغيل الكسوة" بزمام جمل المحمل ويدور به ثلاث مرات ثم يتوجه نحو الخديو الذى ينزل إلى أول درجة من المصطبة، فيتقدم إليه مأمور الكسوة بكيس "مفتاح الكعبة" مبسوطا على كفيه، فيتناوله سموه ويقبله ثم يتلوه قاضى القضاة، ثم يتلى "دعاء المحمل" وتقدم الهدايا إلى أربابها، ثم يعتلى أمير الحج جواده وخلفه المحمل وتعرض قطع الكسوة على المشاهدين فى حراسة "أورطة" من الجنود، ويستعرض الخديو قوات رمزية من الجيش ومن سلاح الفرسان وحامية ركب الحج المصرى .. وعقب انتهاء الحفل، بدور ركب المحمل بشارع محمد على ثم شارع سوق السلاح فالدرب الأحمر إلى باب زويله ثم الغورية فالسكة الجديدة حتى يتخذ طريقه إلى المشهد الحسينى، حيث أمير الحج وأمين الصرة فى إستقبال الكسوة وعقب دخولها يزوران مع السدنة ضريح مولانا الامام الحسين .. وفى موعد محدد بالمسجد الحسينى وبحضور ناظر المالية وقاضى القضاة وأمير الحج وأمين الصرة: يحرر "إشهاد" شرعى بتسليم الكسوة، ثم توضع فى صناديق مخصصه لذلك، وأيضا إشهاد شرعى بتسليم الصرة ولكن فى مكتب معالى ناظر المالية!

"طلعة المحمل"

رافق "محمد لبيب البتنونى" صاحب "الرحلة الحجازية": الجناب العالى الخديو عباس باشا حلمى الثانى، فى رحلته "لأداء فريضة الحج وزيارة الروضة الطاهرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام" وبدأت هذه الرحلة المباركة فى صباح يوم ٢٩ ذى القعدة سنة ١٣٢٧هـ .. وكتب عن خروج المحمل أو "طلعة المحمل" كما كان شائعا على ألسنة عامة

الناس: "ويعمل للمحمل يوم خروجه من مصر احتفال كبير من أيام الدولة الأيوبية، وهذا الاحتفال الآن له يوم مشهود بالقاهرة تمشى فيه الجنود الراكبة والبيادة وحرس المحمل وركبه وخدمته من ضوية وعكامة يتقدمهم أمير الحج الذى يعينه الجناب العالى الخديوى سنويا ، وهو من الباشوات العسكريين فى الغالب، وبعد أن يدور المحمل دورته المعتادة فى ميدان القلعة يمر على المصطبة، وهى المكان المعد لجلوس الجناب العالى الخديوى يوم هذا الاحتفال ومعه رجال حكومته السنية من الوزراء الفخام والعلماء الإعلام وكبار وذوات العاصمة، وهنالك يأتى حضرة مأمور الكسوة الشريفة وبيده زمام جمل المحمل فيستلمه الجناب العالى منه ويسلمه إلى أمير الحاج، وعندها تضرب المدافع ويسير الموكب تتقدمه أشاير السادة الصوفية ثم الجنود ثم جمل المحمل يتقدمه أمير الحاج ويتلوه المحاملى والجمالة ثم الفرايحية (الطبالون) على جمالهم، ويستمر هذا الموكب سائرا إلى المحجر فالدرب الأحمر ويمر من بوابة المؤيد فالغورية فالنحاسين فباب النصر فالعباسية. وهنالك يتفرق الموكب وينزل ركب المحمل إلى خيامهم التى ضربت لهم فى فضاء العباسية، وينصب المحمل فى وسط ساحتها ليزوره من يريد التبرك به حتى إذا كان يوم السفر إلى السويس نقلوه مع أدواتهم وذخائرهم إلى وابور المحمل الذى يكون مهيأ فى محطة العباسية، وبعد الشحن يسير إلى السويس ومنها يبحر إلى جدة، ثم يقصد مكة برا ".

الاحتفال فى مكة مكرمة والمدينة المنورة

فى يوم وصول المحمل وقافلة الحج المصرى، يخرج شريف مكة إلى لقاءها، فى موكب من الأمراء وإمام وعلماء وخطباء الحرم المكى وشيوخ قبائل العربان، فيتقدم الجميع إلى

أمير الحج المصرى بالتحية والتعظيم، وتطلـق المدفعيـة ٢١ طلقة بينما يصطف جنود البيادة لأداء واجب السلام .. وفـى اليوم التالى، يقام إحتفال مـشهود بغـسل الكعبـة المعظمـة وإلباسها كسوتها الجديدة.

وعند وصول المحمل المصرى إلـى المدينـة المنـورة يدخلها باحتفال رائع من "باب العنبرية" حيث يطلق له واحـد وعشرون طلقة مدفعية، حتى إذا وصل الركب إلـى "البـاب المصرى" ترجل الجميع إجلالا لمقام رسول الله - صـلى الله عليه وسلم - ويكون فى إستقبال القافلة: والى المدينة وشـيخ الحرم النبوى ونقيب الأشراف وأعيان المدينة .. فاذا وصـلوا إلى "باب السلام" تقدم شيخ الحرم واستلم زمام الجمل وأصعده على سلم الباب ثم أناخه على تلك الصدفة الواسـعة، ويرفـع المحمل حتى يوضع فى مكانه غربى المنبر الشريف وترفـع كسوته المزركشة ويلبسونه الكسوة الخضراء، ثم يرتدى أمير الحج المصرى وكبار المستخدمين لباس الخدمة فى الحجـرة الشريفة، ثم يحملون الكسوة الجديدة بكل إجـلال ويـدخلونها الحجرة الشريفة من الباب الشامى، فى جانـب مـن روضـة السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها.

نزلة المحمل

وعند عودة المحمل وقافلة الحج إلى مصر، كان يحتفـل بقدومه رسميا وشعبيا بحضور السلطان أو الوالى أو الجناب العالى، وعند وصول الموكب إلى "مصطبة المحملط بميـدان القلعة، يستلم الحاكم زمام جمل المحمل من أميـر الحـج ثـم يسلمه إلى "حضرة مأمور تشغيل الكسوة" وعندها تنطلق مدافع القلعة ..

وحتى عصر مصر الملكية كانت نزلة المحمـل: "يـوم

ترتج له أطراف القاهرة، والزينات الخصوصية في أبهى مظاهرها" وكانوا "يبلون السكر بماء الورد في أحواض كبيرة يشرب منها الغادون والرائحون مدة ثلاثة أيام" .. وعقب الإنتهاء من الإحتفال، تحفظ الكسوة القديمة في مخزن تابع للمالية، أما الكسوة الخضراء فيكسى بها سنويا بعد العودة: ضريح يونس السعدى في باب النصر "وكانت له مدة حياته خدمة في سفرية المحمل".

جداريات الحج .. توثيق شعبى لرحلة العمر

جداريات الحج .. هى تسجيل لرحلة روحية مقدسة، عبر الزمان والمكان، وهى من أكثر دلالات التعبير الفطرى فى الإبداع الفنى الشعبى، وهذه الجداريات المتعلقة بفريضة الحج تنتشر فى كثير من البلاد العربية، لها نفس الرموز، وتتشابه فى العناصر والوحدات الزخرفية، ويعود هذا – بطبيعة الحال – لوحدة الموضوع وهدفه وشعاره بين المسلمين.

وتتميز جداريات الحج فى مصر بالخصوصية، فهذه الجداريات تسجل لحظات مهمة من حياة الإنسان .. تقاليد تضرب بجذورها إلى عصور سحيقة، حيث تزخر جدران المعابد والمقابر بمدونات ورسومات ونقوش رائعة تسجل جوانب من تاريخ مصر القديمة .. من إنتصارات حربية وإحتفالات قومية وتفاصيل من الحياة اليومية.

الرمز فى التصوير الشعبى

يعتبر الرمز من أهم عناصر الرسم الشعبى، إنه موجود فى معنى ومضمون وموضوع اللوحة، فنادرا ما نرى عملا تشكيليا شعبيا إلا والرمز يمثل قيمته، ويقربه من ذوق العامة.

إنه من الناحية الفنية لغة تشكيلية يستخدمها الفنان للتعبير عن أحاسيسه وإنفعالاته نحو كل ما يهز مشاعره من أفكار ومعتقدات، وكلما تعرفنا على تلك اللغة وأجدنا تفسيرها، أصبحنا أكثر قدرة على فهم ودراسة الفنون الشعبية.

إنه الوحدة الفنية التى يختارها الرسام من محيطه لكى يزين بها إنتاجه الفنى، ويكسبه طابعا خاصا ، بشرط أن يكون الرمز محملا بقيم المجتمع الثقافية والفكرية والدينية.

والمسلمون والعرب أعطوا الرموز أهمية كبرى، وإعتنوا

بها عناية دقيقة، لكونها تتصل بحياتهم التأملية أحيانا أخرى، فهم أولوا الرؤى والإشارات والأحلام تأويلا رمزيا، وإستمدوا تفسيراتهم لها من القرآن الكريم.

فالرموز واضحة فى كل مكان. فى أية مدينة إسلامية، ويتم تخطيط الحياة فيها بالطريق الرمزى. إبتداء من نداء المؤذن وإنتهاء بالشوارع التى تغص بالناس أيام الجمعة، والأماكن المقدسة، والجوامع.

حتى الكتابة والزخرفة العربية أيضا هى رمزية، بما تحمل من معانى العبادة، ففى مثل هذه اللوحة نرى أن عملية تصوير الكعبة والبراق والحج والمساجد والأئمة ليست هى غاية بحد ذاتها، بل إن الهدف هو تمجيد ما تمثله هذه الصور من إيمان بالله الواحد، ورسوله، وكتابه، وملائكته، واليوم الآخر.

أى إن هذه الرسوم تحولت فى المفهوم الشعبى إلى رموز دينية مقدسة، تعلق فى المنازل والمساجد ..

أجدادنا تعاملوا مع هذه الصور، على أنها مقدسة لا تدنس أبدا ، فكانوا يقبلونها ويحفظونها فى أماكن طاهرة، كى يكسبوا رضى الله عز وجل .

وإذا إستعرضنا بعض الرموز، فسنجد أن النخيل فى التصوير الشعبى رمز قديم يدل على الإنتاج والوفرة، رسمه الفنان من جذع بسيط وبعض الوريقات، إنه إختصار لمعان قديمة، ومعتقدات شعبية تدل على أن هذا الرمز يعنى الإزدهار والخصب، فاستخدمه الرسام فى أعماله بذات المعنى، وقيمة النخيل فى الوسط الشعبى ليست نابعة من فراغ، إنما لها خلفية دينية وجذور تاريخية قديمة.

ففى الإسلام ذكر النخيل ٢٠ مرة فى القرآن الكريم، والمعجزة القرآنية فى سورة "مريم" أعطت للنخلة إحتراما

بالغا عند المسلمين والعرب، وأصبحت رمزا شائعا ، كيف لا والخالق خصها بكل هذا التقدير ..

و"العصفور الأخضر" الذي نراه فى الرسوم الشعبية، والذى يعتبره الناس فألا حسنا ، إنما يرجع إلى أسطورة تعتبر مرجعا للأساطير القديمة.

و"الحمامة وغصن الزيتون" رمز السلام، وأقدم ذكر للحمامة يعود إلى قصة الطوفان، عندما أرسل نوح الغراب للبحث عن بر الأمان، ولكنه طار ولم يعد، ثم أرسل الحمامة فعادت تحمل فى منقارها غصن زيتون، عندئذ أدرك نوح أن الماء قد إنحسر وأن شاطىء السلام بات قريبا .

و "الطاووس" المستوحى من الفنون الهندية، إستخدم فى المنسوجات الإسلامية، رمز يدل على السعادة، لهذا رسم بين الزهور ولون بألوان زاهية، وكتب إلى جانبه: (السعد القايم والعز الدايم)، وعلق فى غرف العرسان!

و "الهلال" رمز إسلامى كثيرا ما ظهر فى الصور الدينية، وهو يدل على التفاؤل، فالمسلمون يتفاءلون بهلال أول الشهر، (ويحددون مناسباتهم الدينية على ولادة الهلال)، وتقويمهم الهجرى مقسم على أساس السنة القمرية.

الفنان الشعبى إستوحى هذين الرمزين فى لوحاته، ووضعهما فى أعالى المآذن، وتجدر الإشارة إلى أن الهلال والنجمة موجودان فى الرايات الرسمية لبعض الدول الإسلامية، كعلم تونس الوطنى، وكذلك الجزائر وموريتانيا ..

إضافة لهذه الأشكال الرمزية، ظهرت نماذج أخرى فى الرسوم الشعبية، كان لها أكثر من معنى ومدلول!

فقد إهتم الرسام الشعبى بالوسيلة التى كلفت بحمل الرسول محمد صلى الله عليه وسلم على ظهرها من مكة إلى القدس ليلة المعراج، حيث قال تعالى فى سورة الإسراء:

{سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى} .

ورغم أن الآية لم تأت على وصف أو تسمية لتلك الوسيلة، فإن ثمة إتفاقا قد أجمع عليه من تناولها بالبحث، أو سعى إلى تصويرها، لا تخرج بها عن كونها دابة، أول ما يستوحيها رأس إنسان كرمز للتفكير وعلو الشأن بين الكائنات الحية، وجسد حيوان قوى يدفع بخطاه إلى أقاصى أطرافه، وجناح طائر تعبيرا عن سرعة الحركة والتنقل. هذه الدابة هى "البراق" ..

هذا الوصف للبراق نسجه الخيال الشعبى صورا متشابهة فى البلاد العربية، فكانت رسوما لفرس أبيض له وجه آدمى عليه تاج كرمز للسمو والرفعة والفكر، وله جناح طاووس ملون بأبهى الألوان، (والطاووس ملك الطيور، والفرس أجمل الحيوانات)، هذا الإيجاز لرسم البراق وشمل العناصر الرفيعة من كل فصيلة من المخلوقات، (البشر والحيوان والطير) كدليل على أهمية البراق بالنسبة للوجدان الشعبى.

الدابة ظهرت فى اللوحات تطير بين المسجدين الحرام والأقصى، ورسمت أيضا الكعبة الشريفة باللون الأسود، كتب فوقها "بسم الله الرحمن الرحيم" وتحتها {سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى}، وفى أسفل اللوحة إلى جانب صورة المئذنة كتب "البراق النبوى الشريف"!

ومثلما إهتم الفنان الشعبى برسم "الحصان" و"الفارس" فقد إهتم أيضاً برسم الإبل، ويعود هذا الإهتمام للقيمة الكبيرة التى يحتلها هذا الحيوان يشرب لبنها فى حالة ندرة الماء، ويأكل لحمه ويشيد من جلده الخيمة، ويرى البعض أن الجمل كان من

العوامل الرئيسية التى سهلت الفتوح العربية والإسلامية، نظرا لصبره على التعب والعطش، لهذا لقبوه بـ(الصابر) و(سفينة الصحراء).

أما فى الأمثال الشعبية العربية فنرى أن رمز الجمل إقترن باسم الرجل الصبور الذى يتحمل المشقات والتعب، فالناس يصفونه ب(جمل المحامل)، والمرأة تشبه زوجها بالجمل فتناديه (يا جملى) أى يا من يساعدنى على الشدة والمصاعب!

هذه المنزلة الرفيعة للجمل عززت مكانته عند الرسام الشعبى، فصوره فى لوحات متنوعة وفى أوضاع متعددة. ونلاحظ أنه إرتبط بمسألتين :

الأولى: مشاركته فى مراسم الحج حاملاً على ظهره المحمل.

الثانية: مشاركته فى مراسم الزواج حاملا على ظهره الهودج والعروس.

فى مصر

وترتكز روائع "جداريات الحج" فى مصر فى النوبة والصعيد والواحات، ويرجع معظمها إلى القرن الثامن عشر، هى غنية بالعناصر الفنية كالنخيل، والسفن والجمال، والأسود، أما تلك التى يعود تاريخها إلى أواسط هذا القرن، ورسمت على الجدران، فكانت عبارة عن أشكال نباتية، وصور لمساجد ومآذن وكتابات ترحيبية بالحجاج، ووسائل نقلهم، ومكة المكرمة، والمدينة المنورة، والطائرات والطيور، والخيل والكف، والرموز العربية والفرعونية، والزهور، والمسجدين: الحرام والنبوى، ويقوم برسم هذه المصورات الجدرانية أصدقاء الحجاج، أو رسامون فطريون يصورون لقاء أجر.

الكتابات والزخارف

أما بالنسبة للكتابات التى ترافق الرسوم، فيمكن أن نقسمها إلى ثلاث مجموعات: آيات قرآنية وأحاديث نبوية - أقوال دينية - كلمات ترحيبية. ومثال لذلك: البسملة "بسم الله الرحمن الرحيم"، ترد فى مستهل كل سورة قرآنية. "ولله على الناس حج البيت من إستطاع إليه سبيلا" آل عمران ٩٧ ". "وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق" الحج ٢٧ ".

- "من زار قبرى وجبت له شفاعتى" حديث نبوى شريف.
- "الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة" حديث نبوى.
- "شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله" من أصول الدين الإسلامى.
- "حج البيت من إستطاع إليه سبيلا" من أصول الدين الإسلامى.
- "صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده" قول دينى.
- "حج مبرور، وذنب مغفور، وسعى مشكور" قول دينى.
- "هذا من فضل ربى .. ألف مبروك يا حاج .. أهلا وسهلا بالحاج، الحمد لله عالسلامة .. إلى ما هنالك من كلمات ترحيبية. ..".
- إضافة للتكبير "الله أكبر" ودعوة الخالق "يارب .. يا الله ...".

ومن أهم الرسوم المتعلقة بالحج صورتا الكعبة، والمحمل، فالأولى رسمت على شكل مربع أسود، تحيط بها المساجد والحجاج، مزينة بالزخارف والآيات القرآنية. والثانية رسم على شكل مستطيل وهرمى، محمولا على ظهر جمل، ترافقه البيارق والسناجق، مزخرفا بالألوان والأشكال، ومزينا

بالكتابات الجميلة مثل "ما شاء الله"، "يا حافظ"، "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين".

زخارف مشتركة مع كتابات عربية، تؤلف فيما بينها عملا تشكيليا موحدا ، هذا الأسلوب فى المزج بين الزخارف والكتابات، أمر كان معروفا فى الفن الإسلامى، فبين الخط العربى والزخرفة علاقة حميمة، فهما بنيا على أساس فلسفى وأيديولوجى واحد، وإنطلقا من نفس الأسس الجمالية التى إرتكز عليها الفن التجريدى الإسلامى.

والكتابة الشعبية، هى التى نشاهدها فى اللوحات الدينية والشعبية، وعلى عربات الباعة، والجدران فى مواسم الحج، وتكون عادة أحاديث وأقوالا دينية وعبارات وأمثالا شعبية.

الكتابة فى الرسم الشعبى، عنصر أساسى من عناصره التشكيلية، فقلما نجد لوحة فى الوطن العربى لا تكون الكتابة حاضرة فيها بكل أنواعها، ومعانيها، والسبب أن الرسام حينما يسجل رموزه، فكأنما يتحدث من خلالها، وحينما يكتب فكأنه يرسم، أى أنه لا يفصل فى الشكل بين الرموز والكتابة، إنه يجمع بينهما حرصا منه على وضوح عمله.

لقد إهتم الفنان الشعبى بالكتابة والخط، لأنه جزء من تلك الحالة الإسلامية والعربية التى إهتمت بالخط العربى، وأدخلته ضمن عناصر فنونها الزخرفية.

الفنان الشعبى جزء من هذه الأمة المسلمة التى توازى بين الحبر ودم الشهداء والتى تعتبر أن الخط تطور لأجل القرآن، فهذا بشر فارس يقول "ذاع القرآن فإنتشر الخط".

إذن الخط العربى عند المسلمين هو فى ذروة الشرف والتقدير، لأنه لغة القرآن، ولأن الله أقسم به {والقلم وما يسطرون} وفى الأثر أول الخلق القلم، ولأن الإمام عليا خليفة

المسلمين قال فيه: "الخط الحسن يزيد الحق وضوحا".

إدوارد لين "ونزلة المحمل"!

المستشرق البريطانى الأشهر "إدوارد لين" والذى إكتسب معرفة أكبر بالمصريين ونظرة أعمق وأشمل عن تقاليدهم المتوارثة وتفاصيل حياتهم اليومية، خلال عودته الثانية إلى القاهرة فى الفترة ١٨٣٣ - ١٨٣٥م، وتزيا بالزى الشرقى وإختلط بالمسلمين فى المساجد والأسواق والحارات.. وبعد أن تحدث عن "المحمل" ومراسم إستقباله فيما كان يعرف ب"نزلة المحمل" .. قال: " ... ويزين المصريون مدخل منزل العائد من الحج قبل نحو ثلاثة أيام من وصوله: فيلونون الباب والحجارة باللونين الأحمر والأبيض، وإن كانت الحجارة من الآجر فتزين بالطريقة عينها بخطوط أفقية عريضة من اللونين الأحمر والأبيض، ويصبغون أحيانا الأشجار والجمال باللون الأخضر أو الأسود أو الأحمر أو غيرها من الألوان بطريقة بدائية، وقد يوجه الحاج كتابا مسبقا إلى ذويه يطلب منهم إعداد مثل هذه الترتيبات، ويقيم الحاج فى الليلة التالية لوصوله حفلة لأصدقائه تعرف "بحفلة النزلة"، ويتدفق الضيوف عليه مهنئين مرحبين بعودته ويقولون له: "صل ليغفر لى"، ويبقى فى منزله عادة أسبوعا كاملا بعد عودته، ويقيم فى اليوم السابع حفلة أخرى لأصحابه تعرف "بحفلة السبوع"، وتستمر هذه الحفلة طوال النهار والليلة التالية، وتنتهى بختمة أو ذكر فى المساء"!

فهذه الجداريات الجميلة يرسمها فنانون شعبيون فى مهارة فطرية إبداعية، وقد يتطوع بالرسم والزخرفة أحد أقارب الحاج أو من أصدقائه ..

آن باركر .. وتجربتها فى مصر

فى عام ١٩٩٥م، قامت الأمريكية "آن باركر Ann Parker" بالتسجيل الفوتوغرافى لجداريات الحج بالإشتراك مع زوجها "آفون نيل" فى كتاب بعنوان "Hajj Painting".

وتفسر آن باركر إنبهارها الشديد برسومات الحج فى مصر، إلى ما تحمله تلك الرسومات من مهارة إبداعية، وتنوع جميل سواء أكان ذلك فى المجتمعات الريفية على ضفاف النيل أم فى الدلتا أو على شاطىء البحر الأحمر أم فى داخل سيناء "لقد شد إنتباهى أول الأمر منظر منزل رأيته عبر نافذة القطار السريع فى أثناء سفرى من القاهرة إلى أسوان، فقد أثار هذا المنظر إعجابى الشديد بهذا الفن البسيط .. وحينما عرفت الدافع القوى خلف هذه الرسومات، لم أستطع مقاومة طموحى فى أن أقدم للعالم الخارجى ما إعتقدته فى قوة تعبير هذه الرسومات، ذات الطابع غير العادى والتاريخى، علاوة على قدم هذا الفن الشعبى".

ورسومات الحج هذه - كما يطلق عليها - هى فى الواقع محاولة لتذكر الحج نفسه.

وتشرح آن باركر تجربتها التى عاشتها: "لقد إتسع مجال بحثى عن هذا الفن فصورت فيلما بعد فيلم، ووجدت مادة غنية تفوق كل توقعاتى، إن تسجيل تقاليد شعبية حية، هو فى حد ذاته أمر مثير وبخاصة كلما إزداد الإنسان فهما لموضوعه، وتعمقا فى تتبع ذلك، وبخاصة أن هذا الفن هو إبداع مستمر.

ففى كل مرة أعود فيها إلى مصر أجد رسومات جديدة رسمها فنانون مجهولون وعاديون".

وتستمر فى سرد تجربتها وملاحظاتها فتقول: لقد لاحظت

عبر السنين فنانين غير مدربين وكيف طوروا أسلوبهم الشخصى، مع كل موسم من مواسم الحج. وتقول آن باركر بكل مشاعر المودة والصدق. "إننى كلما غادرت مصر إشتد بى الحنين إلى العودة إليها وأن أعيش تجاربى مرة بعد مرة .. رؤيتى لهذه الأعمال الفنية هى: بالنسبة لى أكثر متع حياتى كمصورة فوتوغرافية، ومع كل رحلة تتضاعف مواد أرشيفى من هذه الأرض المثيرة للإهتمام"!

بل تذكر أنها كلما راجعت ملفاتها، ملفا بعد ملف، بما تحتوى هذه الملفات من شرائح ملونة، تبين لها بوضوح أكثر من قبل، أن رسومات الحج التلقائية تحتوى ليس فقط على فن شعبى دينى، بل على فن تقليدى، كامل الإزدهار. "إن كثيرا من ذكريات حياتى ترتبط بشكل خاص عن الأشياء غير العادية فى الفن الشعبى والعمارة، وإهتمامى الخاص يكون فى تسجيل كيف يعبر الفنانون البسطاء عن مجريات الحياة، وعلى الرغم من إعجابى الشديد بالفن الكلاسيكي والعمارة، إلا أنني أهتم بشدة باغتنام الإبداعات الأقل صقلاً والأكثر تلقائية، إننى أشعر بسعادة أكبر حينما أسجل تعبيرات الفنانين البسطاء"!

وبعض هؤلاء الفنانين يقومون به متطوعين، ويبدأون عملهم بدهان واجهة البيت أو الحائط الذى سيرسمون عليه ثم ينتظرون حتى يجف الدهان.

وقد يعد بعضهم رسما تحضيريا قبل أن يبدأ فى رسم الواجهة، وعادة يستخدمون سلما للصعود عليه لرسم أعلى اللوحة على واجهة البيت، وقد تختلف عناصر الرسم، ولكنها كلها تعبر عن موضوع رحلة الحج، سواء فى رسم وسائل الإنتقال أو زيارة الكعبة ومسجد الرسول، عليه الصلاة والسلام، فى المدينة المنورة.

وبعض هؤلاء الفنانين يميل أحيانا إلى الجانب الخيالى

فى الرحلة، وهو ما يضفى على التعبير الفنى الشعبى طابعا فطريا جميلا ، كما تتضمن جداريات الحج عناصر من تجربة الرحلة، من وسائل الإنتقال الحديثة والتقليدية مثل الطائرة والسفينة، وما زالت بعض الجداريات تتضمن رسم "الجمل"، على الرغم من أن رحلات الحج حاليا لا تستخدم الجمال كوسيلة للإنتقال!

إن "جداريات الحج" هى دعوة جميلة لإعادة النظر فيما تتضمنه الحياة المصرية من جماليات بسيطة، شائعة، تعبر فى صدق عن إدراك الإنسان للجمال والقدرة على التعبير عن هذا الجمال.. كما عبر - بشكل فطرى - عن رؤيته وخيالاته ومعتقداته فى إبداعات فنية بسيطة لها مذاق خاص!

الاحتفال بليلة الرؤية فى القاهرة زمااااان!

في ذاكرة القاهرة الإسلامية، تحفل المصادر التاريخية وكتب الرحالة بوصف المواكب والاحتفالات الرسمية والشعبية بليلة الرؤية وشهر رمضان بتقاليد متوارثة، في عصور متعاقبة، واندثرت بعض هذه العادات والتقاليد وطواها الزمان بحكم المتغيرات السياسية والاجتماعية وظروف العصر!

الفاطميون والاحتفال بغرة رمضان

احتفالات الدولة الفاطمية فاقت الوصف في بزخها، وكانت في جوهرها تعتمد على إظهار قوة الخليفة الفاطمي وسلطانه كحاكم إلي جانب نفوذه الديني!

وعن احتفال الفاطميين بغرة شهر رمضان، يقول المقريزي: "وكان لهم في شهر رمضان أنواع عدة من البر منها كشف المساجد، كان القضاة بمصر إذا بقى لشهر رمضان ثلاثة أيام، طافوا يوما على المشاهد والمساجد بالقاهرة ومصر فيبدأون بجامع المقس ثم بجوامع القاهرة ثم بالمشاهد ثم بالقرافة ثم بجامع مصر ثم بمشهد الرأس لنظر حصر ذلك وقناديله وعمارته وإزالة شعثه وكان أكثر الناس ممن يلوذ بباب الحكم والشهود والطفيليون يتعينون لذلك اليوم والطواف مع القاضي لحضور السماط.

وكان في أول يوم من شهر رمضان يرسل لجميع الأمراء وغيرهم من أرباب الرتب والخدم لكل واحد طبق ولكل واحد من أولاده ونسائه طبق فيه حلوى، وبوسطه صرة من ذهب فيعم ذلك سائر أهل الدولة ويقال لذلك غرة رمضان!

وكان لخلفاء الدولة الفاطمية عادات ورسوم في جميع المناسبات، ومنها ما اشتهر بـ "ركوب أول رمضان"، وأرجح

أن هذه العادة هي أصل ما يعرف في التراث الشعبي بـ "موكب ليلة الرؤية".

وركوب أول رمضان كان من الأيام المشهودة في مصر الفاطمية، فكان موكب الخليفة في زيه وبنوده وقبابه يحتشد بباب الذهب داخل سور القصر الكبير الشرقي وقد امتطى أكرم الجياد، مرتديا "شاشية موكبية مكملة مذهبة" وبيده "قضيب الملك" ...

وكان موكب الخليفة يبدأ من بين القصرين (شارع المعز بالصاغة الآن) ويسير في منطقة الجمالية حتى يخرج من باب الفتوح (أحد أبواب سور القاهرة الشمالية) ثم يدخل من باب النصر عائدا إلي باب الذهب (بالقصر) وفي أثناء الطريق توزع الصدقات على الفقراء والمساكين، وحينما يعود الخليفة إلي القصر يستقبله المقرئون بتلاوة القرآن الكريم في مدخل القصر ودهاليزه حتى يصل إلي خزانة الكسوة الخاصة فيغير ملابسه ويرسل إلي كل أمير في دولته بطبق من الفضة مملوء بالحلوى تتوسطه صرة من الدنانير الذهبية، وتوزع الكسوة والصدقات والبخور وأعواد المسك على الموظفين والفقراء، ثم يتوجه لزيارة قبور آبائه حسب عادته، فإذا ما انتهى من ذلك أمر بأن يكتب إلي الولاة والنواب بحلول شهر رمضان.

ليلة الرؤية في عصر سلاطين المماليك

واستمرت العناية بالاحتفال بحلول شهر رمضان ورؤية هلاله في العصر المملوكي كذلك، فكان قاضي القضاة يخرج لرؤية الهلال ومعه القضاة الأربعة كشهود ومعهم الشموع والفوانيس، ويشترك معهم المحتسب وكبار تجار القاهرة ورؤساء الطوائف والصناعات والحرف، وكانوا يشاهدون

الهلال من منارة مدرسة المنصور قلاوون (المدرسة المنصورية بين القصرين) لوقوعها أمام المحكمة الصالحية (مدرسة الصالح نجم الدين بالصاغة)، فإذا تحققوا من رؤيته أضيئت الأنوار على الدكاكين وفي المآذن، وتضاء المشكاوات في المساجد، ثم يخرج قاضي القضاة في موكب تحف به جموع الشعب حاملة المشاعل والفوانيش والشموع حتى يصل إلي داره، ثم تتفرق الطوائف إلي أحيائها معلنين الصيام.

وقد وصف الرحالة "ابن بطوطة" عام ٧٢٧ هجريا، الاحتفال برؤية هلال رمضان في مدينة "أبيار" بالقرب من المحلة الكبرى، فقال: "وعادتهم في يوم الركبة أن يجتمع فقهاء المدينة ووجوههم بعد العصر في" بيت القاضي "ويقف على باب الدار نقيب المتعممين وهو ذو شارة وهيئة حسنة، فإذا أتى أحد الفقهاء أو الأعيان تلقاه ذلك النقيب ومشى بين يديه قائلا: "باسم الله سيدنا فلان الدين"، ويجلسه النقيب في موضع يليق به، فإذا تكاملوا هنالك، ركبوا جميعاً وعلى رأسهم القاضي، وتبعهم من بالمدينة من الرجال والصبيان، حتى إذا ما انتهوا إلي موضع مرتفع خارج المدينة – وهو مرتقب الهلال عندهم – وقد فرش ذلك الموضع بالبسط والفرش فينزل القاضي ومن معه يرتقبون الهلال، ثم يعودون إلي المدينة بعد صلاة المغرب وبين أيديهم الشموع والمشاعل والفوانيس، فيكون ذلك دليلاً على ثبوت رؤية الهلال فيوقد التجار الشموع بحوانيتهم، وتكثر الأنوار في الطرقات والدروب والمساجد" ... وكان الرحالة التركي الشهير "أوليا جلبي" الذي طاف بالعالم الإسلامي واستغرقت رحلته ٢٣ عاما، قد أشار إلي وجود طائفة في مصر تسمى "القندلجية" تضم نحو مائتي فرد، كان عملهم بالتحديد: تزيين الحوانيت وإضاءتها بالقناديل في ليالي رمضان وفي ليالي الموالد.

ويقول المؤرخ العظيم "ابن إياس" عن احتفال ليلة رؤية الهلال في عام ٩٢٠ هجريا – عهد السلطان الأشرف قنصوة الغوري: ".. وأما في ليلة رؤية الهلال، حضر القضاة الأربعة بالمدرسة المنصورية، وحضر الزيني بركات بن موسى المحتسب، فلما ثبتت رؤية الهلال وانفض المجلس، ركب المحتسب ومشت قدامه السقاءون بالقرب، ووقدوا له الشموع على الدكاكين، وعلقوا له التنانير والأحمال الموقودة بالقناديل من الأمشاطيين إلي سوق مرجوش، إلي الخشابين، إلي سويقه اللبن، إلي عند بيته (بيت الزيني بركات).

وفي مستهل الشهر، يجلس السلطان في ميدان القلعة، ويتقدم إليه الخليفة العباسي والقضاة الأربعة بالتهنئة ثم يستعرض أحمال الدقيق والخبز والسكر، وكذا الغنم والبقر المخصصة لصدقات رمضان يعرضها عليه المحتسب بعد أن يكون قد استعرضها في أنحاء القاهرة تتقدمها الموسيقى، فينعم على المحتسب وعلى كبار رجال الدولة.

ليلة الرؤية في عصر الدولة العثمانية

واستمر الاحتفال بحلول شهر رمضان وبرؤية هلاله في عصر الدولة العثمانية، ففي التاسع والعشرين من شعبان كان القضاة الأربعة يجتمعون وبعض الفقهاء والمحتسب بالمدرسة المنصورية في "بين القصرين" ثم يركبون جميعا يتبعهم أرباب الحرف وبعض دراويش الصوفية، إلي موضع مرتفع بجبل المقطم، حيث يرتقبون الهلال، فإذا ثبتت رؤيته، عادوا وبين أيديهم المشاعل والقناديل إلي المدرسة المنصورية، ويعلن المحتسب ثبوت رؤية هلال رمضان، ويعود إلي بيته في موكب حافل يحيط أرباب الطرق والحرف بين أنوار المشاعل، في ليلة مشهودة "في الفرجة والقصف" على حد

تعبير مؤرخنا "ابن إياس" وفي صباح أول أيام رمضان، يصعد المحتسب والقضاة الأربعة إلي القلعة لتهنئة "الباشا" الوالي، فيخلع عليهم قفاطين مخمل كما جرت العادة.

وكان المؤرخ العظيم "عبد الرحمن الجبرتي" قد أشار في تاريخه إلي "سنن وطرائق في مكارم الأخلاق لأهل مصر لا توجد لغيرهم" فيقول ... "ففي بيوت الأعيان كان السماط يمد مبذولا للناس ولا يمنعون من يريد الدخول .. وكانت لهم عادات وصدقات في المواسم الدينية خاصة في ليالي رمضان، يطبخون فيها الأرز باللبن والزردة ويملأون من ذلك قصاعا كثيرة، ويفرقون منها على من يعرفونه من المحتاجين، ويجتمع في كل بيت الكثير من الفقراء، فيفرقون عليهم الخبز ويأكلون حتى يشبعوا ويعطونهم بعد ذلك دراهم، ولهم غير ذلك صدقات وصلات لمن يلوذ بهم، خلاف ما يعمل ويفرق من الكعك المحشو بالسكر والعجمية وسائر الحلـــوى".

وفي زمن الحملة الفرنسية في مصر، أشار الجبرتي إلي أمر "ساري عسكر الفرنسيس بونابرته" ... بالمناداة في أول رمضان بأن نصارى البلد يمشون على عادتهم مع المسلمين ولا يتجاهرون بالأكل والشرب في الأسواق، ولا يشربون الدخان ولا شيئا من ذلك بمرأي منهم، كل ذلك لاستجلاب خواطر الرعية".

وفي ليلة الرؤية، كان قاضي القضاة والمحتسب ومشايخ الديوان يجتمعون ببيت القاضي "المحكمة" بين القصرين، وعند ثبوت الرؤية، يخرجون في موكب تحيط بهم مشايخ الحرف و"جملة من العساكر الفرنساوية"..وتطلق "المدافع والصواريخ" من القلعة والأزبكية!

فى زمن الحملة الفرنسية

كان "دي شابرول" أحد أبرز علماء حلمة بونابرت على مصر عام ١٧٩٨م قــد أعد دراسة قيمة بعنوان "عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين" نشرت ضمن موسوعة "وصف مصر" الشهيرة، وتحدث عن أعياد المصريين التي تعود إلي أصول دينية، وبعد أن أشار إلي أن شهر رمضان في مجموعه هو "شهر للعبادة واللهو أيضا" تحدث عن موكب ليلة الرؤية، حيث يركب القضاة الأربعة ووكيل بيت المال والمحتسب وأرباب الدولة، يحيط بهم الدراويش وعامة الناس، حاملين القناديل والمشاعل والمباخر، وعقب ثبوت الرؤية يتوجهون جميعا إلي القلعة لتهنئة الوالي، وتضاء أمام الحوانيت القناديل والشموع، وتنتشر المباخر بأشكالها الجميلة تتضوع منها روائح زكية .. و" إلي أن تأتي الساعة التي طال انتظارها، حيث تتصاعد أصوات المؤذنين من فوق منارات المساجد، فمنهم من يلبي النداء، ومنهم من يهرع إلي الطعام والشراب، ويحرص الأثرياء على تقديم مآدب الافطار الباذخة حيث يقدم الطعام بلا تمييز .. بينما تظل المساجد والشوارع مضاءة بالقناديل حتى مشرق الشمس، ويذهب كثير من الناس إلي المقاهي للاستماع بحماس إلي الرواه والمنشدين وهم يقصون حكاياتهم العجيبة "!

ادوارد لين .. او "منصور افندى"!

أما المستشرق البريطاني الشهير "إدوارد لين – E. Lane" الذي شغف بمصر واختلط بناسها، وتأثر بعادات وتقاليد مجتمع القاهرة، حتى أنه شارك المسلمون صلاتهم بالمساجد، وفي حلقات الذكر، راصدا تفاصيل الحياة اليومية، وسمى نفسه "منصور أفندي"!.. فقد حدثنا عن مشاهداته لطقوس ليلة رؤية

هلال رمضان عام ١٨٣٥ فيقول: "والليلة التي يتوقع أن يبدأ صبيحتها الصيام، تسمى ليلة الرؤية .. فيرسل عدد من الأشخاص الثقاة إلي مسافة عدة أميال في الصحراء، حيث يصفو الجو، لكي يروا هلال رمضان .. بينما يبدأ من القلعة موكب الرؤية الذي يضم المحتسب وشيوخ التجار وأرباب الحرف: الطحانين والخبازين والجزارين والزياتين والفكهانية، تحيط بهم فرق الإنشاد ودراويش الصوفية، وتتقدم الموكب فرقة من الجنود .. ويمضي الموكب حتى ساحة بيت القاضي ويمكثون في انتظار من ذهبوا لرؤية الهلال .. وعندما يصل نبأ ثبوت رؤية هلال رمضان، يتبادل الجميع التهاني، ثم يمضي المحتسب وجماعته إلي القلعة، بينما يتفرق الجنود إلي مجموعات يحيط بهم "المشاعلية" والدراويش، يطوفون بأحياء المدينة، وهم يصيحون: يا أمة خير الأنام .. صيام .. صيام .. أما إذا لم تثبت الرؤية في تلك الليلة فيكون النداء: "" غدا متمم لشهر شعبان .... فطار .. فطار ..."!

وتتألق القاهرة في ليالي رمضان، وكأنها تحتفل بميلادها إلي جانب احتفاءها بشهر القرآن، وتذكر الأجيال الماضية صورة استقبال رمضان بإطلاق المدافع، ومواكب أرباب الحرف، وكل حرفة تمثلها عربة مزدانة بالزهور والفوانيس ورموز من أدوات الحرفة وفرق الجيش والشرطة بموسيقاها المميزة، هذه المواكب التي كانت تنطلق في جو من البهجة والفرح العام في شوارع القاهرة حتى مبنى المحافظة. أو إلي المديرية في عواصم المحافظات .. أو بيت "البيه المأمور" في القرى! ..

لقد كانت ليلة رؤية هلال رمضان – في الزمن الجميل – بمثابة عيد تعم بهجته ربوع القاهرة، حتى لو لم يثبت رؤية الهلال، أما الآن فقد تقلصت مظاهر الاحتفال واقتصرت على

خروج فرقة من فرسان الشرطة – عصر يوم الاحتفال – من دار محافظة القاهرة، متجهة إلي" دار الإفتاء المصرية" حيث يقام سرادق كبير لإستقبال الوزراء وكبار الضيوف من العلماء ورجال الدين وأبناء الأقطار العربية والإسلامية، فإذا ما ثبت رؤية الهلال، تحررت بذلك" الوثيقة الشرعية" .. وعقب الاستماع إلي آيات من الذكر الحكيم، يلقي فضيلة المفتي كلمته، معلنا النبأ الذي ينتظره الملايين" أن اليوم هو المتمم لشهر شعبان وغدا – إن شاء الله – هو غرة شهر رمضان" ويهنيء العالم الإسلامي .. وتنطلق البهجة في البيوت والشوارع والأسواق!

شعب "السميعة" فى دولة القرآن!

كان لتلاوة القرآن الكريم "دولة" مجيدة .. لها ملوكها وأمرائها و"عساكرها" ولابد لكل دولة من شعب أو رعية، وفي دولة التلاوة كان الرعية هم "السميعة" .. وهؤلاء أيضا كان لهم زعماء وأقطاب وجنرالات وجيش من الحرافيش والبسطاء .. وكنت واحدا من هؤلاء! .. وكان السؤال اليومي المعتاد: "هو الشيخ هيسهر فين الليلة"؟!

مؤسس دولة التلاوة

تأسس مجد دولة التلاوة على يد شيخ صغير أسمر اللون نحيف العود، وسيم القسمات، يقرأ القرآن بصوت جميل وبطريقة فريدة، حملت "السميعة" على الجلوس في أماكنهم ساعات طويلة لا يفارقونها حتى ينتهي الشيخ من تلاوته، وكما أثر الشيخ "أحمد ندا" في عقول ومشاعر السميعة، فقد أحدث ثورة عارمة بين المسلمين بمختلف طبقاتهم محورها: هل الطريقة المبتكرة التي أحدثها الشيخ أحمد ندا في التلاوة: حلال أم حرام؟! وترك الشيخ الجميع في مناقشاتهم الساخنة، ومضى في طريقه يحقق في كل يوم انتصاراً جديداً لطريقته، ويجمع في كل يوم المزيد من المريدين السميعة!

وقبل الشيخ "أحمد ندا" لم يكن لقارئي القرآن صوت مسموع، صحيح أنه كان هناك قراء ومنشدين، لكن كان يطلق عليهم "الصيبيتة" و"أولاد الليل"!

وقلب الشيخ "أحمد ندا" الموازين كلها ووصل أجره إلي خمسة جنيهات في الليلة الواحدة، وبلغت شهرته كل مديريات مصر، فكان يسهر في قصور الباشوات ودور العمد والأعيان، ويهرع إليه آلاف السميعة حيثما كان، وظل أجره يرتفع حتى

بلغ المائة جنيه ذهبا!

وأمتلك عربة "فيتون" تجرها أربعة خيول مثل علية القوم، وقصرا يؤمه نجوم السياسة والأدب والصحافة، وظل مقرئا لمسجد السيدة زينب حتى وفاته، ورثاه "حافظ إبراهيم" بقصيدة من عيون الشعر ألقاها فوق قبره، وكتب عنه الشيخ "عبد العزيز البشري" وكان من كبار السميعة: "كان صوته سيد الأصوات وأقواها، وأنه ليكون في أعلى طبقات الصوت، ثم يحوم حول طبقة أعلى، فلا يزال يلتمس إليها الوسائل، وينصب لها الشباك والحبائل، حتى يشكلها فيرسل بها إلي عنان السماء" .. كان الشيخ أحمد ندا فنانا وصديقا لتلك الصفوة المختارة من رجال الفن والأدب والصحافة الذين شهدهم مطلع القرن العشرين، وكانوا أيضا من كبار "السميعة" في عصرهم، وفي مقدمتهم "محمد البابلي" أعظم الظرفاء في تاريخ مصر، وكان ثريا يعشق الفن ويهوى السهر، ويبكي إذا سمع الشيخ ندا في ساعة السحر! .. أيضا الكاتب والأديب الشيخ "عبد العزيز البشري" وشاعر النيل "حافظ إبراهيم" والعالم وشيخ الأزهر "مصطفى باشا عبد الرازق" ود. محجوب ثابت و"صالح عبد الحي" أشهر مطربي زمانه!...

لقد عاش الشيخ أحمد ندا مجدا لم يشهده أحد من أقرانه من قبل، وهو الذي أسس لدولة التلاوة وازدهارها، إلي أن ظهر من رجالها أعلام ونجوم ذاع صيتهم وارتفع مجدهم حتى فاقوا سيرة ومجد الشيخ أحمد ندا ..!

عبقري زمانه ..!

رجل واحد استطاع أن يشق طريقه إلي الشهرة والمجد في عصر الشيخ ندا .. قصير القامة، أسمر وعلى غير العادة كان من أسرة ثرية! .. هو الشيخ "علي محمود" الذي ولد

ضريراً فدفعت به أسرته إلي كتاب القرية ليحفظ القرآن الكريم، أنفق الشيخ حياته الطويلة يتلو القرآن وينشد المدائح ويرفع الآذان دون أجر، وكان يلحن القصائد وينشدها وذاعت شهرته بين الناس، وأصبح قارئاً لجامع مولانا الإمام الحسين، وكان بيته في "باب الخلق" ملتقى الأدباء والفنانين ومشاهير عصره، وكانت له بطانة تصاحبه في الإنشاد، في الليالي والسهرات، لمع منها اثنان وصارا من المشاهير، الأول هو الشيخ "طه الفشني" والذي خلف أستاذه في التلاوة والإنشاد، أما الثاني فهو الشيخ "زكريا أحمد" أستاذ الملحنين والذي اكتشف وقدم للعالم العربي: أم كلثوم وسيد درويش.

وأينما كان يسهر الشيخ علي محمود، كانت تسبقه حشود من "السميعة" .. وكم شهدت سهراته في جامع الحسين من أقطاب السياسة وأعلام الأدب والصحافة، منهم: إبراهيم الدسوقي أباظه، فكري أباظه، حفني محمود باشا، الشيخ علي الغاياتي، محمد البابلي، حسين الترزي، الشيخ البشري، حافظ إبراهيم، محمد مصطفى حمام، والمعلم دبشه الجزار (صديق الفنانين الشهير) والفنان الموسيقار "محمد عبد الوهاب" .. والشيخة "رقية" الضريرة التي أحبت الشيخ علي محمود حبا عظيما، وكانت تتلو القرآن، فاعتزلت القراءة والناس جميعا، وقضت بقية عمرها تجلس إلي "دكة" الشيخ التي ينشد من فوقها، وظلت تتبعه كظله أينما سهر، حتى وافتها المنية بجوار دكة عبقري زمانه!

"سميعة خصوصي" من الشرفة العلوية!

في صيف عام ١٨٨٨، استمع الشيخ علي محمود إلي شاب صغير يتلو من آيات الذكر الحكيم، فانتفض بدنه كله وخنقته العبرات وقال: "هذا الولد سيكون له شأن عظيم" وعاش

الشيخ علي محمود حتى أصبح للشيخ الصغير شأن أعظم صعد نجمه حتى فاق جميع المقرئين في زمانه وفي كل الأزمنة!

وصف الشيخ "محمد رفعت" بـــ "قيثارة السماء" .. وكان يفسر القرآن بتلاوته الفريدة، بما كان يملكه من خشوع وفهم وتجسيد صوتي للمعاني ورقة إحساس ونقاء حنجرة، فيحلق بالقلوب والوجدان إلي عالم طاهر نقي ليس من عالمنا!

كان الشيخ "محمد متولي الشعراوي" واحدا من كبار "السميعة" وشهادته لا معقب لها، ففي أحد حواراته بالتلفاز، سئل عن رأيه في مشاهير القراء، فقال: "إذا أردت أحكام التلاوة فالشيخ محمود الحصري، وإذا أردت حلاوة الصوت فالشيخ عبد الباسط عبد الصمد وإذا أردت النفس الطويل مع العذوبة فالشيخ مصطفى إسماعيل، وإذا أردت هؤلاء جميعا فالشيخ محمد رفعت"

وعلى امتداد الوطن العربي كان صوت الشيخ – وما زال – يأخذ بألباب الملايين، حاملاً إليهم نفحات من رضوان الله ورحمته، وكان أول قاريء للقرآن – على الهواء مباشرة – بالإذاعة المصرية، بعد أن استشار علماء الدين، فكان يقرأ مرتين أسبوعيا، مساء الثلاثاء ومساء الجمعة .. وكان الناس يلتفون حول أجهزة الراديو "العتيقة" الضخمة في كل مكان بمصر، في موعد التلاوة، وكان أصحاب المقاهي يزيدون عدد الكراسي لاستيعاب السميعة، والأكثرية كانوا وقوفا خاشعين ولم يكن مسموحا في هذه المقاهي بممارسة ألعاب الكوتشينة والطاولة، وإذا بدأ الشيخ في التلاوة يتوقف عمال هذه المقاهي عن تقديم أية طلبات للزبائن حتى ينتهي الشيخ، وكان من أشهر هذه المقاهي: مقهى البرابرة بشارع أبو السباع، ومقهى النيل بشارع المنيل، ومقهى العمال بحي السيدة زينب، وكان يوم الجمعة من كل أسبوع "يوما مشهودا" بدرب الجماميز،

حيث يضيق جامع الأمير فاضل باشا بالوافدين من المديريات ومن القرى لسماع الشيخ، وكان الترام يمر بشارع درب الجماميز أمام جامع فاضل باشا، والذي اشتهر بين العامة بجامع الشيخ رفعت، وكان بالجامع شرفة علوية يجلس بها الأجانب من جنسيات مختلفة، ومن الأقباط .. نوعية مختلفة من "السميعة" .. وعقب انتهاء الشيخ يزاحمون الجميع في محاولة لتقبيل يد الشيخ رفعت!

وكانوا سائقو الترام – ومعظمهم كانوا من الأقباط! – يتوقفون وتتوقف حركة الترام بالشارع، من أجل أن ترقى أرواحهم لحظات إلي ملكوت السماء مع صوت شيخنا الجليل! وسعيد الحظ من يجد لقدمه موضعا في المسجد ليحظى برؤية الشيخ وسماع صوته.

لقد عشق صوته كثير من غير المسلمين، ومن الأجانب من أسلموا بتأثير صوته، ومن الطريف أن الفنان العظيم "نجيب الريحاني" كان يستمع له حتى يبكي، بين الحشود التي كانت تجتمع لسماعه بشرفة جامع الأمير فاضل باشا، ومعه أيضا القطب الوفدي الكبير والوزير "مكرم عبيد" باشا، والذي كان صديقا للشيخ، وكان يتباهى أنه تعلم تلاوة القرآن على الشيخ رفعت، كما كان يزين مرافعاته في المحاكم وخطبه الشهيرة بآيات من الذكر الحكيم!

وكان الفنان الموسيقار "محمد عبد الوهاب" من مريدي الشيخ رفعت ومن شهود مجالسه في بيته بحي "البغالة" بالسيدة زينب، وكان الشيخ رفعت في هذه المجالس الخاصة، عندما يشرع في التلاوة، يجلس على "دكة" وتحت أقدامه يجلس "عبد الوهاب" ينصت في خشوع .. كانت تلك جلسته الدائمة والمفضلة! .. وفي أحد حواراته النادرة بالتلفاز، أكد عبد الوهاب على أن ما نسمعه حاليا من تسجيلات الشيخ رفعت "لا

تمثل سوى عشرة في المائة من عظمة وجمال الصوت الحقيقي للشيخ رفعت"!

ومن أشهر "السميعة" الأديب الكبير "خيري شلبي" ويقول عن صوت الشيخ رفعت: هو سيمفونية القرآن الكريم، وهو تفسير عبقري فذ، يضيء المفردات على مهل وتأن ثم يعود فيجمعها كلها في جملة نغمية تتضمن جوهر المعنى الكلي للآية القرآنية .. وهو الذي علم المستمعين كيف ينصتون باحترام وخشوع .. صوت الشيخ – بدوي – وبداوته تشعرك كأنك تعيش لحظة نزول الوحي على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ".. ويضيف خيري شلبي:" المؤكد أن الشيخ رفعت قد تفاعل مع كل الثقافات المعاصرة واستفاد منها في تطوير مكوناته الذاتية، وتطوير أدواته الصوتية واثراء خبراته الأدبية، ففرق كبير بين قاريء خبير بالقراءة وحدها، وقاريء خبير بهذه القراءة مضافا إليها خلفية ثقافية مستنيرة"!

جوهرة تاج دولة التلاوة

أما عمنا الشيخ "مصطفى إسماعيل" .. جوهرة تاج دولة التلاوة، ولأنه كان جامعة وحده في هذا الفن، فسرعان ما أصبح أشهر قاريء للقرآن عقب عصر الشيخ رفعت.

بدأت شهرة الشيخ مصطفى إسماعيل من قريته "ميت غزال" وامتدت خلال بضع سنوات في القرى والنجوع والكفور والمدن الصغيرة، فكانت هذه "السهرات" الطويلة هي التي أصقلت موهبته ودربته على التجاوب مع "السميعة" كما يتجاوبون معه، وعندما طلب منه الشيخ "محمد الصيفي" أن يشارك في احتفال رابطة القراء بليلة المولد النبوي بالمسجد الحسيني عام ١٩٤٣، والذي ستنقله الإذاعة، لم يجد مشقة في امتلاك ناصية الموقف، عندما وجد نفسه أمام جماهير

"السميعة" المحتشدة بساحة الإمام الحسين، وهم الخبراء بالسماع والأصوات .. وكانت فاتحة خير على الشيخ، عندما أرسل في طلبه واحد من أشهر "السميعة" في ذلك العصر وهو "مراد محسن باشا" ناظر الخاصة الملكية، الذي طلب منه أن يحيي ليالي شهر رمضان من سراي عابدين عام ١٩٤٣ وبالطبع كانت تلك "رغبة ملكية" أيضا!

وكان على رأس شهود هذه السهرات الرمضانية: جلالة الملك فاروق، والزعيم مصطفى النحاس باشا رئيس الوزراء، والوزراء، وأقطاب السياسة: أحمد ماهر باشا، محمود فهمي النقراشي، محمد محمود باشا وجميعهم تولوا رئاسة الوزارة أكثر من مرة، وحيدر باشا وزير الحربية، وسفراء الدول الإسلامية .. وفي العام التالي، أحيا الشيخ مصطفى إسماعيل ليالي رمضان من سراي "رأس التين" بالإسكندرية.

اعتاد الشيخ مصطفى أن يقرأ لساعات متصلة في سهراته، فكيف يقرأ نصف ساعة فقط كما طلبت منه الإذاعة، وحاول في بداية مشواره التدريب على القراءة في هذا الوقت القصير المحدود، فلم يستطع، وعندما توجه مبكرا إلي مسجد سيدنا الحسين للمشاركة في احتفال رابطة القراء، وجده غاصا بالسميعة، ومنهم من استمع إليه في الليالي التي أحياها بالقاهرة، خاصة ليلة الأستاذ "محمد خميس" السميع الشهير والوحيد الذي سجل للشيخ رفعت على اسطوانات، وجاءه الحل من "السميعة" الذين طلبوا منه "التسخين" قبل أن تبدأ الإذاعة في الإرسال .. تم اعتماد عملية "التسخين" هذه حتى ينجلي صوته ويبدع، فيسيطر على الأسماع والقلوب!

كان الشيخ مصطفى إسماعيل خلقه القرآن، واشتهر بخفة الروح والدعابة، والتواضع، وعندما سئل عن رأيه في بعض زملائه من مشاهير القراء، أجاب: "ربنا يوسع رزق الجميع

.. كل قاريء له لون وطابع وإمكانات وسميعة .. والسماع كالطعام، فهذا يحب أكل الكوارع، وذاك يحب الكباب، وآخر يحب الملوخية بالأرانب .. وربنا يكرم الجميع"! .. رحمه الله لم يمتد به العمر حتى عصر "التيك أواي"!

وكان في سهراته محافظاً على تقليد اختص به .. فبعد أن يختتم تلاوته، كان يدعو لجميع مشاهير القراء .. واحداً .. واحداً بالاسم .. داعياً الله أن يتغمدهم برحمته، قائلا: "أساتذتي .. اللي علموني" فيدعو والسميعة يؤمنون وراءه، وما أن ينتهي حتى يتكالب عليه الجميع بالأحضان .. وكلهم يحاولون تقبيل يده!

وما زالت في سمعي عبارات الأعجاب والاستحسان من السميعة: "كمان يا شيخ مصطفى" .. "الله يفتح عليك يا شيخ ويزيدك من نوره" .. "والله أنت راجل دهب" .. "إيه ده يا عمنا .. الله يزيدك" .. "ايه الجمال ده .. والله ما حد هيقول كده أبداً" .. "والنبي تاني يا شيخ مصطفى من أول: ربنا إننا سمعنا مناديا .. الله يكرمك".. ومن منا لا يذكر تسجيله الشهير في المسجد الأموي بدمشق، وقد مد في لفظة "الحاقة" ثم وقف بعدها .. وأحد السميعة يقول له: "على مهلك .. معاك للصبح إحنا قاعدين"!

كان للشيخ مصطفى إسماعيل ملايين من المريدين والسميعة، يأتي في مقدمتهم: الملك فاروق وأمراء البيت المالك والخاصة الملكية، ورؤساء وزارات، وباشوات ووزراء، وكوكبة من نجوم السياسة والأدب والصحافة والفن.

ذكريات من سهرات العباقرة :

كنت أتنقل مع السميعة حيثما يقرأ أو يسهر مشاهير المقرئين، فأذهب إلي جامع الإمام الشافعي لأستمع مع الآلاف

داخل المسجد، بخلاف الآلاف الذين افترشوا الساحة الخارجية للمسجد إلي الشيخ "عبد الباسط عبد الصمد" عبقرية متـفردة في الأداء، يكمن سرها في عذوبة وحلاوة صوته .. نغمة متميزة أخذت مكانها بين أصوات عملاقة، فكان لها سحرها الخاص المؤثر في آلاف الحناجر وهي تطلق لفظة "الله" ممدودة .. عقب كل آية، جاعلاً "السميعة" في حالة من "الهوس" و"السلطنة"!

وأذهب مبكرا إلي جامع مولانا الإمام الحسين، حتى أجد موضعا بين حشود السميعة، لنمتع أسماعنا وقلوبنا بأصوات الشيوخ محمد الصيفي ومحمود خليل الحصري وطه الفشني .. ومن هذا الجامع كم انطلقت وتجلت أصوات طبقت شهرتها الآفاق .. وعاصرت في جامع السيدة زينب الشيوخ: إبراهيم الشعشاعي الذي كان يفضل أن يتلو قرآن الفجر جالسا على "شلته" وخلفه المحراب القديم، بدلا من المقعد العلوي المخصص للقراء، أيضاً: عبد العزيز علي فرج ومحمد عبد العزيز حصان، والعلم الأشهر الشيخ "أبو العينين شعيشع" صاحب الجولات والصولات في عالم التلاوة، وكان الملك فاروق على رأس السميعة للشيخ شعيشع والشيخ عبد الفتاح الشعشاعي ويدعوهما لإحياء ليالي رمضان من سراي عابدين .. ومنذ سنوات كنت أعد برنامجا رمضانيا للتلفاز وخصصت حلقة للشيخ أبو العينين شعيشع، وكم تجلى بين أرجاء مسجد السيدة زينب صوت صاحب المدرسة الفريدة في التلاوة الشيخ "عبد العظيم زاهر" وكان له جمهور من السميعة شديدي التعصب له! .. ولا يمكنني أن أغفل ذكر الشيخ "كامل يوسف البهتيمي" الذي كان في خلقه الرفيع وصوته الشجي سحره الآسر وتأثيره الساحر، وسيظل نجما في تاريخ دولة التلاوة، أجمع على تقديره كل أعضاء مجلس قيادة الثورة، وأولاه

الرئيس عبد الناصر محبة خاصة، وكان يدعوه لإحياء المناسبات الدينية في قصر عابدين، وتوفى الشيخ كامل عام ١٩٦٩ عن عمر لا يتجاوز ٤٢ عاما، في يوم مشهود، وقد ضم سرادق العزاء نحو مائة قارئ من مصر والعالم الإسلامي، تقدمهم الشيخ الحصري "شيخ المقرئين".

وذات يوم، ذهبت إلي مدينة "دسوق" لاستمع إلي الشيخ "راغب مصطفى غلوش"، في الليلة الختامية لمولد سيدي إبراهيم الدسوقي، ومسجده الكبير ليس به موضع لقدم، وساحة الميدان أمام الجامع تكتظ بمئات الآلاف، الأنوار وصخب الحياة يسيطران على المشهد، حتى انساب صوت الشيخ "غلوش" رقيقا، رخيما، وبعد أن "سخن" صوته .. ارتفعت طبقاته وانجلى .. واكتشفت شعبية الشيخ الجارفة، وعقب كل آية تنطلق صيحات مهووسة من حشود السميعة، وتخيل الحالة "الجنونية" لهؤلاء السميعة عقب انتهاء تلاوة الشيخ، وكل واحد من آلاف السميعة يحاول أن يحتضنه أو مجرد أن يلمس يده!

ويتكرر المشهد ذاته، في جامع "السيد أحمد البدوي" الشهير بمدينة "طنطا" حيث كان يقرأ الشيخ "محمود علي البنا" رأيته بقامته المديدة .. وشال كبير فخم على كتفه الأيسر، يخطو بين صفوف المريدين الذين اكتظ بهم الجامع في طريقه إلي دكة التلاوة، في مهابة واعتداد بالنفس وقسمات وجه يشع منها النور، وكانت ليلة رائعة .. سيطر الشيخ على الأسماع، وملأ أرجاء المسجد الفسيح خشوعا ونورا، على الرغم من صيحات "مجاذيب" السيد البدوي! .. كان يجلس بجواري رجل بسيط، واضح أنه جاء من إحدى القرى القريبة من طنطا قام إلي الشيخ فعانقه وقبله، وامتد إعجابه بصوت الشيخ "البنا" إلي وجه الشيخ نفسه ... قائلا لي: "شايف، ما شاء الله، وش الشيخ

جميل ومنور إزاي .. طبعا من كتر أكل الحمام والوز"! .. فأجبته: "لا حمام ولا وز .. دا نور القرآن يا راجل"!

وكان والدي – رحمه الله – سميعا وكم حدثني عن "الليالي" التي كان يقيمها جدي، في حي شبرا، داعيا إليها: الشيخ علي السويسي والشيخ محمد فريد السنديوني الذي كان يقطن في نفس الحارة، والشيخ محمود علي البنا قبل أن يشتهر، وانطلقت شهرة الجميع من جامع "الخازندارة" بشبرا وعلى رأسهم السوداني "الغامض" الشيخ "سعيد محمد نور" صاحب الصوت النادر والأسلوب المتفرد، وكان دائما ما يتغيب عن محبيه والسميعة لأسبوع وربما شهر، وفي "الغيابات" الأولى كانوا يسألونه: أين كنت يا شيخ سعيد؟ فيجيبهم: كنت أقرأ القرآن على الملائكة "!! .. إلي أن ظهر الشيخ "نصر الدين طوبار" الذي اشتهر كمنشد من خلال الإذاعة، لكنه كان قارئا للقرآن بجامع "الخازندارة" وكنا سكان حي شبرا نتقاطر منذ الصباح الباكر في يوم الجمعة حتى نجد موضعاً لسماع الشيخ طوبار وطريقته الفريدة وصوته الجميل .. ومثلما كان يحدث مع الشيخ "محمد رفعت" في شارع درب الجماميز في العقود الأولى من القرن الماضي، شهدت في العقد السادس منه، توقف حركة الترام والحياة في شارع شبرا حتى ينتهي الشيخ طوبار من تلاوته!

وأذكر في الاحتفال بليلة القدر، الذي أقامته وزارة الأوقاف عام ١٩٧٤، وأحياها الشيخ "طه الفشني" وبطانته، بروائع انشاده ومدحه للرسول الكريم بصوته الرقيق الحنون وامتلاكه لكل "فنون الصنعة" والموهبة الفذة، فاستولى على ألباب الناس .. ثم أبدع الشيخ "مصطفى إسماعيل" فأخذ بمجامع القلوب وهو يتلو من سورتي "النجم والقمر" وكعادته عقب الانتهاء، أخذ يدعو لمشاهير القراء الراحلين وقراءة

الفاتحة على أرواحهم الطاهرة ثم الدعاء لعامة المسلمين جميعاً، وبمجرد أن هم بالقيام حتى هجم عليه سيل من المحبين والسميعة، يقبلون وجنتيه ويده، وبصعوبة بالغة استطاع شيخنا أن يتخلص من "مظاهرة الحب" التي أحاطت به!

ومن الذكريات الجميلة أيضاً، في الاحتفال بليلة القدر عام ١٩٧٩، وكان القارئ الشيخ "محمود صديق المنشاوي" ومسجد الإمام الحسين ليس فيه موضع لقدم، وكان مزاج الشيخ محمود عالياً، فصال وجال وأبدع من سورة "يوسف" فجعل الناس في حالة من النشوى والصفاء، ولم يوقفه إلا اقتراب موعد إذان الفجر، وكانت ليلة لا تنسى، أبدع فيها أيضاً الشيخ "نصر الدين طوبار" وفيها أعاد الشيخ محمود ذكري مجد شقيقه العظيم "محمد صديق المنشاوي" رحمه الله.

الأسطى..!

كنت – وما زلت – واحداً من عشاق صوت الشيخ "محمد صديق المنشاوي" .. وذهبت عدة مرات لسماعه في مسجد الزمالك في الستينات، ومنذ الصباح الباكر في يوم الجمعة، كان المسجد يغص بسميعة الشيخ المنشاوي، وترى في مقدمة الصفوف: سفراء الدول العربية والإسلامية وأعضاء البعثات الدبلوماسية، فالزمالك حي السفارات والقنصليات.

ذات ليلة، حدثني والدي عن الشيخ محمد صديق المنشاوي، وكان قد رحل عن دنيانا، وأخبرني أنه يعرف أشهر وأقدم "سميعة" الشيخ المنشاوي، وهو "الحاج فتحي" .. كان يملك محل "رفا سجاد" بشارع ٢٦ يوليو بحي الزمالك، رفض بيعه بمئات الألوف في ذلك الزمان، مفضلاً أن يظل يعمل بيديه حتى آخر يوم في عمره، مدركاً أن العمل قيمة في

حد ذاته .. ذهبت إليه، وما أن ذكرت له انني محب لصوت الشيخ المنشاوي، حتى بادرني بالقول: تقصد "الأسطى"؟! .. ولأن الحاج فتحي كان "أسطى" في حرفته واشتهر بهذا اللقب "الأسطى فتحي" .. تفرد بإطلاق هذا اللقب على الشيخ المنشاوي باعتباره "أسطى" التلاوة!

وأخبرني الحاج فتحي أن لديه أندر التسجيلات للشيخ محمد صديق المنشاوي، سجلها له بنفسه (بنظام الشرائط الميكانيكية الضخمة القديم) في مسجد الإمام الحسين وفي مسجد الزمالك، ولم يكن يسمح لأحد بنسخ هذه التسجيلات، التي اعتبرها كنزه الخاص، وعلى من يرغب السماع فقط، يدعوه إلي بيته بحي السيدة زينب ليلة الجمعة من كل أسبوع!

لقد دالت دولة التلاوة بسلاطينها وأمرائها، ونجومها وأعلامها، ومعها دال شعبها من "السميعة" .. ذهب كل ذلك، ولم يبق سوى ذكريات لأيام أحسبها من العمر .. وأتمثل قول "أبو تمام" :

ثم إنقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام!

نابوليون .. يحتفل بالمولد النبوى!!

كان للحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ بقيادة الجنرال "نابوليون بونابرت Napoleon Bonaparte-" آثارها السياسية والاجتماعية والفكرية العميقة في تاريخ مصر الحديث، وقد أثارت هذه الحملة اهتمام كثير من المستشرقين، كما حظيت باهتمام المؤرخين المصريين وعلى رأسهم العلامة "عبد الرحمن الجبرتي" والشاعر المؤرخ "نقولا ترك" الذي رافق الحملة وعاش أحداثها ورصد وقائعها التاريخية مع التحفظ تجاه ما كتبه من نقد للمسلمين!

وفي ظل الأوضاع التي كانت سائدة بمصر في ذلك العصر. كان علماء الأزهر في نظر نابوليون: أكثر عناصر المجتمع المصري نفوذا وهيبة وعلما واحتراما، وقد أرسى نابوليون – مباديء عامة – لسياسته في حكم شعب مصر، والتي أطلق عليها المؤرخون الأوروبيون مصطلحا تاريخيا: سياسة بونابرت الإسلامية – La Politiqu Musulmane de Bonaparte وكان جوهر هذه السياسة إظهار الاحترام للدين الإسلامي والتقاليد الدينية المتوارثة، وإسهام "جيش الشرق" رسميا في احتفالات شعب مصر بالأعياد والمواسم الدينية والقومية، والتقرب إلي علماء وشيوخ الأزهر ومنحهم قدرا من السلطة والنفوذ باختيارهم أعضاء في "ديوان القاهرة" حتى يضفي على حكومته الطابع الإسلامي! .. ويكتسب تأييد علماء الأزهر للحكم الفرنسي!

مظاهر سياسة نابوليون الإسلامية!

إعتمد نابوليون سياسته "الإسلامية" وهو لا يزال في عرض البحر المتوسط في طريقه إلي مصر عندما كتب

منشوراً من على متن بارجة القيادة "Orient" بتاريخ ٢٢ يونيو عام ١٧٩٨ إلي جيش الشرق، وأذيع على جنود الحملة في الثامن والعشرين من يونيو، أي قبيل وصول الحملة إلي الإسكندرية بيومين، وقد أوضح نابوليون لجنوده: إن الشعب المصري يدين بالإسلام وأن أول ركن من أركان الدين الإسلامي هو الشهادتان "لا إله إلا الله، محمد رسول الله" فلا ينبغي على الفرنسيين معارضة المصريين في عقيدتهم الدينية، بل عليهم أن يسلكوا معهم نفس السلوك الذي انتهجوه من قبل مع اليهود والإيطاليين، وعليهم أن يظهروا نحو المشايخ والأئمة الاحترام الذي أظهروه لحاخامات اليهود وأساقفة المسيحيين، وعليهم أن يكونوا متسامحين حيال الأعياد والاحتفالات التي يذكرها القرآن الكريم، وأن يحترموا المساجد كما يحترمون كنيس اليهود وكنائس المسيحيين والأديرة، وأن يحترموا ديانة محمد، كما يحترمون ديانة موسى وديانة المسيح ...

ويعتبر هذا المنشور من المعالم الأولى لسياسة بونابرت الإسلامية، وقد أراد أن يحمل جنوده على التزام هذه السياسة، ويلاحظ أن توزيع هذا المنشور كان مقصوراً على العسكريين الفرنسيين دون سواهم، وقد جاء في صورة أمر عسكري واجب التنفيذ، صدر عن القائد العام لجيش الشرق، ولم يعلم به الشعب المصري، واستهدف بونابرت منه اجتذاب قلوب المصريين نحو الفرنسيين، إذ يرون جيشاً أوروبياً مسيحيا يستولى على بلادهم عنوة، ولا يلجأ إلي أعمال النهب والسلب، والقتل وانتهاك الحرمات!

وكتب بونابرت أيضاً وهو على ظهر البارجة "أوريان" منشوراً باللغة الفرنسية موجهاً إلي الشعب المصري شرح فيه الخطوط الرئيسية للسياسة التي يعتزم انتهاجها في مصر، وقام المستشرقون المرافقون للحملة بترجمة المنشور إلي اللغة

العربية، وساعدهم مترجمون من الأسرى المسلمين الذين كان فرسان القديس يوحنا قد اعتقلوهم في جزيرة مالطة منذ سنوات طويلة، وألقوا بهم في غيابة السجن، وأطلق بونابرت سراحهم عقب استيلائه على الجزيرة وهو في طريقه إلي مصر، وقد جاءت الترجمة غير دقيقة وفي أسلوب ركيك، وأضيفت إليها - بتوجيه من بونابرت - عبارات لم ترد في الأصل الفرنسي وأمر بونابرت بطبع الترجمة العربية للمنشور، والحملة لا تزال في عرض البحر، حتى يكون المنشور معداً للتوزيع على أفراد الشعب المصري بمجرد وصول الحملة إلي الإسكندرية، وكان بونابرت قد أحضر مع الحملة مطبعة مزودة بالحروف الفرنسية واليونانية والعربية التي جمعها من باريس، ثم استكمل لها الحروف العربية الناقصة في مطبعة "البروباجندا" في روما، ولما نزلت الحملة في الإسكندرية في يوم الأثنين الثامن عشر من محرم ١٢١٣ الموافق الثاني من يوليو ١٧٩٨ وزع المنشور على المصريين، كما أرسلت نسخ منه إلي القاهرة مع أسرى مالطة، فوزعه في العاصمة قبل وصول الفرنسيين إليها؟

بدأ بونابرت منشوره إلي الشعب المصري بهذه العبارات الدينية: "بسم الله الرحمن الرحيم: لا إله إلا الله، لا ولد له، ولا شريك له في ملكه: من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابرته ... "

أكد بونابرت في أكثر من موضع في هذا المنشور أنه لن يتعرض بسوء للدين الإسلامي، بل أنه أكثر من المماليك عبادة لله، واحتراماً لنبيه صلوات الله عليه، وللقرآن الكريم، وقرر في منشوره أن الفرنسيين مسلمون مخلصون (جاءت هذه العبارة في الأصل الفرنسي: - إننا أصدقاء للمسلمين

المخلصين – Que nous sommes amis des vrais musulmans ولم يقع هذا التحريف في الترجمة عفوا، بل جاء مقصوداً، ولم يقبل بونابرت أن يسجل على نفسه هذا الإقرار في الأصل الفرنسي بأن الفرنسيين مسلمون مخلصون صادقون مهما قيل من مبررات أمام الرأي العام الفرنسي، ولكن قام المترجمون بإدخال هذا التعديل وغيره في الترجمة العربية بتوجيه من بونابرت!)

ومن مظاهر سياسة بونابرت الإسلامية تودده إلي المشايخ علماء الأزهر، أضفى عليهم الكثير من مظاهر الاحترام والتقدير، واستبقى لهم امتيازاتهم، وعلى رأسها حصصهم في نظام الالتزام في القرى، وتنظرهم على الأوقاف وأمر بأن يؤدي رجال حرس الشرف الذين يرابطون أمام مقر القيادة العامة للجيش الفرنسي في الأزبكية التحية العسكرية بالسلاح لعلماء الأزهر، إذا جاءوا إلي مقر القيادة، فإذا دخلوا هذا المقر خف لاستقبالهم رجال الياوران والمترجمون يرحبون بهم، ويقودوهم إلي الصالون الرئيسي في القصر، وتقدم لهم المرطبات ثم القهوة، فإذا فرغوا من تناولها دخل عليهم بونابرت ورحب بهم، وجلس وسطهم، محاولا أن يدخل في نفوسهم الطمأنينة والثقة. وكان يخوض معهم – بواسطة المستشرق "فنتور – J.M.Venture" الذي كان يقوم بوظيفة المترجم – في مناقشات علمية تتناول القرآن الكريم، ويطلب بونابرت من المشايخ تفسير بعض الآيات. وكان يحرص على إظهار الاحترام الشديد للنبي صلوات الله وسلامه عليه. ويخرج المشايخ من عنده وهم ألسنة تلهج بالشكر والثناء، ويذهبون إلي الجامع الأزهر، ويجتمعون بمن فيه، ويتحدثون إليهم عما شاهدوه وسمعوه. ويعلق بونابرت على هذا المسلك بأن المشايخ علماء الأزهر قد أدوا خدمات جليلة للجيش

الفرنسي. وقد أشاد في مذكراته بخصالهم، وقال إنهم طاعنون في السن، وإن علمهم وطباعهم وآرائهم، بل وعراقة أصولهم، وكرم محتدهم، كل أولئك يحمل الإنسان على إظهار مزيد من الاحترام نحوهم. ومضي بونابرت في مذكراته فقال: إنها كانت مفاجأة سارة لعلماء الأزهر حين أدركوا بعد شهر واحد من دخول الفرنسيين القاهرة أنهم أصبحوا ذوي نفوذ كبير، وأنهم يشتركون في شئون الإدارة والحكم، وكانت كل قراهم وممتلكاتهم الخاصة موضع الرعاية التامة، ولم يسبق أن تمتع هؤلاء الرجال بمثل هذا التقدير.

ويجدر بالذكر أن بونابرت أصدر في ٢٧ يوليو ١٧٩٨ – أي في خلال الأسبوع الأول لدخوله القاهرة – قرارا بتخصيص جواد لكل عضو من أعضاء ديوان القاهرة!

"البكري".. نقيباً للأشراف!

وكان من مظاهر سياسة "السلطان الكبير بونابرته" كما أطلق عليه أهل القاهرة، اهتمامه العميق بالأعياد الدينية الإسلامية، ففي شهر أغسطس ١٧٩٨ – وهو الشهر التالي لدخوله القاهرة – حلت مناسبة دينية يحتفل بها المصريون احتفالا شعبيا واسعا، وهي المولد النبوي الشريف، وكان الاتجاه العام لدى الشعب هو عدم إقامة احتفالات في هذه الذكرى الكريمة نظرا للظروف العصيبة التي كانت تجتازها البلاد وقتذاك. ولعل هذا الموقف السلبي في تلك المناسبة الدينية كان تعبيرا شعبياً دينياً عن السخط على الحكم الفرنسي، ولكن كان هذا الموقف من ناحية أخرى يتعارض تماما مع سياسة بونابرت الإسلامية، ومن ثم أمر بأن تقام احتفالات كبرى، تفوق في روعتها وبهائها الاحتفالات التي كانت تقام في هذه المناسبة على عهود السلاطين المماليك، وغيرهم من

الحكام المسلمين كما أمر أن يشترك الجيش والموسيقات العسكرية في الاحتفالات، وأن تطلق المدافع نهاراً، والألعاب النارية والصواريخ ليلاً، وأن تعلق أمام مقر القيادة العامة للجيش الفرنسي في الأزبكية قناديل ذات زجاج متعدد الألوان، لتبدو في غاية البهجة عند إضاءتها ليلاً.

وقد مهد بونابرت لاحتفالات المولد بشغل منصب ديني كبير هو منصب نقيب الأشراف، وقد ظل شاغرا منذ أن هاجر عمر مكرم إلي الشام عقب معركة إمبابة، ولعل المشايخ أعضاء الديوان أو المتطلعين إلي هذا المنصب من أسرة البكري هم الذين فاتحوا بونابرت في ضرورة شغل منصب نقيب الأشراف قبل أن تبدأ احتفالات المولد النبوي الشريف، والاحتمال الثاني هو الأصح، لأن أسرة البكري كانت صاحبة المصلحة في إعادة نقابة الأشراف إليها. وتمشيا مع هذا التوجيه أصدر بونابرت قراراً بتعيين السيد خليل البكري نقيبا للأشراف، وذهب بنفسه إلي دار الشيخ خليل البكري، حيث كان المشايخ أعضاء الديوان قد سبقوه إليها، وهناك وفي حضورهم خلع بونابرت خلعة ثمينة على النقيب الجديد، وكان هذا الإجراء بمثابة إعلام رسمي بتقلده المنصب، وممارسته لسلطات وظيفته، ويقول الجبرتي :

" وفي ذلك اليوم البس الشيخ خليل البكري فروة وتقلد نقابة الأشراف ونودي في المدينة بأن كل من كان له دعوى على شريف فليرفعها إلي النقيب"!

في الليلة الختامية للمولد النبوى

ويصف الجبرتي اهتمام "بونابرته ساري عسكر الفرنسيس" باحتفالات المولد، واشتراك الجيش الفرنسي في الاحتفال به، فيقول: "سأل صاري عسكر عن المولد النبوي ولماذا لم يعملوه

كعادتهم؟ فأعتذر الشيخ البكري بتعطيل الأمور وتوقف الأحوال، فلم يقبل، وقال لابد من ذلك، وأعطى له ثلثمائة ريال فرنساوي معاونة. وأمر بتعليق تعاليق وأحبال وقناديل واجتمع الفرنساوية يوم المولد ولعبوا ميادينهم، وضربوا طبولهم ودبادبهم، ووأرسل الطبلخانة الكبيرة إلي بيت الشيخ البكري، واستمروا يضربونها طوال النهار والليل بالبركة تحت داره، وهي عبارة عن طبلات كبار مثل طبلات النوبة التركية، وعدة آلات ومزامير مختلفة الأصوات مطربة، وعملوا في الليل حراقة نفوط مختلفة، وصواريخ تصعد في الهواء"

وأستمرت الاحتفالات بالمولد النبوي من ١٩ إلى ٢٣ أغسطس ١٧٩٨، أوقدت خلال لياليها القناديل، وأمست شوارع القاهرة وطرقاتها بمثابة أسواق ليلية. وأختص الفرنسيون ثلاثة بيوت في القاهرة بالإضاءة القوية الكثيفة الممتازة طوال الليالي الخمس التي استغرقتها احتفالات المولد، وكانت هذه البيوت هي: دار بونابرت، ودار ديبوي الحاكم العسكري لمنطقة القاهرة، ودار السيد خليل البكري. وكان أرباب الطرق الصوفية والأتباع والمريسدون والدراويش وأصحاب الأشاير ومن إليهم يطوفون في مواكب جرارة، يحملون المشاعل والأعلام، وينشدون في أصوات هادرة بين دق الطبول والتكبير، وذكر أسم الرسول صلوات الله عليه: وسارت في أثر مواكب الدراويش مواكب الطوائف، يتقدم كل طائفة شيخها ونقيبها وأعلامها وشاراتها.

"بونابارته" فى بيت البكرى!

وحضر بونابرت الليلة الختامية للمولد في دار السيد خليل البكري، كما حضرها العلماء الفرنسيون أعضاء مجمع مصر العلمي، وكبار ضباط الجيش، وجلس القائد العام أرضا

ساعات طوالا يستمع إلي المقرئين يتلون آيات القرآن الكريم، وإلي المنشدين وهم يتلون "السيرة النبوية" والتواشيح الدينية، وكان كبار المشايخ يجلسون أرضا حوله، وكل منهم يمسك مسبحة في يده، ينصت لما يتلى. وبلغ من دهاء بونابرت أنه أخذ يقلد الحاضرين، فكان يهتز ذات اليمين وذات الشمال كأنه مدرك لما يقولون، متأثر بما يتلون، وأظهر صبراً لم ينفد في شهود حفلة الذكر من بدايتها حتى نهايتها، وقد تخللتها مأدبة عشاء أقامها السيد خليل البكري. ومدت الأسمطة على الطريقة الشرقية: وأشترك الضيوف الفرنسيون مع المدعوين المصريين في الجلوس أرضا على وسائد إلي هذه الأسمطة وكان السماط الذي جلس إليه بونابرت، والسيد خليل البكري يتوسط الأسمطة الأخرى، وقد بلغ عددها خمسين سماطا. وكان بونابرت يأكل بيديه، فيمد يمينه في تلال الأرز وأكوام اللحم وأطايب الطعام المقدم على صوان نحاسية ضخمة مستديرة، وحذا الضيوف الفرنسيون على مضض حذو بونابرت، فكانوا يأكلون بأيديهم مع المشايخ والأعياد، ويشربون الماء المعطر برائحة الورد!

ويقول المؤرخ "نقولا ترك" في ذكر ما صنعه "أمير الجيوش" في مولد النبي الواقع في ١٢ ربيع الأول سنة ١٢١٣ أن أمير الجيوش بعد تملكه القاهرة في أثنى عشر ربيع أول كان مولد النبي محمد فصنع في ذلك الأوان مولدا عظيما على بركة اليزبكية كعادة أهل القاهرة وكانت ليلة عظيمة لأنه صف جميع العساكر الموجودة داخل القاهرة صفوفاً بطبولهم والآلات الموسيقية وأمر بحراقات عظيمة وضرب مدافع كثيرة وكان احتفالاً عظيماً ومولداً فخيماً وحضر في الوليمة بمنزل الشيخ خليل البكري لأن هذا المولد مختص بالسادات البكرية وذلك مع كامل الجنرالات والفيسالية والعلماء والأعيان

وأصحاب الديوان ثم أولى الشيخ خليل البكري منصب النقابة عوضاً عن السيد عمر مكرم نقيب الأشراف. .

وقد ضربت ذلك النهار مدافع كثيرة منساير الأماكن ومن القلعة الكبيرة وصنعت الفرنساوية في تلك الليلة مدافع كثيرة من ساير الأماكن ومن القلعة الكبيرة وصنعت الفرنساوية في تلك اللية "حراقات عظيمة" لم تكن صارت في المدن القديمة وكان أمان شاملاً لكل الناس وخرجت النسا والرجال من دون بأس وصنع أمير الجيوش وليمة عظيمة لساير الأعيان والعلماء وأهل الديوان والجنرالية الفيسالية وحكام الخطط المصرية وقد أعجبت أهل القاهرة تلك الاحوال الباهرة والأمور الصايرة "!

وقد انتهج نابليون سياسة إعلامية مدروسة عقب الاحتفالات بالمولد النبوي حيث أرسل رسالة بتاريخ ٢٨ أغسطس ١٧٩٨ إلي الجنرال مارمون Marmont يطلب منه مقابلة الشيخ محمد المسيري كبير علماء الإسكندرية ورئيس ديوانها، ويشرح له كيف احتفل بونابرت بالمولد النبوي في القاهرة، وأمره بأن يذكر له في ثنايا الحديث أن بونابرت يجتمع ثلاث أو أربع مرات كل عشرة أيام مع كبار المشايخ ورؤساء الأشراف الذين ينحدرون من الدوحة النبوية الشريفة، وأن له مع هؤلاء وأولئك أحاديث ومناقشات، ثم قال في رسالته: "أنه لا يوجد من هو أكثر مني اعتقاداً في طهارة وقدسية الديانة المحمدية".

وفي ذات اليوم - ٢٨ أغسطس - أرسل بونابرت إلي الشيخ محمد المسيري رسالة كان مما جاء فيها: "تعلمون التقدير الخاص الذي شعرت به نحوكم منذ اللحظة الأولى التي عرفتكم فيها، إني أرجو ألا يتأخر الوقت الذي استطيع فيه جمع كل الرجال العقلاء، والمتعلمين في البلاد، وإقامة نظام

موحد يقوم على مبادىء القرآن التي هي وحدها المبادىء الحقة، والتي هي وحدها قديرة على إسعاد الناس ".

ومضى بونابرت في سياسته الإعلامية، مستغلا احتفالات المولد النبوي الشريف، فأرسل في ٢٩ أغسطس إلي الجنرال كليبر نسخة من عدد جريدة Courrier de l'Egypte الصادر في ذات اليوم، وكان هو العدد الأول من هذه الجريدة الإخبارية الفرنسية التي أصدرتها قيادة الحملة، وكانت تطبع في القاهرة وقد تضمن هذا العدد مقالاً عن الاحتفالات التي أقيمت بالقاهرة بمناسبة المولد النبوي، وإسهام الفرنسيين في هذه الاحتفالات إسهاماً رسمياً، وقد طلب بونابرت من كليبر اتخاذ الإجراءات لترجمة هذا المقال إلي اللغة العربية، والعمل على طبعه وإذاعته في كافة أنحاء الشرق، وأن يرسل إلي بونابرت أربعمائة نسخة من الترجمة العربية.

لقد أدرك الشعب بسليقته أن هذه الأفعال ليست صادرة عن عقيدة حقيقية وإيمان صحيح، وإنما هي ضرب من الخداع والنفاق، وأن بونابرت استهدف منها تخدير الشعب، حتى تتوطد دعائم الحكم الفرنسي في مصر، ثم يظهر بونابرت على حقيقته. وهكذا جاء بنتيجة عكسية إسراف بونابرت في التظاهر باحترام الإسلام! .. وقد رأينا كيف حلل الجبرتي، في عام ١٧٩٨، بيان بونابرت وقد نظر الشيخ الشرقاوي إلي الأمور بالشكل نفسه في السرد القصير الذي قدمه للاحتلال الفرنسي :

"إنهم فرقة من الفلاسفة إباحية طبائعية ... يتبعون عيسى عليه السلام ظاهرا .."!

لقد كان نابليون يحلم بأن يكون إمبراطوراً للشرق .. على رأسه عمامة" وفي يده القرآن! .. كان يطمح لأن يحقق مآثر الإسكندر في الهند، لكن أحلامه الوردية آنسته أنه لا

يستطيع أن يكون ذلك الملك القديم الذي يطـوف مـن حولـه ملايين العبيد، وأن شعوب عصره لا تقبل أن تنحر نفسها على مذبح فاتح حالم!

وهكذا حطم أهل القاهرة أحلام نابليون، التـي إنهـارت تماماً على "أسوار عكا" وليسدل الستار على أهم فصول دراما "السلطان الكبير"! ... لكن بوابة حضارية كانت قد انفتحت بين الشرق والغرب!

معالم .. وشوارع ليست خلفية

سانت كاترين

حيث تنتصر الفضيلة على الصحراء!

عندما تشرق الشمس على دير "سانت كاترين – St. Cathrine" على قمة جبل طور سيناء، تتكشف لنا نقوشا لذكريات، كتب لها أن تدوم إلى الأبد!..

أثر خالد .. وسجل تاريخى لمن يريد أن يستطلع سر الذين شيدوا للخلود، ويستحضر صور الرهبان الذين أحلوا "سر المحبة" محل الخوف من مواجهة ما يجل عن الوصف "الله محبة".

فهناك من المعالم والمشاهد، ما يمكننا أن نجوس خلاله ونتأمله، ومنها ما نكتفى بالمرور به، وأخرى نحب أن نمكث ونعيش فيها، وكلها تتميز بدرجة من الروعة .. بيد أن المعالم التى نحب أن نعيش فيها: هى أسمى من غيرها .. ودير سانت كاترين من بين هذه المعالم!

وتروى الأساطير أن الدير قد شيد فى ذات المكان الذى آنس عنده موسى – عليه السلام – نارا ، فأراد أن يأتى منها بقبس بالقرب من شجرة "العليقة" .. على قمة الجبل الذى صعد إليه موسى، ليتلقى ألواح الشريعة الموسوية، وعلى تل "الصفصافة" القريب، صنع السامرى لبنى إسرائيل عجلا من ذهب ليعبدوه، فأضلهم عن ذكر الله!

القديسة كاترين

عاشت القديسة كاترين بمدينة الأسكندرية، فى عهد الإمبراطور "مكسيمانوس ٣٠٥-٣١٣م" نشأت فى أسرة نبيلة ثرية، كان عمرها ثمانى عشرة سنة، حينما أبت أن ترتد عن المسيحية، بل سعت إلى إقناع بعض العلماء فإعتنقوا المسيحية،

فما كان من الإمبراطور الطاغية إلا أن أمر بإحراق أولئك العلماء، ثم أمر بتعذيبها أشد العذاب، فربطوها في عجلة التعذيب، فتحملت آلاما فاقت طاقة البشر، وظلت ثابتة على إيمانها، حتى أمر بقطع رأسها فإستشهدت عام ٣٠٧.

وبعد مضى نحو خمسمائة عام، رأى أحد الرهبان رؤيا، بأن الملائكة قد حملت جسد القديسة، ووضعته فوق قمة الجبل الذى يطلق عليه الآن "جبل كاترين" .. وأطلق اسمها على الدير، بعد أن كان يعرف باسم دير العذراء.

ويرى بعض المؤرخين أن "كاترين" ليس اسماً للقديسة الشهيدة، وإنما لقبت بهذا اللقب الذى يعنى فى الإغريقية "الطاهرة" .. وقد إنتقلت شهرتها إلى الغرب، وفى هذه "الأسطورة الذهبية" كان حديث أحد رهبان مدينة روان بفرنسا، الذى رحل إلى سيناء، فى القرن الثامن الميلادى، وإنقطع للعبادة بالدير سبع سنوات، حتى انفصل أصبع من يد القديسة، فحمله معه إلى ديره بمدينة روان.

ثم أسطورة "ريتشارد الأول" دوق نورمانديا، الذى حملته الملائكة فى الرؤيا إلى هذا الدير، حيث أدى الصلاة لله وسجد للقديسة كاترين!

ومن مدينة روان ذاعت سيرتها فى كل أرجاء أوروبا، ورويت الحكايات عن "الأصبع الذى يخرج منه زيت مقدس يأتى بالمعجزات" ..!

و روى فى تاريخ "جان دارك" شهيدة فرنسا، أن القديسة كاترين قد ظهرت لها وشجعتها لتتحمل آلام الموت حرقا !

عمارة دير سانت كاترين

يقول "بروكوب" المؤرخ البريطانى: "فى المنطقة التى كانت تسمى بلاد العرب، وتسمى الأن فلسطين الثالثة،

صحراء واسعة لا زرع فيها ولا ماء، يوجد جبل ناء لا يمكن الصعود إليه إلا بشق الأنفس، قريبا من البحر الأحمر، يسمى جبل سيناء، يسكنه رهبان ونساك نذروا حياتهم للصلاة والصوم والتأمل والتفكر فى الآخرة .. ولما رأى الإمبراطور "جوستينيان Justinian" أنه ليس بإستطاعته أن يمدهم بأية مساعدة، لزهدهم فى المال ومتاع الدنيا، قرر أن يبنى لهم معبدا باسم السيدة العذراء، وفى سفح الجبل شديد لهم حصنا عام ٥٢٧ م، وخصص لهم قوة من من الجنود لحماية الحصن وتأمين الطريق إلى الأراضى المقدسة بفلسطين، كما أمر ببناء كنيسة فى هذا المكان المقدس كانت تعرف بكنيسة "التجلى" ..

وتذهب بعض الروايات إلى عصر أكثر قدما ، فتقول أن الإمبراطورة "هيلانة Helena" والدة القيصر قسطنطين، عقب زيارتها لفلسطين، قد توجهت عام ٣٤٢ م لزيارة رهبان جنوب سيناء، فتأثرت كثيرا بزيارة الشجرة المقدسة عند سفح جبل موسى، فأمرت ببناء كنيسة فى نفس هذا المكان عرفت باسم العذراء مريم، كما أمرت ببناء حصن يحتمى به الرهبان من هجمات البدو.

وللدير سور عظيم مشيد بأحجار الجرانيت، يرجع جزء منه إلى السور الأصلى الذى شاده جوستينيان، ويحيط السور بعدة أبنية داخلية، بعضها فوق بعض، تصل أحيانا إلى أربعة طوابق، تخترقها ممرات ودهاليز، ومن إختلاف أشكال الأبنية، يستدل الزائر على أنها شيدت فى عصور مختلفة، ويتراوح أرتفاع الجدران بين ١٢ و١٥ مترا ، وسمكها نحو المترين وربع المتر، وبالأركان أبراج، فيبدو الدير شبيها بحصون القرون الوسطى.

وأهم المنشآت التى يضمها الدير: الكنيسة الكبرى، كنيسة العليقة، مسجد من العصر الفاطمى، مكتبة، قلايا الرهبان

والزوار، معصرة، مخازن للحبوب والمؤن، مطابخ، طاحونتان، وعدة آبار.

وللكنيسة الكبرى، والتى تعرف بكنيسة "الإستحالة" شيدت على طراز "البازيلكيا" الرومانية: رواق فى الوسط، وجناحان بالجانبين الأيمن والأيسر، يفصلهما صف من الأعمدة، وبها منبران من الرخام، أحدهما مخصص لمطران الدير، وهيكل رائع بنى على شكل نصف قبة مرسوم عليها صورة للسيد المسيح، وصور للرسل والأنبياء، ومنها لوحة لموسى وهو يتناول الوصايا العشر من يد امتدت إليه من أعلى، ولوحة لموسى وهو يخلع نعليه، وصورة للملكة تيودورا، وأخرى للإمبراطور جوستينيان .. ونقوش باليونانية والعربية، تخلد ذكرى من أسهموا فى ترميم الدير أو نذروا له الأموال، بالإضافة إلى مجموعة نادرة من الأيقونات تزدان بها الجدران، أقدمها وأثمنها أيقونتا العذراء وكاترين، كما تجذب الأنظار مجموعة من القناديل النفيسة، وعند الباب الجنوبى، إلى يمين المذبح، صندوق من الرخام الفاخر تحفظ فيه جمجمة القديسة ويدها التى تزينها عدة خواتم ثمينة من هدايا الزوار.

وفوق باب الدير، لوحتان من الرخام، منقوش عليهما بالعربية واليونانية هذا النص التذكارى: "أنشأ دير طور سيناء وكنيسة المناجاة الفقير لله الراجى عفو مولاه الملك الرومى المذهب يوستينيانوس، تذكارا له ولزوجته تاوضورة، على مرور الزمان حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، وتم بناؤه بعد ثلاثين سنة من ملكه، وتصب له رئيسا اسمه خولاس، وجرى ذلك سنة ٦٠٢١ لآدم الموافق لتاريخ السيد المسيح ٥٢٧".

الدير فى كتابات الرحالة الاجانب

شهد القرن التاسع عشر موجات متزايدة من حجاج "الأرض المقدسة" .. لقضاء عيد الفصح خاصة فى القدس وزيارة الأماكن التى باركها المسيح والسيدة مريم العذراء والبحث عن مشاهد توراتية .. وشكلت هذه الرحلة فى الأدب الفرنسي جزءا مما عُرف بــ"الحج إلى الصحراء" فقد كان الأدباء الفرنسيون يعدون الرحيل فى الصحراء: فضاء أدبيا وجماليا، وقد أنتجوا فصولا رائعة فى وصف الصحراء العربية وفى وصف البدوى والبادية.

وقد حرص هؤلاء "الحجاج" والادباء وكثيرا من الرحالة والعلماء والفنانين المستشرقين على زيارة دير سانت كاترين منهم الإيطالى "بيترو ديللافالى" والفرنسى "ريفو" والفنان البريطانى الأشهر "دافيد روبرتس" الذى سجل فى ألبومه الفريد عددا من المعالم المقدسة، وكان منهم ايضا: ليون جيروم وبول لنوار وبوناه .. كما زارها كثيرا من المصوريين الفوتوغرافيين اشهرهم: فرانسيس فريث وبونفيل وبواتو .. وزارها "لوتين دى لافال "بتكليف من الحكومة الفرنسية وخصها الاديب الفرنسى الاشهر بيير لوتى بزيارة عام ١٨٩٤ كما تجدر الاشارة الى رحلة الاديب اليونانى "كازانتزاكيس" عام ١٩٢٧ والتى نالت شهرة بعد ترجمتها الى العربية، بغض النظر عن الاخطاء الفادحة فى الترجمة!: والعالم الألمانى "بوركهارت" الذى زار الدير أكثر من مرة وكان أول من وجه البحث العلمى نحو الوثائق والمخطوطات النادرة التى اشتهر بها الدير، إلا أنه لم يتمكن من حصر كل محتويات المكتبة، وقد وجه اهتمامه إلى دراسة المخطوطات العربية التى كان يبلغ عددها حتى ذلك العام ١٨٢٣ نحو سبعمائة وثيقة، وقد أقام العالم "تيشندورف" عدة مرات بالدير فى الفترة من ١٨٤٤

إلى ١٨٥٩، وتمكن من الإستيلاء على عدد من المخطوطات والوثائق، كان أشهرها المخطوط المعروف باسم " Codex Syriacus" التوراة مكتوبة بالإغريقية، يعود تاريخها إلى القرن الرابع الميلادى، وقد نجح فى تجميع الصحف، الواحدة تلو الأخرى، حتى عثر على النصوص كاملة، ثم أهدى هذا المخطوط الفريد إلى قيصر روسيا، وفى عام ١٩٣٣، إشترته الحكومة البريطانية بمبلغ مائة ألف جنيه إسترلينى وأهدته إلى المتحف البريطانى.

والكونتيس "فاليرى بواسيه دى جاسباران "والتى كانت تنتمى إلى عائلة أرستقراطية فرنسية .. فى الخامس من أكتوبر عام ١٨٤٧ وصلت إلى اليونان، وفى بداية ديسمبر وصلت إلى مصر ثم سلكت الطريق التقليدى من القاهرة صعوداً فى النيل حتى "دندور" فى يناير عام ١٨٤٨، وفى منتصف مارس إجتازت سيناء حتى القدس، وبقيت حتى قضت الأسبوع المقدس، ثم زارت بيروت.

وكتبت الكونتيس "وعلى قمة جبل سيناء .. يتألق دير سانت كاترين: الذى تروى الأساطير أنه شيد فى ذات المكان الذى آنس عنده موسى ناراً فأراد أن يأتى منها بقبس، بالقرب من شجرة "العليقة"، وللدير سور عظيم مشيد بالجرانيت، جزء منه السور الأصلى الذى شيده "جوستنيان" ويحيط السور بعدة أبنية داخلية بعضها فوق بعض، أحيانا أربعة طوابق، تخترقها ممرات ودهاليز، ومن اختلاف أشكال المبانى يستدل الزائر على أنها شيدت في عصور مختلفة..."

نزلت الكونتيس وزوجها الكونت ضيفين على رهبان الدير، وتحدثت عن إنطباعاتها فكتبت: "كنت أراقب المصباح الصغير الذى كان ضوءه يرتجف امام الأيقونة، حتى تنبهت إلى النواقيس التى دقت باعثة إرتجافات قصية فى الصمت

المطلق، ثم فقدت وعيى بكل الأشياء حتى اللحظة التى رأيت فيها تسرب شعاع الشمس من خلال نافذتى الخشبية، كان فتح الباب يمثل لحظة مفاجئة أقرب إلى الانبهار لشدة غرابة المكان، كانت الأشياء العجيبة التى لمحناها بالأمس عند وصولنا موجودة فى ذلك الصباح البارد منتصبة وحقيقية وواضحة إلى حد غريب تحت الضياء الأبيض الساطع، متراكمة وضعت بعضها فوق بعض بلا أفق لشدة ما كان الجو نقيا، وصامتة كما لو أنها ماتت إثر شيخوخة ألفية، فكانت هناك كنيسة بيزنطية ومسجد. وقلايات وحجرات صغيرة وحواجز وسلالم متشابكة وأروقة وأقواس صغيرة تهبط إلى المنحدرات، محاطة جميعها بالأسوار الضخمة، ارتفاعها نحو ثلاثين قدما، معلقة على جوانب جبل سيناء العملاق، كانت الشرفة التى تنفتح عليها حجراتنا وتشكل جزءا من مجموع الأبنية التى لا عمر لها، بعضها أصبح أطلالا، البعض منها باللون الأحمر الجرانيتى الأصلى، واكتسى البعض الأخر لون الكلس الأبيض، وعندما كنا نستنشق الهواء الطلق حتى أدركنا وجودنا على ارتفاع شاهق جدا، مع ذلك فقد كان هنالك ما يعلونا من جميع الجهات، كما لو كنا فى قاع بئر، كانت جميع قمم جبل سيناء تنتصب نحو السماء، وجميعها من الجرانيت الأحمر القانى بلا ظلال عمودية، تصعد إلى الأعلى فتصيبك بما يشبه الدوار والرعب، والسماء صافية فى زرقة رقيقة عميقة، والشمس ترسل ضياءها على نحو رائع، وكانت الثلوج البراقة مازالت تغطى كل شئ وتتوج أعالى الأسوار العتيقة".

وسمح لها الرهبان بزيارة: غرفة المقدسات .. عدد هائل من الشمعدانات والأيقونات الذهبية .. وبين واحة النخيل وأشجار السرو واللوز والزيتون والبرتقال المزهرة إستمعت إلى معجزات القديسة كاترين و"حكايات حقيقية وبسيطة عن الدير"..

كان نهار القافلة الصغيرة يبدأ فى الساعة الرابعة صباحا، حينئذ ينهض الجميع: الكونتيس وزوجها وجانيت وانطونيو بادئين بترتيب ما بداخل الخيمة حتى لا يبقى سوى أن يضعوا الفرس والأغطية فى الكيس، ثم يتناولوا إفطارهم مع أقداح القهوة .. "وبينما يكون المرافقون منشغلين بتناول الافطار بدورهم، نأخذ توراتنا ونذهب لنجلس على مبعدة خطوات أمام الشمس التى تسطع على الصحراء مثل كرة مشتعلة فنقرأ ونصلى، انها لحظة مراسيمية وعذبة، تتركنا فى غبطة عميقة!".

كانت الكونتيس وقد عايشت البدو تنظر إليهم بعطف كبير "هؤلاء الذين يتوارثون تقاليدهم القديمة وبساطتهم، نفوسهم الأبية قادرة على الإدراك والسيطرة على الأمور .. يعيشون على حبات قليلة من التمر وقدح من القهوة المرة ورغيف خبز .. لم تتغير حياتهم منذ آلاف السنين، يحكمهم شيخ القبيلة بقانون غير مكتوب، وهم أكثر شعوب الأرض فقرا وأكثرها كرما وسخاء!"

إن ما يميز أسلوب الكونتيس دى جاسباران أنها تجعلنا نعيش معها فى فضاء أدبى رحب، فهى لا تقدم مجرد بورتريهات صحراوية، بل صور نابضة بالحياة فى إطار من الشاعرية .. وهل يمكننا القول بأن شاعرية الكونتيس الفرنسية تستلهم رومانسية الصحراء فى مخيلتها الغربية!

وتجدر الإشارة إلى ما سجله الشاعر والروائى اليونانى الأشهر "نيكوس كازنتزاكيس" فى يوميات رحلته إلى مصر عام ١٩٢٧، خلال زيارته لدير سانت كاترين، فكان حريصا أن يلزم نفسه بما توحى به مشاعره، فى انطباعاته عن تلك الحياة الفطرية التى حفظت للشرق القديم الغامض سحره وفتنته .. فيقول: ".. بعد رحلة استمرت ثلاثة أيام، فى هذه

الصحراء العابسة، وجدت قلبى يثب لحظة مشاهدتى أشجار اللوز المزهرة، تجولت بين واحات النخيل التى تحيط بالدير، أصبحت إنسانا شرقيا ، فأنا هنا وسط هذه الجبال التى ذكرت فى الكتاب المقدس، أقف على هذا المشهد الرائع الذى ورد ذكره فى العهد القديم، حيث يرتفع أمامى من جهة الشرق "جبل المعرفة" المكان الذى ثبت فيه موسى "الأفعى النحاسية" .. وإلى الغرب سلسلة جبال سيناء والقمة المقدسة: المكان الذى تحدث فيه الرب إلى موسى ..

لم يتغير شيء فى موروثات وتقاليد الرهبان منذ آلاف السنين، إنهم يعيشون كما كانوا فى عصر شعيب وموسى .. داخل كنيسة الدير، يبهر المرء لهذه الثروة، فالمشهد يزدحم بالشمعدانات الفضية، والأيقونات الذهبية تسمو فى أبهة وفخامة، تزدان بها الجدران والأعمدة، وفى غرفة المقدسات تكدست أمامى صناديق الذخائر الضخمة، وما تحويه من تذكارات مقدسة، أردية كهنوتية ذهبية وزخارف فخمة من الفن البيزنطى مغطاة باللآلىء، تيجان تتألق بالأحجار الكريمة، تحف عاجية، صلبان ثمينة، تعاويذ وصولجانات .. كل هذا الكنز النادر حفظ بعيدا فى هذه الصحراء، منذ قرون عديدة، متحف فريد لسير القديسين فى العالم .. أضاء "أمين غرفة المقدسات" الشموع، وبدأ يصلى، وبخشوع فتح التابوت الكبير، الذى يسجى فيه جثمان القديسة كاترين، كانت يدها محلاة بالأساور، والتاج الملكى يزين رأسها .. فى الخارج، ألقيت بنظرات رفيقة على سور الدير وأبراجه، تتوسطه الكنيسة، وإلى جانبها ترتفع منارة جامع أبيض صغير، وشعور عميق بأن الضمير الإنسانى السامى يتشكل هنا .. وهنا تنتصر الفضيلة على الصحراء!

قلعة "الناصر صلاح الدين"

تعتبر قلعة صلاح الدين من أفخم القلاع الحربية التي شيدت في تاريخ الحضارة الإسلامية، بناها السلطان الأمجد الناصر "صلاح الدين الأيوبي "أشهر من عرفهم التاريخ الإسلامي أبان الحروب الصليبية. وأسوار هذه القلعة الشامخة مر بها كثير من أحداث تاريخ مصر خلال العصور الأيوبية والمملوكية والعثمانية حتى أيام محمد علي. أحداث تباهي بأمثالها كثيرا من الشعوب الحية، تؤلف ثبتا مجيدا في معالم تاريخ العالم الإسلامي. مثلها في ذلك قلعة حلب، تلك التي نهض بها الأيوبيون في سورية.

وتطل "قلعة الجبل "على ميدان صلاح الدين، الذي عرف أيضا بميدان "الرميلة "وكان به الميدان السلطاني أو ميدان القلعة وسمي أيضا "قره ميدان "أي الميدان الأسود، وكان في الجزء الشمالي منه سوق الخيل تجاه مدرسة السلطان حسن، وتعرف الرميلة بالمنشية.

ويتصل بميدان صلاح الدين طائفة من الآثار الجليلة: منها مدرسة السلطان حسن ومساجد الرفاعي، والمحمودية، وقاني باي الرماح، وفي وسطه ضريح الزعيم الوطني مصطفى كامل. وكانت به "محطة الميدان "التي كانت تؤدي قطاراتها إلي حلوان، وكذلك "مصطبة المحمل "ويطل على هذا الميدان من شماله درب اللبانة وفيه "دار الفنانين "وتكية تقي الدين البسطامي، ومسجد جوهر اللالا وبعض من الآثار الإسلامية.

ويتفرع من ميدان صلاح الدين عدة طرق تطل عليها العمائر القديمة، نذكر منها شارع الأمام الشافعي، وشارع الأقدام المؤدي إلي مقابر السيدة نفيسة، وشارع السيدة عائشة، وشارع درب الحصر، وشارع شيخون، وعلى امتداده شارع

الصليبة، وشارع قره قول المنشية المؤدي إلـي شـارع دار السيوفية، وعلى امتداده شارع الركبية، وشارع القلعة (محمـد علي سابقا) ويؤدي إلي ميدان باب الخرق (أحمد ماهر اليـوم) ثم إلي ميدان العتبة الخضراء، وشارع سوق السلاح المنتهـي إلي شارع التبانة والدرب الأحمر، وسكة المحجر الممتدة إلي شارع باب الوزير. وإلي جوار القلعة من شمالها يتفرع شارع "باب الوداع "المؤدي إلي القرافة.

كانت "قلعة الجبل "مدينة كاملة تشرف على القاهرة وعلى كل نواحي الحياة في المدينة الكبيرة التي كانت تتطلع إليها من عمق يزيد عن ١٥٠ مترا. فقد بناها صلاح الـدين الأيـوبي لتكون مقراً للحكم في مصر.

ففي يوم قائظ من أيام صيف عام ٥٧٢ هجرية، ركـب صلاح الدين الأيوبي حصانه الأبيض، واتجه في حاشية مـن اتباعه خارج القاهرة، وأخذ يصعد جبل المقطم، حتى وصـل إلي ربوة واسعة بنيت في وسطها قبة عرفت بقبة الهواء. دار فيها قليلا، ثم نظر خلفـه .. فـرأى القـاهرة كلهـا بنيلهـا، بأهرامها، بمبانيها، ومآذنها وقبابها ومساجدها .. كلها قابعـة تحت سنابك خيله .. فأحكم قبضته على اللجام، وابتسم صلاح الدين، ونظر إلي وزيره .. "الطواشي بهاء الدين قراقـوش"، وقال له: هنا .. هنا تبنى القلعة!

ونحن هنا لا نؤرخ لهذه الشخصية الفذة، فقد أرخ لسيرته العاطرة طائفة لا تحصى من أعـلام المـؤرخين المـسلمين والغربيين. فصلاح الدين كردي الأصل، عاش في دمشق فـي صحبة الشيوخ وعلماء الدين، فنشأ نشأة دينية خالصة وكـان وديع الخلق، حلو اللسان، قال عنه العلامـة "عبـد اللطيـف البغدادي" لما حظى بمقابلته بالقدس: "فرأيت ملكاً عظيماً يمـلأ العين روعة والقلوب محبة قريباً بعيداً سهلاً مجيبا. وأصحابه

يتشبهون به يتسابقون إلي المعروف كما قال تعالى: (ونزعنا ما في صدورهم من غل) وأول ليل حضرته وجدت مجلسا حافلا بأهل العلم يتذاكرون في أصناف العلوم وهو يحسن الاجتماع والمشاركة ويأخذ في كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق ويتفقه في ذلك ويأتي بكل معنى بديع"!

وقد خلف صلاح الدين بصماته العميقة في القاهرة، أكثر من أي حاكم آخر. فلم يكن عمله مقصورا على بناء القلعة، بل الحق أنه كان أول من جعل القاهرة قاعدة زاهرة لسلطانه العظيم، ويرجع إليه الفضل في توسيع القاهرة التي بناها الفواطم لتكون معقلاً لسيادتهم وحكمهم. وهكذا لم يتبع صلاح الدين سياسة أسلافه، فامتدت القاهرة وتوسعت إلي الجنوب والشرق، وشيد حولها سوراً منيعاً، لكنه لم يعش طويلا حتى تتحقق آماله، ثم دعم تلك الأسوار ببناء قلعة الجبل في ذلك الموضع الذي كان فيه قبة عرفت بقبة الهواء بناها حاتم بن هرثمة والي مصر في عام (١٩٥هـ/٨١١م). ولما بنى أحمد بن طولون القصر والميدان تحت قبة الهواء كان كثيراً ما يقيم فيها، فأنها تشرف على قصره، وعنى بها الأمير أبو الجيش "خمارويه أبن طولون" ولما زالت دولة الطولونيين وخرب القصر والميدان كانت قبة الهواء مما خرب، ثم عمل موضع قبة الهواء مقبرة وبنى فيها عدة مساجد كما أشار مؤرخ الخطط "المقريزي".

سور القاهرة

كانت قلعة الجبل ذروة أعمال صلاح الدين الدفاعية عن القاهرة فقد أمر بأن يمد سور القاهرة الفاطمية الشمالي إلي الغرب حتى يلتقي بميناء المقسي على النيل حيث يقوم اليوم مسجد أولاد عنان. ومده إلي الشرق حتى يتصل بالسور

الفاطمي الشمالي القديم. ثم شيد سورا جديدا وأمده من الشمال إلي الجنوب في الشرق ليلتقي بالقلعة وذلك خارج السور الفاطمي القديم. وهذا السور هو الذي يقع شرقي حي الدرب الأحمر في مواجهة آكام الأنقاض التي أزيلت في الأعوام الأخيرة. وفي جنوب قلعة الجبل، امتد سور أيوبي يبدأ من القلعة ويتصل بباب القرافة (حيث كان يقوم سجن المنشية) إلي الفسطاط ماراً بجنوب مشهد السيدة نفيسة. وقد بقى ذلك الجزء من السور ويقدر طوله بحوالي خمسة كيلو مترات ونصف، حتى شيد على جزئه الشمالي مجرى للمياه أقامها السلطان الناصر محمد ابن قلاوون. ويمكن القول بأن أحسن ما بقى من أسوار صلاح الدين حتى اليوم، هو الجزء الذي ذكرناه، ويضاف إليه ذلك الجزء الشمالي الشرقي الذي يؤلف ركن القاهرة الفاطمية عند برج الظفر المواجه لجبل المقطم. وكان هذا الجزء الشمالي الشرقي من السور مختبئاً حتى عهد قريب تحت الأنقاض التي عرفت بآكام البرقية ..

أقدم صلاح الدين على تنفيذ بناء القلعة، فأقام على عمارتها وزيره الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي، فشرع في بنائها عام ٥٧٢هـ/ ١١٧٦ م، كما بنى سور القاهرة الذي زاده، وقد اقتضاه ذلك هدم ما هناك من المساجد وإزالة القبور، وتدمير بعض الأهرام الصغيرة التي كانت بالجيزة ليستخدم حجارتها في البناء. وظل العمل جاريا فيها حتى توفى صلاح الدين قبل أن يتم بناؤها.

ولدينا كتابة منقوشة في لوحة فوق باب المدرج تشهد ببناء القلعة في أيام صلاح الدين، ونص هذه الكتابة ما يلي:-

"بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذه القلعة القاهرة المجاورة لمحروسة القاهرة التي جمعت نفعاً وتحسينا وسعة على من التجأ إلي ظل ملكه وتحصيناً، مولانا الملك الناصر

صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب محيي الدولة أمير المؤمنين في نظر أخيه وولي عهده الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد خليل أمير المؤمنين، على يد أمير مملكته ومعين دولته قراقوش بن عبد الله الملكي الناصري في سنة تسع وسبعين وخمسمائة".

واستناداً إلي شتى المصادر التاريخية، يمكن القول بأن الجزء الأكبر من القلعة الأيوبية قد تم في عام ٥٧٩هـ/ ١١٨٣ م. أما "بئر يوسف "فمن المحتمل أنها تمت في عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧ م، وهو العام الذي أسر في غضونه صلاح الدين كثيراً من الفرنج، استغلوا في حفائرها وبنائها. وكان حول السور الشرقي من القلعة خندق ولا يزال أثره ظاهراً!

أعجب شارع فى العالم ..!
على رأسه جامع وفى وسطه متحف
ومكتبة وتحت أقدامه مسرح!

بعض الزمان يتعلق بأحجار المباني ويلتصق بها كالتراب .. وقلب القاهرة هو دائما قلب مصر: حضاريا وسياسيا وإجتماعيا وإقتصاديا سواء كان فى ساحة الأزهر قديما أو فى ميدان التحرير حديثا ، وإذا كان القلب القديم عتيق الطراز شرقا ، ففى الغرب كان القلب الجديد – فى عصر إسماعيل باشا – يتنامى ويزدهر مبشرا بعصر جديد وفكر جديد .

كان تحديث القاهرة بالنسبة لإسماعيل رمزا لإرتقاء مصر حضاريا وتجسيدا لرغبته العارمة فى أن يشهد الغرب – عاصمة أوروبية فى القاهرة – تحكم دولة عصرية تمتد من الإسكندرية إلى الخرطوم!

أشار على باشا مبارك – مهندس السياسة الحضارية للخديو – إلى أن شارع محمد على "من أعظم ما عمل بمدينة مصر القاهرة، إذ بوجوده حصل نفع كبير وفوائد جمة للعامة.. وبعد أن كانت جميع الجهات التى مر بها قليلة القيمة، مشحونة بالقاذورات، أصبحت بمروره منها عالية القيمة مرغوبة السكن .. وقد بنى فى ضفتيه البيوت المشيدة الكبيرة والصغيرة والحوانيت العديدة المتسعة".

وأضاف على باشا مبارك أن شارع محمد على – البالغ طوله نحو الميلين – قد تطلب هدم نحو ٤٠٠ دار كبيرة و٣٠٠ دار صغيرة فضلا عن المطاحن والمخابز والحمامات والحوانيت وبعض المساجد!! وتم تعويض الأهالى عن الأملاك التى أزيلت ..

فى عام ١٨٧٢ إفتتح شارع محمد على (القلعة) الذى فاق

فى إتساعه شارع "السكة الجديدة – الأزهر" وتميز عنه بوجود أرصفة متسعة على جانبيه، تظللها الأشجار والبواكى (على طراز منطقة Champ de mars بباريس) كما أضىء بطول إمتداده بمصابيح الغاز، وكان سرور الخديو به عظيما حتى أنه أمر بتنظيفه ثلاث مرات يوميا للحفاظ على رونقه وبهائه!!.. ولننظر إلى حالة شوارع القاهرة اليوم والتى وصفت فى كتابات رحالة ذلك العصر بأنها "أنظف من شوارع باريس"!!

ليس مثل القاهرة عاصمة فى العالم .. لأن فيها شارعا واحدا هو شارع محمد على: على رأسه جامع وفى وسطه متحف ومكتبة وتحت أقدامه مسرح .. أربعة منشآت كبرى لها تاريخ ومغزى ومعنى .. الجامع والمتحف والمكتبة والمسرح، بطول إمتداد الشارع من ميدان القلعة (الرميلة- صلاح الدين) إلى ميدان العتبة الخضراء (الزرقاء سابقا)!

واحد من عجائب الدنيا ..!

كتب عالم الآثار الإسلامية الجليل د.حسن عبدالوهاب: "إن حق لمصر الفرعونية أن تفخر بأهرامها، فإن لمصر الإسلامية أن تتيه عجبا بمدرسة السلطان حسن التى لا يعادلها بناء آخر فى الشرق بأجمعه، فقد جمعت فيها كل الفنون الإسلامية".

وشموخ البناء يدل على العظمة والمقدرة الفنية الهائلة، وقد أجاد مهندسه "محمد بن بيليك الحسنى" وضع تصميمه، وفى تناسب أجزائه وإختيار زخارفه الرائعة وكتاباته الكوفية تمثل فى مجموعها ثروة فنية، قال عنه المؤرخ العلامة المقريزى "لايعرف فى بلاد الإسلام ما يحاكى هذا الجامع" وكتب عنه "جومار" أحد أبرز علماء الحملة الفرنسية: "إنه من أجمل مبانى القاهرة والإسلام ويستحق أن يتبوأ عن جدارة

المرتبة الأولى فى العمارة العربية" .. وقال عنه المؤرخ ابن تغرى بردى "هذا الجامع من عجائب الدنيا"!

وهو بالفعل واحد من مفاخر العمارة الإسلامية، كان فى موقعه قبل إنشائه قصران: أحدهما للأمير يلبغا اليحياوى والآخر للأمير طنبغا الماردانى، أمر السلطان حسن بن السلطان الناصر محمد بن المنصور قلاوون بهدمهما، وبدأ التنفيذ سنة ٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م ليكون مسجدا ومدرسة للمذاهب الأربعة، ألحق بها مساكن للطلبة، وكان الإفتتاح سنة ٧٦٠هـ/ ١٣٥٩م قبل الفراغ من البناء، واغتيل السلطان حسن سنة ١٣٦٢م ولم يدفن تحت قبته!.. وأكمل البناء الطواشى "بشير الجمدار" .. ويحيط بالصحن المفروش بالرخام الملون أربعة أروقة للمذاهب الأربعة، تتوسطه فسقية فوقها قبة، ويحيط بالصحن أربعة إيوانات متعامدة أكبرها الأيوان الشرقى يحيط به افريز من الجص مزخرف بآيات من سورة الفتح بالخط الكوفى، و"دكة المبلغ" من الرخام الفاخر، والمحراب من الرخام المزخرف بالآويمة المذهبة، يجاوره منبر من الألباستر، وعلى جانبه بابان يؤديان إلى القبة، الجنوبى منها مغشى بالنحاس المطعم بالذهب، ويتدلى من أسقف الإيوانات مشكاوات زجاجية منقوشة بالمينا، يحتفظ متحف الفن الإسلامى بمجموعة رائعة منها.

وقد قرر السلطان لكل مذهب شيخا ومائة طالب، ومدرسا لتفسير القرآن ومعه ثلاثين طالبا ، ومدرسا للحديث الشريف ومعه أيضا ثلاثون طالبا ، كما عين عالما مفتيا بالإيوان القبلى، وشيخ عالم بالقراءات السبع ومقرئا ، ومكتبة عين لها أمينا ، ومكتبتين لتعليم الأيتام وحفظ القرآن وقرر لهم الكسوة والطعام، أيضا عين طبيبين أحدهما باطنى والآخر للعيون، وثالث للجراحة وقد أرصد السلطان فى وقفيته

مرتبات الشيوخ والطلبة والموظفين والسدنة وقيمة ما يصرف لهم من الطعام كل ليلة جمعة وما يصرف لهم من الكساوى فى الأعياد.

وقد أحصى العالم البريطانى – عاشق الآثار الإسلامية – الكابتن كريزويل ما كتبه الرحالة والمؤرخين الأجانب عن جامع ومدرسة السلطان حسن "درة العمارة الإسلامية"!

الكتبخانة الخديوية:

اكتملت لعلى باشا مبارك نظرته للإصلاح والنهوض بمصر، وقد إجتمعت له نظارات المعارف والأشغال والأوقاف .. فقام بإنشاء "الكتبخانة الخديوية" فى الطابق الأول من سراى الأمير مصطفى فاضل باشا بصدور الإرادة السنية فى ٢٣ مارس ١٨٧٠ وقد جمع بها نفائس المخطوطات العربية والإسلامية، مما حبسه السلاطين والأمراء والعلماء على المساجد والأضرحة ومعاهد العلم، كما أهداها الخديو إسماعيل ٣٤٥٨ من نوادر المخطوطات عقب شرائه المكتبة الخاصة لشقيقه الأمير مصطفى فاضل عقب وفاته بمبلغ ١٣ ألف ليرة عثمانية، كما ضم إليها مقتنيات المكتبة الأهلية التى أسسها محمد على باشا بجوار بيت المال خلف جامع الحسين، كما ضم إليها مكتبتا وزارتى الأشغال والمعارف العمومية، ومجموعة "الجمعية المصرية" التى أنشأها بعض الأجانب الذين إهتموا بخدمة العلم فى مصرثم نسخ من الكتب المطبوعة فى "مطبعة بولاق" ..

حتى عام ١٨٩٦ كان المكان قد ضاق بما يحتويه من مقتنيات، فرفع د.برنارد موريتز المدير الألمانى للكتبخانة تقريراً إلى وزير المعارف بضرورة الإسراع فى بناء جديد يستوعب الكتب ومجموعات المخطوطات والبرديات وما

سيضاف إليها، وتم تشييد المبنى الحالى على الطراز المملوكى وجاء البناء شامخا في عمارته كالجوامع الكبيرة فى إطلالتها على الميادين وبلونها المميز الطوبى والأصفر .. وافتتحه الخديو عباس حلمى الثانى فى ٢٨ ديسمبر عام ١٩٠٣ ليكون مقرا للكتبخانة ودار الآثار العربية (متحف الفن الإسلامى).

وقد أحدثت الكتبخانة "دار الكتب المصرية" منذ إفتتاحها مناخا ثقافيا وفكريا هائلا ، وكانت إحدى ركائز المشروع الوطنى الثقافى الكبير، توافد عليها جمهور الباحثين عن المعرفة، وما من عالم ولا أديب ولا مفكر، مصريا أو عربيا أو مستشرقا إلا وله فى هذه الدار العريقة ذكريات رائعة، وقد تميزت بسلالمها المرتفعة بشكل ملحوظ وكأنها تمهد للقارىء الصعود والإرتقاء إلى آفاق ثقافية رحبة وثرية!

متحف الفن الإسلامى :

يرجع التفكير فى إنشاء متحف للآثار الإسلامية إلى المهندس "سالزمان" الذى إقترح هذه الفكرة على الخديو إسماعيل عام ١٨٦٩ فأصدر أمرا إلى "فرانز باشا" رئيس قلم هندسة الأوقاف بتخصيص دار حكومية لجمع التحف من المساجد والبيوت الأثرية، وتم تجميع القطع الأثرية بالإيوان الشرقى من جامع الحاكم بأمر الله.

فى ١٨ ديسمبر عام ١٨٨١ صدر "أمر عال" بإنشاء "لجنة حفظ الآثار العربية" تحت إشراف وزير الأوقاف محمد زكى باشا وعضوية: مصطفى باشا فهمى الذى تولى عدة وزارات ثم رئاسة الوزارة عام ١٨٩٦ ومحمود سامى باشا ومحمود بك الفلكى وإسماعيل بك الفلكى مدير المهندسخانة وفرانز باشا وروجرز بك وتيجران بك ويعقوب أفندى صبرى وعلى أفندى فهمى .. وكان لهذه اللجنة فضل العناية بآثار

العصر الإسلامى، فى إبريل ١٨٩٢ تولى رئاسة اللجنة "هرتس بك" كبير مهندسى اللجنة وكان أبرز أعماله: إعداد دليل لمحتويات الدار عام ١٨٩٥ كما أعد تقريرا عن ضرورة تشييد دار جديدة للآثار الإسلامية.

وضع الخديو عباس حلمى الثانى الأساس للمبنى الحالى بميدان باب الخلق عام ١٨٩٩ وإكتمل البناء عام ١٩٠٢ على مساحة ١٠٥٨ مترا وبدأ نقل المقتنيات إليه، وكان الإفتتاح الرسمى فى ٢٨ ديسمبر عام ١٩٠٣ وخصص الطابق الأرضى لدار الآثار العربية حتى إستقل المتحف بالمبنى الحالى عام ١٩٧٤.

تجدر الإشارة إلى أن المتحف قد حصل على كثير من مقتنياته بطريق الإهداء، قدمها بعض أمراء الأسرة المالكة من هواة الفن الإسلامى، كما أهدى الملك فؤاد ثم الملك فاروق مجموعات ثمينة من المنسوجات والنقود والموازين، ومجموعة الأمير محمد على توفيق، ومجموعة د.على إبراهيم باشا التى تضم أندر مجموعات السجاد الشرقى .. كما يضم المتحف أندر مجموعة فى العالم من المشكاوات التى كان يهبها سلاطين المماليك للجوامع، ومجموعة التحف الخشبية المتميزة بزخارفها وتنوعها فى الطرازين الفاطمى والمملوكى، ومجموعة "رالف هرارى" المعدنية، إلى جانب المجموعات الخزفية والمنسوجات المصرية والإيرانية والتركية، وأروع مجموعات التصوير الإسلامى المهداة من شريف صبرى باشا، أيضا من أبرز المقتنيات مجموعات المصاحف النادرة من عصور إسلامية متعاقبة لا يضارعها إلا مجموعة دار الكتب .. ومن أروع مقتنيات المتحف مجموعة "شبابيك القلل بزخارفها ونقوشها التى تشهد بالمستوى الفنى الرفيع الذى بلغته الحضارة الإسلامية فى مصر".

تياترو الأزبكية أو المسرح القومى :

فى ١٨٦٧ أمر إسماعيل باشا – فى إطار تحديث القاهرة – بردم بركة الأزبكية وإقامة حديقة عامة فى موقعها على مساحة ١٨ فدان والحديث عنها يطول، وعلى مقربة من حديقة الأزبكية شيد المسرح الكوميدى الفرنسى فى ٤ يناير ١٨٦٨ ودار الأوبرا الخديوية فى ١ نوفمبر ١٨٦٩ لإستقبال الوفود المشاركة فى الإحتفالات الأسطورية التى واكبت إفتتاح قناة السويس، وشهدا عروض الفرق العالمية الزائرة لإمتاع الأرستقراطية المصرية والأجانب بروائع المسرح والموسيقى.

ثم شيد "تياترو حديقة الأزبكية" القديم ١٨٧٠ – ١٩١٩ على بعد خطوات من دار الأوبرا، والتياترو كان أيضا مقصدا للفرق الأجنبية إلى جانب الفرق المسرحية المصرية والشامية .. ثم شيد "مسرح حديقة الأزبكية" فى نفس موقع التياترو القديم عام ١٩٢٠ وأسند التصميم والتنفيذ للمهندس الإيطالى "فيروتشى" مهندس المعية السنية .. وقد جاء تصميم الصالة والألواج مماثلا لطراز الأوبرا الخديوية، وإلى "طلعت حرب باشا" يعود الفضل فى إضفاء طابع الأرابيسك على عمارة المسرح كما روعى فى زخرفة المبنى وتجميله لمسات من الفن الإسلامى .. يحيط بالصالة عشرين بنوارا على شكل حدوة الحصان فى الطابق الأرضى، ويضم الطابق الأعلى ٢٢ لوجا بنفس توزيع البناوير تفتح أبوابها على ممر دائرى، وفى الجزء الخلفى منه غرفتان، الأولى مخصصة للمكتبة فى ركن منها نصوص وتراث "المسرح القومى" الاسم الجديد عقب ثورة ١٩٥٢ والغرفة الثانية مخصصة لإداريو المسرح.. وفيما مضى كانت الغرفة الأولى هى إستراحة طلعت حرب عندما كان يحلو له أن يقضى بها ساعات المساء بين أصدقائه من الفنانين بعيدا عن "حسابات وأرقام" بنك مصر!

شارع الصحافة كمان!!

تلازمت فى شارع محمد على مهنتان متلازمتان: "المطابع ومحلات الزنكوغراف" و"الصحافة" وكانت بعض الصحف تتخذ من هذه المطابع مقرا لها وبعضها استمر لبضع سنوات أو أقل، والصحف التى كانت تصدر من شارع محمد على:

١- الصادق: ٩٤ ش محمد على، ١٨٨٦-١٨٨٨.
٢- الفلاح: بالقرب من الكتبخانة الخديوية، ١٨٩٥-١٨٩٦.
٣- المؤيد: سراى الكخيا ١٠٦ ش محمد على ثم من دار المؤيد ١٠٤ ش محمد على ١٨٩٤-١٩٠٨.
٤- المؤيد الأسبوعى: ١٠٤ ش محمد على، ١٩٠٧-١٩١٠.
٥- منفيس: بجوار الكتبخانة الخديوية، ١٨٩٥-١٨٩٧.
٦- البريد: مطبعة المنار، ١٨٩٨-١٩٠٠.
٧- الأفكار: ٧ ش محمد على، ١٩٠٥-١٩١٣ ثم فى ٥ حارة عبدالقادر بشارع محمد على.
٨- الصحافة: شارع الخليج المرخم بجوار الكتبخانة، ١٩٠٥-١٩٠٩.
٩- المنبر: شارع الخليج المرخم، ١٩٠٨-١٩١٥، ثم عمارة المؤيد حتى أكتوبر ١٩١٩.
١٠- النظام: شارع محمد على بالقرب من سوق الخضار، ١٩٠٩.
١١- القطر المصرى: حارة العنبة بشارع محمد على، ١٩٠٩
١٢- الحقائق: حارة الأمير حسين بشارع محمد على، ١٩٢٠-١٩٤١.
١٣- عاصمة الشرق: ١٦٠ ش محمد على، ١٩٢٣-١٩٢٧
١٤- الأمة: ١٢ درب العنبة بشارع محمد على، ١٩٢٩-١٩٣١.

١٥- لسان العرب: ١٢ درب العنبة، ١٩٣٠-١٩٣٤.

١٦- الشيخ: ٤ درب الدقاق، ١٩٣٠-١٩٦٠.

١٧- المخزن: دار المؤيد بشارع محمد على، ١٩٣١-١٩٣٤.

١٨- فرعون: عمارة الأوقاف بميدان باب الخلق، ١٩٣٢.

١٩- الجامعة الإسلامية: حارة الأمير حسين بشارع محمد على، ١٩٣٢-١٩٥٥.

٢٠- مصر الفتاة: ١٦٠ ش محمد على ١٩٤٨، ثم فى ١٣٢ ش محمد على ١٩٤٩-١٩٥٣.

٢١- مجلة الصاعقة: عمارة الأوقاف، ١٩٣٥-١٩٤١.

٢٢- مجلة المسامير: ش الخليج المرخم، ١٩١١-١٩٢٩.

٢٣- مجلة الشباب: دار المؤيد، ١٩١٩-١٩٢٠.

٢٤- مجلة النيل: دار المؤيد، ١٩٢١-١٩٣٥.

٢٥- مجلة السيف: دار المؤيد ١٩٢١ ثم ١١ درب الطواشى ١٩٢٢ وحتى ١٩٣٠ بحارة العنبة.

٢٦- مجلة الرقيب المصرى: درب العنبة، ١٩٢٥-١٩٢٩.

٢٧- مجلة مسامرات الخليل: ١٠٥ ش محمد على، ١٩٢٦-١٩٢٩.

٢٨- مجلة الحسان: دار المؤيد، ١٩٢٦-١٩٢٧.

٢٩- مجلة الفنون: دار المؤيد، ١٩٢٦-١٩٢٨.

٣٠- مجلة الهادى: ٧٣ ش محمد على، ١٩٢٩.

٣١- مجلة التلغراف: ١٠٧ ش محمد على، ١٩٤٢-١٩٤٥.

٣٢- مجلة الصداقة: ٢ ش الكتبخانة، ١٩٤٣.

٣٣- مجلة الغرائب: دار المؤيد، ١٩٤٦-١٩٤٨.

٣٤- مجلة الكشكول الجديد: ٧٦ ش محمد على، ١٩٤٧-١٩٤٨.

قهوة العنبة ودرب العوالم!

وتجدر الإشارة إلى "حارة المدابغ القديمة" بالقرب من ميدان باب الخلق (أحمد ماهر حاليا) وهى من بقايا القرن التاسع عشر، قبل نقلها إلى ميدان الأزهار ثم إلى منطقة سور مجرى العيون، وكان شارع محمد على أحد الشوارع الرئيسية التى إمتدت بها خطوط الترام عام ١٨٩٦، ومازالت بقايا من محلات "الزنكوغراف" من عهد الصحافة والطباعة، كما كانت تتناثر على جانبيه محال بيع الأثاثات القديمة وكثير من المقاهى أشهرها قهوة "المضحككخانة" بالقرب من دار الكتب وكان من أشهر روادها: منصور فهمي باشا ولطفى السيد وتوفيق الحكيم وحافظ إبراهيم واحمد رامي ممن اداروها او عملوا بها .. و"قهوة العنبة" التى إشتهرت بمباريات مصارعة الديوك الهندية بين حماس المتفرجين وسخونة المراهنات .. كما إشتهرت مقهى لإستئجار "الندابات"!.. ولازالت بقية من "فن" تبيع العود والناى والطبلة والرق "سادة التخت الشرقى" .. ومازال قائما "درب العوالم" بدون عوالم!.. وقد كان لبعضهن شهرة وتاريخ!

حكايات من الحى الملكى!!

قلب القاهره هو دائما قلب مصر: حضاريا وسياسيا واجتماعيا واقتصاديا وثقافيا .. وسواء كان هذا القلب في ساحة الأزهر والمشهد الحسيني قديما او في ساحة سراي عابدين او ميدان التحرير حديثا!

وحي عابدين .. كان أهم أحياء القاهره الخديوية ثم الملكية، تتوسطه متألقة سراي عابدين - التي كانت أجمل وأفخم قصور العالم بشهادة الضيوف والمراسلين الأجانب - أحاطت به بعض بيوت العائلات الارستقراطية وبيوت بعض من أمناء السراي والخدم والحرفيين، وجمع هذا الحي الملكي، كحال أحياء القاهره في ذلك العصر، أجناس من البشر تعددت لغاتهم: الايطالية والفرنسية واليونانية والأرمنية والتركية وأيضا اللغة النوبية!

وحكايات حي عابدين صورت جوانب من مجتمع القاهره في جيل مضي وشخصيات مشهورة وآخري مجهولة .. وتقاليد اندثرت .. ولم يبق سوي سراي عابدين وبعض من الذكريات!

اعلام من حي عابدين

كان "سعيد ذو الفقار باشا "من نجوم الحي الملكي وكان قصره بشارع قوله .. وكان كبير الأمناء بسراي عابدين في عهد السلطان حسين وفي عهد الملك فؤاد، كما شغل عدد من المناصب: مدير الدقهلية، ووزير المالية ثم وكيلا للجمعية التشريعية .. وهناك شارع شهير باسمه في الحي .. كما لمع اسم شقيقه "علي ذو الفقار باشا "الأمين الأول ورئيس قسم الترجمة بالديوان الملكي .. كما كان "اسماعيل تيمور "و"

محمد تيمور "أمناء بالسراي وهما ولدا العلامة "أحمد تيمور باشا "وإشتهر صالون قصره بشارع غيط العدة كواحد من أبرز منتديات القاهره

وتجدر الإشاره الي أن "أحمد شوقي" أمير الشعراء ولد ونشأ في بيت والده "علي بك شوقي" بحي الحنفي بعابدين، وتلقي تعليمه الابتدائي بمدرسة صالح أبو حديد، وكان علي بك مفتشا في الخاصة الخديوية في عهد الخديو توفيق باشا، وقد ارتبط بأواصر الصداقة والجيرة بأسرة "حسن افندي" من الشراكسة، كذلك توطدت صداقته بأسرة "حسين بك شاهين" أحد أصحاب الثروة والجاه بالحي، وقد اقترن ابنه أحمد شوقي - فيما بعد - بأحدي بنات حسين بك شاهين الثلاث، وعقب تخرج أحمد شوقي من مدرسة الحقوق العليا، عينه الخديو توفيق موظفا في ديوان المعية السنية، قبل أن يوفده الي فرنسا لدراسة الآداب الفرنسية، وفي عهد الخديو عباس حلمي الثاني عينه شاعره الخاص ورئيسا للقسم الافرنجي بديوان الخديو

ومن النجوم التي لمعت في سماء حي عابدين: الشيخ "علي الليثي" شاعر الخديو إسماعيل وسيد الندماء والظرفاء في ذلك العصر وكان صديقا لوالد أمير الشعراء .. وربما يجهل الكثيرون إسم "راشد رستم" وكان من كبار المثقفين في ذلك العصر، كما كان صديقا لعدد من المستشرقين خاصة كبيرهم "آربري" فقد كان شاعرا وكاتبا وناقدا أدبيا وترجم بعض من قصائد شوقي وآخرين الي الانجليزية ونشرها في الدوريات البريطانية

كذلك الشيخ "زكي سند" المدرس بمدرسة اليسوعيين ومؤسس جماعة مكارم الأخلاق، وكان يسكن بحارة السقايين بالقرب من بيت شوقي، وكان أستاذا لأحمد شوقي في اللغة والنحـــو.

ولا يمكننا أن نغفل "محمود سامي البارودي" وزير الحربية ورئيس النظار (الوزراء) وأحد أقطاب الثورة العرابية و"رب السيف والقلم "وكان قصره بشارع غيط العدة قبله لأعلام الفكر والأدب والصحافة في ذلك العصر

ومن مقر عيادته بشارع "الصنافيري" انطلقت شهرة الطبيب الجراح العالم "علي باشا ابراهيم" الي عموم مصر ثم الي أوروبا وأميركا، كما كانت عيادته مقرا للمجلة الطبية المصرية التي شارك في تأسيسها عام ١٩١٧

وفي مواجهة باب باريس الشهير وبالتحديد في ٢٥ شارع جامع عابدين: كانت سراي آل عبد الرازق وصالونها الثقافي كان مهوي أفئدة أعلام السياسة والأدب والصحافة وشيوخ وعلماء وأساتذة الجامعة، يوم كانت الصالونات الثقافية حديث مجتمع القاهره .. أسس حسن باشا عبد الرازق مع أستاذ الجيل أحمد لطفي السيد حزب الاحرار الدستوريين ومجلة "السفور "ولقي حسن باشا الأخ الأكبر مصرعه علي باب مقر الحزب! .. ود. علي عبد الرازق صاحب الكتاب الأشهر "الاسلام وأصول الحكم "والذي أثار جدلا واسعا في مصر وفي العالم الاسلامي وعقب تلك القضية وفصله من هيئة كبار العلماء خلع الزي الأزهري والعمامة وحلق ذقنه وارتدي البدلة الأوروبية! ..، والعالم والفيلسوف ووزير الأوقاف وشيخ الأزهر "مصطفي عبد الرازق "كان نجم هذا الصالون وزينة كل المجالس

الاديب والكاتب والناقد العظيم "أحمد حسن الزيات" صاحب ورئيس تحرير مجلتي الرسالة والرواية، كان من أعلام الحي وبيته في ٢٤ شارع المبدولي بين شارع قوله وحارة السقايين .. وكانت دار الرسالة في أرض حموده جنوب سراي عابدين .. والي الشمال منها، بحارة الكرداسي،

كان مقر مجلة الثقافة التي رأس تحريرها "أحمد أمين" الأديب والناقد والاستاذ بكلية الآداب، ومقر "الثقافة" كان أيضا للجنة التأليف والترجمة والنشر .. و"الرسالة" و"الثقافة" كانا من أعظم المجلات الأدبية والثقافية في تاريخنا الحديث، كما كانتا ساحتين لأقلام المعارك الأدبية وسجالات رواد الفكر والأدب في مصر والعالم العربي!

وفي شارع "قوله "كانت جريدة" المقطم "لصاحبيها فارس نمر ويعقوب صروف، وعلي مسافة خطوات منها كانت جريدة "الأفكار" التي رأس تحريرها الدكاتره زكي مبارك!

وجريدة "اللواء" التي أسسها الزعيم مصطفي كامل كان مقرها بشارع نوبار/ قسم عابدين .. وفي شارع الحوياتي (يوسف الجندي) أقام العميد طه حسين عقب عودته من باريس، وفي شارع الفلكي كان قصر محمد محمود باشا خريج اكسفورد ورئيس الوزارة وصاحب اليد الحديدية! .. وفي ميدان الأزهار (الفلكي) كان بيت الزعيم أحمد عرابي خلال أحداث الثورة العرابية، وفي شارع شركس كان قصر سلطان باشا والد هدي هانم شعراوي ..

وفي شارع حسن الأكبر أقام كابتن "كريزويل "العالم البريطاني عاشق الآثار الاسلامية وصاحب أشهر خريطة للآثار الاسلامية بالقاهره، وكان يشاهد في شوارع عابدين مرتديا الردنجوت الأسود تعلو رأسه قبعة سوداء عالية ونظارة طبية إطارها من السلك المذهب وبيده عصا من الابنوس الفاخر وكأنه لورد يتجول في شوارع لندن!

وكان الفنان المبدع "بديع خيري" مقيما بالقرب من حارة السقايين وهو الذي أبدع الزجل الشهير الذي لحنه وغناه العبقري سيد درويش "ع السقايين دول شقيانين .. متعفرتين من الكوبانية"!

وفي حارة الساقيين أيضا، كانت "المطبعة الدرية للكتب الطبية" التي أنشأها د. "محمد دري باشا" عضو البعثة الثانية من البعثات العلمية التي أرسلها محمد علي باشا الي أوروبا وكان دري باشا واحد من أعظم الجراحين المصريين الذين بلغت شهرتهم أرجاء العالم

وفي شارع البراموني، كانت مدرسة القضاء الشرعي التي تخرج منها أعظم القضاه الشرعيين وعلي رأسهم الشيخ "عبد الرحمن الجديلي" الذي قام بأعظم الأدوار مع المناضل العظيم "عبد الرحمن فهمي" في إشعال ١٩١٩ وقيادة العمل السري، وانضم الي الجمعية الفدائية التي أسسها عبد الرحمن فهمي لمقاومة الاحتلال البريطاني والتحريض علي الاضراب وتوزيع المنشوارت السرية ومقاطعة المتاجر الانجليزية، خلال نفي سعد زغلول وزملائه وأعضاء الوفد المصري ثم جولتهم في أوروبا عقب الافراج عنهم! .. كما كان الشيخ الجديلي صديقا حميما ومستشارا أدبيا لأمير الشعراء - جيران الحي الواحد - فكان الشيخ أحد النجوم التي سطعت في سماء حي عابدين وعموم مصر!

كذلك تخرج منها "أحمد أمين" الأديب والمؤرخ والناقد وصاحب مجلة الثقافة وأستاذ الجامعة .. وكان ناظرها العتيد "عاطف باشا بركات" والذي عرف بنشاطه الوطني من أجل إستقلال مصر، وكان أحد الخمسة الذين اعتقلتهم السلطات البريطانية: سعد زغلول ومصطفي النحاس ومكرم عبيد وعاطف بركات وفتح الله بركات، في ٢٣ ديسمبر ١٩٢٢ ونفيهم الي جزيرة سيشل، والذي أسف "يحيي حقي "لعدم تسجيل أخباره التي تناقلها الرواه "وكلها تشهد بأنه كان باذلا كل نفسه لتلاميذه معتنيا بمصلحتهم وتقويمهم وتهذيبهم وحثهم علي الإفضاء بمتاعبهم إليه "كما كتب أديبنا الجميل الراحل ..

وكم شهدت شوارع عابدين من أعلام كانوا صفوه المجتمع المصري في مجالات عديدة .. أذكر منها شوارع: السلطان حسين (الشيخ ريحان) والساحه (رشدي باشا) ونوبار باشا (الدواوين) وجامع عابدين (مصطفي عبد الرازق) والبلاقسة وعبد العزيز جاويش وشريف باشا الكبير والصنافيري (علي ابراهيم باشا) ومحمد فريد وعلي باشا ذو الفقار والبراموني ومنصور والفلكي وقوله ومظلوم باشا وغيظ العدة .. وحواري منها علي سبيل المثال: السقايين والعجانة والبيرقدار والزعبلاوي والكرداسي والمبدولي والتمساح وسليم بك والغزاوية ..

وشخصيات مجهولة!

ومثلما كان حي عابدين هو حي الباشوات والأغوات وصفوة المجتمع .. كان هناك أيضا شخصيات مجهولة من "أولاد البلد "ومن الاتراك والأرمن والايطاليين!

طبق عاشوراء الخديوي!

كان من عادة الحاج أحمد الكبير أن يرسل الي سراي عابدين كل عام اثني عشر أردبا من القمح قبل موسم عاشوراء هدية للخديوي إسماعيل حتي يصنع منها العاشورة علي عادة المصريين وردا علي تحية الخديوي لجيرانه في المواسم والأعياد فقد كان الخديوي يرسل الي جيرانه في حي عابدين أو الي أعيانهم صواني الأطعمة الفاخرة في غرة شهر رمضان وفي ليلة القدر، كما كان يرسل لبيوت هؤلاء الأعيان من أبناء البلد الحلوي في عيد الفطر وفي غير ذلك من مناسبات

وعلي عادة أبناء البلد رأي الحاج الكبير الرد علي هدية الخديو فكان يرسل هذه الكمية من القمح الي القصر كل عام

محمولة علي عربة كارو من عرباته التي كان يستخدمها في تجارته وكان الخديو يقبل هذه الهدية في سرور، ويردها الي أهالي الحي أطباقا من العاشورة المصنوعة في مطابخه مخلوطة بالجوز واللوز والفسدق مع قمح الحاج الكبير، وكان الأهالي يسعدون بهذه الهدية الخديوية التي تصل الي بيوتهم في أطباق مغطاه بغطاء حريري ثمين!

وكان طبق العاشورة الخديوي من البورسلين الفاخر ويبلغ قطره حوالي خمسين سنتيمترا وعمقه حوالي ٢٠ سنتيمترا، وهو مزخرف متقن الصنع، بل إنه من التحف الفنية الرائعة ولم يكن الخديو يسترد الاطباق الفارغة بالطبع، فكان هؤلاء الأعيان يحتفظون بها في بيوتهم ويتابهون بها ويقول الواحد منهم لصاحبه: هذا طبق الخديو، ومع تعدد مواسم عاشوراء كثر عدد هذه الأطباق عندهم وتعددت أشكالها وألوانها، وقد ظل أبناء الحاج الكبير يرسلون القمح الي سراي عابدين كل سنة حتي عهد الملك فؤاد برغم أن السراي لم يكن يرسل لهم أطباق العاشورة منذ عزل الخديو إسماعيل وتولي ابنه توفيق العرش!

وكان في حي عابدين منذ أنشأ الخديو إسماعيل السراي طوائف من العمال يقومون علي خدمة قصر عابدين ومنهم نجارون ونقاشون ومنجدون وغيرهم من طوائف الصناع، وكان من العادات المرعية استبدال بعض ستائر القصر ومشاياته وغيرها من الأشياء المستهلكة كل عام في فترة سفر الخديو الي الإسكندرية في الصيف، وقد ظلت هذه العادة متبقية حتي عهد فاروق فكان شيخ المنجدين يبيع هذه الأشياء للأهالي حتي أصبحت البيوت في الحي تفرش بالبسط الخضراء وتوضع فيها الستائر الثمينة التي تخرج من القصر ويتم استبدالها بغيرها!

الحاج حنفي وعربة زينب هانم!

الأميرة زينب هانم صغري بنات* الخديو إسماعيل .. واشتهرت بعربتها ذات الستائر المسدلة يجري بها اثنين من الجياد العربية البيضاء، وكانت مثار حديث أهل القاهره

وقد أعجب "الحاج حنفي "من أهالي عابدين بهذه العربة الفاخرة الفريدة، فكان يراقب عربة زينب هانم أثناء جولاتها في شوارع عابدين او عبورها عند كوبري قصر النيل عندما تتجه الي قصر الجزيرة او تعود الي قصر عابدين، ثم ذهب الي صناع العربات في باب الخلق وباب الشعرية، وشاهد عربات الحنطور وعربات الكارو التي يصنعونها حتي استقر رأيه علي واحد منهم وأحضره معه ليشاهد عربة زينب هانم، ويصنع له عربة مثلها او تشبهها وتم صنع العربة واشتري لها الحاج حنفي حصاناً أبيض جميل الشكل ثم وضع العربة والحصان علي باب الحارة ذات يوم فتعجب الناس من قلة عقل الحاج حنفي، وقالوا: ماذا يصنع هذا المجنون بهذه العربة والحصان؟

وأخيرا صرح الحاج حنفي بأنه أعد هذه العربة لزفاف العرائس من بنات الطبقة القادرة في عابدين وما حولها من أحياء وبدأ المعلم فرحات القهوجي يروج في قهوته لهذه الأفكار

ولم يمض أسبوع حتي تم زفاف عروس من بنات أحد التجار في حي عابدين الي عريسها في حي المنيرة واستخدمت عربة زينب هانم في هذا الزفاف!

كان الحاج حنفي يتقاضي خمسة جنيهات ذهبية أجرا للعربة والحصان في مشوار الزفة أما العربجي الذي كان يحضره لهذا الغرض وهو أحد عربجية الحنطور فلا شأن له بأجره بل إن صاحب العرس يمنحه الوهبة وهي ليست أجرا

محددا ولكنه مبلغ من المال يتناسب مع صاحب الفرح ومكانته لا مع أجر العربجي وهي مثل النقوط الذي يمنح للعالمة أو الراقصة فهو مبلغ من المال يخرجه صاحبه ليعبر به عن مكانته الاجتماعية او قدرته المالية

وبدأت زفة العرائس في عربة زينب هانم تأخذ شكلا خاصاً في ذلك الوقت، فكانت العروس تركب في هذه العربة مع أمها وأخواتها وقريباتها اللاتي تسعهن مقاعدها، ثم يبدأ الركب في التحرك من منزل العروس الي بيت العريس مخترقا الشوارع التي يختارها أصحاب الفرح وقد يمرون في شوارع أو أحياء لأن العروس يجب أن يمر موكب زفافها أمام بيت عمتها أو خالتها او أمام جامع السيدة زينب ولذلك كانوا ينظمون الزفة تنظيما دقيقا قبل تحركها

وتنامت ثروة الحاج أحمد وأصبح يملك خمس عربات من هذا النوع واشتهر امره في حي عابدين بل وفي جميع أحياء القاهره وذاع صيته .. حتي تغيرت الأحوال ومضي الزمان، فلم يعد الناس يطلبون عربات زينب هانم لزفاف عرائسهم، فباع الحاج حنفي الخيل ووضع العربات في عربخانة مجهولة وانتهت إحدي حكايات حي عابدين!

وتجدر الاشارة الي أن طائفة العربجية كان لهم دور عظيم في إسعاد الناس في الجيل الماضي وهم الذين كانوا ينقلون فرق العوالم علي عرباتهم من شارع محمد علي الي الأفراح والليالي الملاح وهم الذين كانوا يسعدون الأطفال عندما يحملونهم علي عرباتهم وهم في ملابسهم الجديدة الزاهية في الأعياد والمواسم الي شاطئ النيل ومهم طبولهم وزماراتهم التي تملأ الجو بهجة ومرحا ..

وفي زفة نقل جهاز العروس من بيتها الي بيت زوجها، كانوا أحيانا يزينون عجلات العربات بالورق الملون والورود

والأغصان الخضراء وغيرها من وسائل الزينة حسب رغبة والدة العروس، وقد لا يصنعون هذه الزينة وفقا لرغباتهم وتوفيرا للنفقات، كما كانوا يزينون الخيول والحمير أيضا بالورود والأغصان التي توضع علي رقابها وفوق رأسها وظهرها، وكان من المعتاد أن تتقدم هذه الزفة فرقة موسيقية من فرق شارع محمد علي، ثم يقود كل صاحب عربة عربته ويمسك بلجام حصانه أو حماره ويتحرك الموكب بين أنغام الموسيقي وزغاريد نساء الحي حتي يبلغ غايته عند بيت العريس فيستقبل أيضا بزغاريد النساء .. وخلال مسيرة الموكب في شوارع وحارات الحي كانت الفرقة الموسيقية تقوم بتحية الذين يتقدمون للتحية فتعزف لهم اللحن الشهير الذي يسمونه "السلام المربع "ولا أعرف لماذا كان مربعا!!

"موندي" الترزي الايطالي

ومن الحكايات التي رواها كاتبنا الكبير الراحل "عبد المنعم شميس "حكاية موندي أشهر ترزي في عابدين وكان مولد شميس ونشأته في حي الحنفي بعابدين، تماما مثل المفكر الساخر الصديق الراحل كامل زهيري وآخر المتكلمين العظام وحكاياته التي رواها لي عن أحياء عابدين والسيده زينب والزمالك! .. كتب شميس: في أوائل حكم السلطان حسين جاء الي حي عابدين رجل إيطالي وسكن في شقة في البيت الذي كان قد بناه الحاج الكبير علي الطراز الإيطالي

وانتشر وذاع أن هذا الإيطالي (ادمندو) هو الترزي الخاص للسلطان وكان يذهب كل يوم الي قصر عابدين، وقد أعدت له غرفة خاصة هناك وأصبح هو المسئول عن ملابس السلطان وسرعان ما نطق باللغة العربية شأنه في ذلك شأن الأجانب الذين كانوا يعيشون في الحي، ولكن سرعان ما توفي

السلطان حسين كامل وتولي السلطان أحمد فؤاد فلم يعد للإيطالي ادمندو مكان في القصر فأخرجوه من غرفته لأن السلطان الجديد لا يريد منه أن يصنع له ثيابه، وأصبح ادمندو في أزمة شديدة لأن صناعته لا تلقي رواجا عند أهل الحي الذين كانوا يرتدون الملابس البلدية في الغالب وليس بينهم ممن يرتدي الملابس الإفرنجية إلا العدد القليل من الأفندية ومعظمهم من صغار الموظفين أو طلبة المدارس

أما طبقة الباشوات أصحاب القصور فقد كان لهم خياطون من المشاهير المعروفين أصحاب المحلات الكبيرة، كما كان يمارس هذه المهنة بعض المصريين القلائل ولهم محلات كبيرة في الشوارع الجديدة التي اختطها الخديو إسماعيل مثل شارع عابدين (الجمهورية الآن) وشارع الساحة (رشدي الآن) كما كانت هناك طبقة الترزية من الطليان أصحاب الشهرة وكان فيهم أيضا بعض الأرمن، ولذلك كان من الصعب أن يمارس (ادمندو) عمله ولم يكن في استطاعته أن يفتح محلا له مواصفات خاصة ويتكلف مصاريف باهظة لأن طوائف الترزية في تلك الأيام سواء من الأجانب او المصريين كانوا يتخذون لأنفسهم صفة ملازمة فكان الواحد منهم يقوم بعمل التاجر والترزي في آن واحد ويكتبون علي لافتات محلاتهم (فلان ... تاجر وترزي) وكانت عندهم جميع الأقمشة والألوان والأصناف الخاصة بالصيف والشتاء وكان بعضهم يرفض تفصيل البدل إذا اشتري الزبون قماشه بنفسه من محلات الأقمشة لأن هؤلاء الترزية كانوا يعرضون علي زبائنهم جميع أصناف الأقمشة بل كانوا يختارون حسب أذواقهم ما يصلح للزبون!

وكان هناك ترزية متخصصون في صنع الملابس الرسمية التي كان يرتديها كبار القوم في حفلات التشريفات الملكية كما

كان هناك ترزية للملابس البلدي، وكانوا يدققون في انسجام ألوان الطاقم الواحد من هذه الثياب بحيث تتواءم ألوان القفطان والحزام والجبة والعباءة مع بعضها وكانت العباءات تصنع عادة من الجوخ الأسود والكحلي والبني، ولهذه الثياب البلدية مكوجي خاص يطلقون عليه اسم "مكوجي رجل"! ..

وانتشرت في تلك الأيام موضه بين الأسطوات والمعلمين الكبار من أبناء البلد فأحبوا لبس الجلباب أو القفطان وفوقه المعطف مع وضع الطربوش فوق رءوسهم وكانوا يفصلون القفاطين والجلاليب عند الخياطين العربي أما المعاطف فكان (ادمندو) هو الذي يصنعها لهم

وأصبح الترزي الإيطالي أشهر صناع معاطف المعلمين والأسطوات وكان منها معاطف شتوية من الصوف ومعاطف صيفية من الحرير أو التيل أو الكتان، ولكن ادمندو بدأ يفصل البدل لبعض الأفندية في الحي وكان منهم طالب في مدرسة الحقوق أصبح هو وبعض زملائه من زبائن ادمندو ثم تخرج هؤلاء الطلبة وأصبح منهم محامون وقضاه ووزراء فأصبح (الخواجه موندي) وهذا هو اسم التدليل الذي اشتهر به ادمندو الترزي الخاص لبعض رجال القانون الكبار في مصر

وعندما قبل الخواجة موندي تفصيل بدل مستر كريزويل الإنجليزي عالم الآثار الإسلامية الشهير وأستاذ الآثار الإسلامية في جامعة القاهرة اشترط عليه ألا يتدخل في عمله! ..

وقال مستر كريزويل للخواجة موندي: أنا تركت لندن ومن فيها من خياطين ومن محلات لأفخر الملابس وجئت إليك في القاهرة .. ماذا تريد مني بعد ذلك؟

سرداق عزاء "شعبي "لابن الحي الملك فؤاد!

كان الحاج متولي صاحب محل الفراشة الأوحد في عابدين .. ضئيل الجسم حاضر النكتة، يتمتع بعلاقات متميزة مع أهل الحي، وكان شديد المحافظة علي تقاليد المهنة .. يقيم سرادقات الأفراح ويسارع الي إقامة سرادقات العزاء عندما يموت أحد من أبناء الحي غنيا أو فقرا، وكان للعائلات الكبيرة مكان محدد لإقامة سرادق العزاء عندما ينتقل أحد أبناء أو بنات العائلة الي رحمة الله بحيث يتوسط هذا السرادق بيوت هذه العائلة أما الآخرون فكانت السرادقات تقام أمام بيوتهم في الشوارع أو الحارات، وكان الحاج يقيم سرادقات متواضعة للموتي الفقراء أيضا وفي كل الحالات كان يتولي إحضار المقرئين للقرآن الكريم والبن لصنع القهوة السادة التي تقدم للمعزين

وفي سرادقات العزاء للأغنياء والموسرين كان الحاج يستدعي الشيخ علي محمود والشيخ محمد رفعت حيث يتبادلان قراءة القرآن الكريم وهما أشهر قارئين في القاهرة وكان يقدم القهوة في فناجين فاخرة والماء في أكواب لامعة أنيقة علي صواني لها قيمة يقدمها سفرجية من الأفندية لابسي البدل السوداء!

ولم يكن يتقاضي أجرا علي إقامة سرادقات العزاء للفقراء ولعله كان يعوض ذلك من الأغنياء الذين يدفعون له ما يطلب من مال بلا مناقشة لأنه كان ينوب عنهم في معاونة أبناء الحي من الفقراء فيقيم لهم سرادقات العزاء مجانا دون مقابل! ..

وعندما توفي الملك فؤاد سارع الحاج بإقامة سرادق للعزاء أمام باب التشريفات الملكية بعد جنازة الملك والتي شيعت من قصر القبة ومرت أمام قصر عابدين ثم سلكت طريقها الي جامع الرفاعي حيث توجد المدافن الملكية

ولما عاد باشوات قصر عابدين من تشييع جنازة الملك وجدوا الحاج ورجاله منهمكين في إقامة سرادق للعزاء عند باب التشريفات وكانوا يريدون تقبل العزاء داخل القصر وإعداد دفاتر التشريفات لكتابة كلمات المعزين من السفراء وغيرهم طبقا للقواعد الدبلوماسية فاستدعوا الحاج وسألوه عما يفعل فأخبرهم بأنه يقيم سرادق العزاء للملك ولما أبدوا استغرابهم من هذا العمل الذي لم يكلفه به أحد قال لهم إنه الواجب الذي يحتمه عليه عمله باعتباره فراش حي عابدين ومن تقاليد الحي إقامه مثل هذا السرادق لأبنائه جميعا من الأغنياء والفقراء علي السواء وما دام الملك من أبناء حي عابدين فقد أقام له سرادق العزاء قياما بهذا الواجب! ..

ولم يستطع باشوات القصر مخالفة هذه التقاليد خوفا من اتهامهم بمعارضة تقاليد الشعب المصري وعاداته! ..

ولما أقام الحاج سرادق العزاء للملك أصيب باشوات قصر عابدين بالذهول، وتشاوروا في الأمر فاستقر رأيهم علي إقامة جناح خاص في السرادق لاستقبال أمراء العائلة الملكية وأصهارهم وأصحاب المقام الرفيع والدولة والمعالي باشوات مصر من الوزراء وغيرهم

ثم أعد الحاج الجناح الخاص بالأمراء في سرادق العزاء وأخرجوا له من قصر عابدين السجاجيد العجمية الفاخرة وصالونات الأوبيسون المذهبة والصواني الفضية وفناجين القهوة من البورسلين الفاخر وأكواب الكريستال الباهرة، وأوقفوا خدم بثيابهم الحمراء المذهبة في هذا الجناح الملكي الملحق بسرادق العزاء لتقديم القهوة السادة طبقا للتقاليد المصرية بينما كان الشيخ علي محمود والشيخ محمد رفعت يرتلان القرآن في السرادق الشعبي المجاور لسرادق الأمراء!

الخواجة "يني" وابنته "ماريكا"!

كان الخواجه يني مثل كثير من "الاجريج "رجلا طيب العشرة دمث الأخلاق محبا للناس وكانت ابنته (ماريكا) باهرة الجمال حتي خطفت أبصار الشباب في الحي ولكن كيف الوصول إليها!! .. إنها لا تسير إلا ومعها أمها التي كانت حارسة دائمة لها، وكانتا في بعض ساعات الصباح تقومان بتنظيف الحانة وتنظيمها فكان بعض الشباب او الصبية المراهقين يدخلون إليهما لشراء قطعة جبن أو بعض حبات الزيتون او المخللات وهم في غير حاجة إليها للحديث معها أو الاقتراب منها لمشاهدتها وتأمل جمالها، وكان الخواجه يني يعرف ذلك فيسرع في تلبية طلبات هؤلاء الشبان ليصرفهم عن الدكان

كانت ماريكا ناصعة الوجه حلوة التقاطيع ذهبية الشعر وكان شعرها طويلا خلف ظهرها مثل الحصان وكانت عيناها في زرقة البحر وكان صوتها رقيقا ناعما ممتعا وهي تتحدث بالعربية في لكنتها اليونانية ولم تكن تمكث في الحانة طويلا بل كانت بعد مشاركة أمها في أعمال النظافة والترتيب تصعد الي شقتها بينما تبقي "سولا "مع زوجها يني، وقد يذهب لقضاء بعض أعماله فتبقي وحدها

وكان من عادة الخواجة يني أن يقيم في شقته احتفالا في عيد رأس السنة الميلادية فكان يشتري خروفا صغيرا يذبحه ويضعه في صاج كبير مما يضعون فيه الكعك في عيد الفطر ويملأ الصاج حول الخروف بإضافة الخضراوات والبصل أو غير ذلك ويعده إعدادا بديعا ثم يرسله الي الفرن الأفرنجي وكان صاحبه يونانيا مثله يضعه في مكان في الفرن له نار هادئة ويظل يسويه من الظهر حتي المساء حتي يصبح لونه في لون الذهب وتصبح الخضراوات من حوله مثل حديقة

متعددة الألوان وكان يدعو بعض أبناء وبنات الحي الذين في مثل سن ابنته ماريكا، وكان الخواجه يني يصب زجاجة صغيرة علي الخروف ويشعل عود ثقاب فيه نار زرقاء تعيد إليه سخونته ثم تفرق زوجته (سولا) وابنته (ماريكا) الطعام وعند منتصف الليل يطفئون الأنوار والشموع ويقبل كل واحد صاحبته في جو من المرح والبهجه!

وحكايات الحي الملكي، وغيرها من آلاف الحكايات التي أرخت لتراث عريق، كانت كالنقوش الزاهية علي جدران زمان القاهره الجميل!

حكاية "ماريو روسى"

المهندس الإيطالى الذى أسلم وشيد أجمل مساجد مصر الحديثة

لقد خلقت قوة الاسلام وعزه وسماحته من نبوغ الأمم التى أظلتها اعلامه "طرازا معماريا خاصا " إحتفظ بذاتية ظاهرة على الرغم من تعدد أصوله، كما كانت عقيدة الإسلام هى العامل المباشر فى تعديل الأساليب المعمارية المحلية المختلفة .. فكان المسجد هو أهم ما تتمثل فيه تلك الأساليب وإن تنوعت بتنوع البقاع والمناخ، إلا أنها ظلت دائما محتفظة بمميزاتها الرئيسية، وقد كان لمصر دورها فى النهوض بالعمارة الإسلامية حفظ لها سلسلة من روائع الفن المعمارى متصلة الحلقات منذ الفتح الإسلامى وحتى يومنا هذا .

ومن منطلق ضرورة بعث القدوة الجادة والقيم المضيئة فى تراثنا كى تؤثر فى عصرنا ومجتمعاتنا الإسلامية .. أقدم نموذجا مشرقا لا أكاد أجد له ذكرا لدى جمهور المثقفين، فضلاً عن عامة الناس .. هو العالم الأثرى الإيطالى "ماريو روسى" المولود فى روما عام ١٨٩٧م.

كان للأسرة المالكة فى مصر الحديثة فضل الإهتمام بفنون العمارة الإسلامية، تمثل فى الرغبة فى تشييد المزيد من المساجد والمتاحف، خاصة فى عصر الملك فؤاد الأول الذى إستقدم عدد من المهندسين الإيطاليين الذين برزوا فى هذا الفن فى إستانبول، بالإضافة إلى إنجازاتهم فى مجال العمارة المدنية، منهم: "مارشيلو بياشنتينى" و"جيوليو مونجيرى" والأخوان "أنطونيو وجيوفانى بارلوزى" و"لاشياك" .. وهؤلاء كانوا أساتذة المهندس الإيطالى "ماريو روسى" والذى كان أيضاً عالماً أثرياً على الرغم من صغر سنه، وكان الملك فؤاد - رحمه الله - قد عينه مهندسا للخاصة الملكية فى عام

١٩٢٨م ومشرفاً على القصور الملكية، كما إستعانت به وزارة الأوقاف المصرية فى تجديد المساجد التابعة لهـا، وأبرزهـا التوسعة الجديدة لمسجد مولانا الإمام الحسين - رضى الله عنه - ذات الشبابيك القوطية التى تميز الإضـافة الجديـدة فـى إطلالتها على الميدان.

كان "روسى" فى البدايـة تتنازعـه مـؤثرات "العمـارة الإيطالية المقدسـة - The Italian sacred Architecture" .. كما فاق إهتمام الملك فؤاد بالمساجد كل عناية، ورعايته كانت متلاحقة ودائمة، فبدأ بالعناية بمسجد "الرفاعى" الـذى أمـرت بإنشائه جدته "دولتلوخو شيار هانم" والدة الخـديو إسـماعيل باشا، وإستغرق بنائه السنوات ١٨٦٩-١٩١٢م ويرجع الفضل فى تحديث هذا الصرح وما يزخر به من جمال وثراء فنى إلى العبقرية الصادقة لماريو روسى، فأحـاط المـداخل بـأنواع العظمة، وإستحدث تحلية الأعمدة بوزرات رخامية، وكـسيت الأعتاب بالرخام مختلف ألوانـه وبالمقرنـصات والكتابـات الجميلة فزادته بهاء وجمالا ، وإزدانـت الجـدران الـشاهقة بالشبابيك النحاسية المفرغة بأشكال هندسية لا مثيل لها، فكان كما أراد الملك فؤاد أن يجعل منه: روضة للبيت الحاكم فـى مصر!

كان "روسي" طرازا فريدا من المعماريين .. موهوبـا .. صموتا متفكرا .. مغرماً بالبحث فى فنون العمارة الإسلامية وإكتشاف كنوزها وتشييد عمارة جديدة على أساسـها، وإلـى جانب ما كانت وزارة الأوقاف تكلفه به مـن أعمـال تـرميم وتحديث، ظل ماريو على هوايته فى زيارة المساجد الأثريـة والبيوت الإسلامية وينسخ كل ما فيها من نقـوش وزخـارف إسلامية، وإستمر فى عمله هذا لسنوات طويلـة أنـشأ فيهـا مجموعات هائلة من اللوحات التى تحمل رسـوم الزخـارف

ووحداتها وتحليلها فنيا وهندسيا .. تشكل ذخرا فنيا للعمارة الإسلامية فى مصر: مازال قابعا حتى يومنا هذا فى محفوظات وزارة الأوقاف المصرية!!

تحف معمارية فى الإسكندرية :

قضى "روسى" سنوات عدة فى دراسة فنون العمارة الإسلامية – المصرية وإستيعابها متأثرا بالفنان العثمانى الشهير "سنان" وأسلوبه فى تشييد القباب على أضلاع مثمن أو مسدس .. فى تلك الأثناء، طلبت إليه وزارة الأوقاف إعداد مشروع لإعادة بناء مسجد: أبى العباس المرسى "قطب الإسكندرية" ونهض "روسى" متحمسا لهذا العمل، فأعد مشروعا بديعا لبناء جامع فريد، يعتمد على الأصول والنماذج الفنية التى درسها وإبتكر فى هذا المشروع عناصر معمارية جديدة مثل النماذج الجميلة من العقود المدببة المستطيلة إلى أعلى، خاصة فى رواق القبلة، ترك "روسى" مجالا واسعا للسقف حيث شيد فوق "البلاطة" المربع القائم أمام المحراب: واحدة من أجمل قباب المساجد المصرية الحديثة، قائمة على دعامات حجرية ملبسة بالرخام، وترك خارج المثمن رواقا يدور مع بيت الصلاة والمسجد جميعه بيت صلاة، فإستغنى روسى بذلك عن صحن المسجد الشائع فى العمارة المصرية .. إزدانت القبة بـ"القمريات" وهى شبابيك صغيرة فى رقبة القبة مغطاة بالزجاج الملون المعشق، وترتفع القبة سامقة بنحو ٢٦ مترا تزدان من الخارج بنقوش مملوكية الطراز، ومن الداخل تمثل قطعة رائعة من الفن الإسلامى، وتتدلى منها ثريا ضخمة تضارع مثيلتها فى جامع محمد على باشا بالقلعة، وتحوى هذه الثريا عدة أطنان من البرونز والنحاس والبلور ولكى تتحملها القبة، أرسى على

قاعدتها ثمانية أعمدة من الجرانيت الوردى الذى تم نحته خصيصا فى إيطاليا، أما مئذنة المسجد فقد جعلها متناسبة فى إرتفاعها مع مساحة المسجد وإرتفاع القبة.

ويعد محراب هذا المسجد من أجمل المحاريب، فإرتفاعه يزيد عن إرتفاع المنبر بجواره ويتميز بإطار من الرخام المزدان بالفسيفساء والنقوش والتجويف الفريد، كما لوحظ أن "روسى" إستعاد من جديد "فن الأرابيسك" فى تصميم النوافذ، وإستحدث قبابا صغيرة الحجم فى أركان سقف المسجد، تزدان بأروع النقوش الهندسية والزخارف الإسلامية.

عقب الإنتهاء من تشييد هذا المسجد - الذى إستغرق بناؤه ١٦ عاما - تبين أن "روسى" قام بأجمل عمل معمارى دينى فى العالم الإسلامى منذ قرون طويلة، وأصبح مسجد أبى العباس المرسى موضع إعجاب المعماريين جميعا وإتخذوه أساسا لإنشاء المساجد الجديدة فى مصر.

قصة إسلامه:

فى هذه الأثناء، كان "روسى" يقترب من الإسلام شيئا فشيئا ، ومن دراسة الآثار الإسلامية إنتقل إلى دراسة العقيدة الإسلامية، كما درس اللغة العربية حتى أتقنها، وواظب على قراءة القرآن فإزداد حبا للإسلام وقربا منه حتى تمكن من قلبه، أصبح لا يمل قراءة القرآن والجلوس إلى الشيوخ، ذات ليلة كان يمارس هوايته فى التمشى على شاطىء البحر حتى وصل إلى مسجد أبى العباس وسأل عن شيخ المسجد، وبادره روسى: أريد أن أعتنق الإسلام .. تأمله الشيخ فى دهشة وسرعان ما رأى فى وجه هذا الإيطالى إيمانا عميقا مشرقا، فطلب من روسى تأجيل ذلك عقب أداء صلاة العشاء، وبعد الإنصراف منها، أقبل الشيخ ومعه بعض الشهود .. وأمام

المحراب أعلن "روسى" إسلامه فنطق بالشهادتين وقرأ ما تيسر من القرآن الكريم، ثم قام فأدى مع الشيوخ صلاة شكر لله تبارك وتعالى .. وطلب منهم "روسى" أن يقضى بقية الليل فى المسجد، كان ذلك فى إحدى ليالى شهر مايو عام ١٩٤٦م، حيث ظل روسى يصلى ويدعو الله كثيرا ويحمده على نعمة الهداية وإستقرار النفس.

إن مما يلفت النظر فى هؤلاء الذين يسلمون من الغربيين أنهم من النخبة الصالحة المستنيرة أمثال: محمد أسد وهوفمان وجرمانوس ... ممن لا يتسع المقام لذكرهم، ورأوا الخيرة فى الإسلام عن درس وإستقصاء وبصيرة وإستنارة ومقارنة متأنية أدت جميعها إلى يقين واحد هو أفضلية الإسلام وجدارته براحتهم النفسية وملجأ سعادتهم فى دنياهم وآخرتهم، وهم الذين أتوا من حضارة غلبت عليها المادة!

كان "روسى" يلاحظ ويدرس سلوكيات المسلمين الذين أقترب منهم وعرفهم عن كثب، وكتب روسى: "لقد تعاملت مع كثير من المسلمين الذين لا يعرفون الإسلام على حقيقته، إلا أنهم تميزوا بخلق رفيع .. لاشك أن تعاليم الإسلام تخاطب العقل والفطرة، ونظامه الإجتماعى قد أثار إنتباهى بما فيه من مساواة كاملة بين الأجناس، وبتلك الحرية التى يتيحها الإسلام لأهله والإعتراف بالحياة الدنيا التى لم يحرم فيها الإسلام على معتنقيه ما أحل لهم من طيباتها، والإجتهاد فى العلم والحض على تكبد المشاق من اجل تحصيله، ثم المكانة الرفيعة للمرأة المسلمة من منطلق حرص الإسلام على تقدير طاقاتها وإنماء دورها الفعال فى المجتمع".

وأضاف روسى: "إن للإسلام فرصة عظيمة لأن يصبح ديناً عالمياً، لأنة يرضى المطالب الروحية والمادية لإنسان هذا العصر، وهو دين الفطرة الذى جاء لخير البشرية جميعا

بقدرته على حل المشكلات حلولا جذرية .. وعلى علماء المسلمين واجبا بتقديم الإسلام الصحيح إلى الغربيين لإنقاذ أنفسهم وتوجيههم نحو قيم العدل والحق والخير والسلام التى يبشر بها الإسلام بما يحقق لهم السعادة المرجوة .. ومما يبعث على الأسى أن نرى دول الغرب كلها تتعاون على حشد كثير من إمكانياتها وثرواتها للتبشير بالمسيحية فى العالم، بينما علماء المسلمين مؤسساتهم تهمل التبشير بالإسلام والدعوة إليه فى بلاد الغرب"!

إن فطرة الإستجابة للإسلام موجودة فى نفوس الذين لم يصل إليهم الإسلام بيد أنها فقط فى حاجه إلى من يرفع عنها الغشاوة الحاجبه فى رفق عن القلوب فإذا بنور الهداية تنفجر ينابيعه تلقائيا!

وتجدر الإشارة إلى طلب الملك المؤسس "عبدالعزيز آل سعود" رحمه الله من الملك "فاروق الأول" الإستعانه بجهود المهندس "روسى" فى عمارة المسجد النبوى درة العالم الإسلامى ومهاجر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد بلغت التوسعة الجديدة ٦٠٢٤ م^2 وإستغرقت السنوات ١٣٧٠ - ١٣٧٥هـ كما تم تجديد المنارة المجيدية وأضيفت خمس مآذن أخرى، وتمت تسوية أرض المسجد وكسوتها بالرخام، وتخفيض أرض الصحن عن أرضية الأروقة، وترخيم بعض الجدران، وزخرفة باطن القباب والجدران والأعمدة بآيات قرآنية.

عود إلى الإسكندرية

عاد روسى من المدينة المنورة، فكلفته الدولة بتشييد مسجد "المنتزة" فوضع له مشروعا يفيض بالإيمان بالإسلام، وكما جاء مسجد أبى العباس تحفة معمارية، جاء مسجد

المنتزة تحفة تضاهيها، حيث قام روسى بتوسيع بيت الـصلاة وشيد قبة ذات طراز جديد، وأطال المئذنة، فكان أجمل ما فى هذا المسجد روحه الإسلامية الخالصة، فإذا تأملتـه لا تـشك لحظة أن الذى شيد هذا المسجد لابد أن يكون مسلما عميـق الإيمان.

وما أن إنتهى "روسى" من تشييد رائعته الجديـدة حتـى شرع خلال السنوات ١٩٤٨-١٩٥١ فى إنشاء مسجد "محطة الرمل" أو مسجد "القائد إبراهيم" والذى يعد أيضا تحفـة فـى عمارة المساجد.

وقد واجه روسي في أول الأمر مشكلة وجود هذا المسجد وسط مبانٍ عالية، ووجد أنه من الممكن أن يختفي المسجد عن العيون ولو قليلا، لذا تعمد روسي أن يرتفع ببناء المسجد عاليا بقدر لتستقر عليه العين، ثم جعل روسي من منتصف جـدار القبلة مئذنة تعلو نحيلة أنيقة لتمضي نحو السماء حيث تشرف مئذنتها علي المباني المجاورة، واستطاع روسي أن يمهد لتلك الطفرة العالية بصفوف من النخيل أحاط بمثلها مـسجد أبـي العباس المرسي.

فى القاهرة

لم يكتف ماريو روسي ببناء المساجد وتشييدها في الأسكندرية فقط بل امتد عمله إلي العاصمة ليعلي مآذنها ويشيد صروح مساجدها، فقام ببناء مسجد عمر مكرم الشهير في ميدان التحرير قلب القاهرة والثاني هو مسجد الزمالك علي ضفاف نهر النيل، وقد أنشأهما روسي وهو في سن متأخرة.

وتجلت عبقرية روسي واضحة في بناء مسجد الزمالك، فقد وضع روسي بناء المسجد علي قاعدة مرتفعة يصعد إليها بسلالم عريضة من الرخام، أما الواجهة فهي فسيحة مشرفة

ذات عقود وأعمدة، أما داخل المسجد فنجد أجمل بيوت الصلاة في القاهرة حيث الصفاء والانسجام والتوازن والإيوان الأوسط المؤدي إلي المحراب يمثل محورا معماريا.

وحين سعي روسي لإنشاء مسجد عمر مكرم جعله مميزا عن كل ماسبقه من عمارة المساجد في مصر، إذ تميز هذا المسجد بإستخدام روسي للستائر الجصية ذات الزخارف العربية واستطاع أن يحول بعض أجزاء من جدرانه إلي شكل هذه الستائر التي يتميز البناء فيها بالشكل المخرم حتي لتبدو مثل قطعة من الدانتيل، وبعد ذلك انتشرت تلك الأشكال إلي حد كبير وصل إلي حد الإسراف.

لقد خلف ماريو تراثا معمارياً وعلمياً لا يضارع، كما ترك جيلاً من المهندسين الذين تتلمذوا على يديه وحملوا من بعده لواء عمارة المساجد فى مصر أبرزهم المهندسان العبقريان: على ثابت وعلى خيرت، اللذان سطرا صفحات زاهرة فى تاريخ هذا الفن فى مصر، مثلما كانت روائع "روسى" شاهدا على عبقريته الفذة، فإستحق منا أن نذكره ونتذكر أمثاله، مثلما يستحقون منا التقدير والتبجيل بالقدر الذى يدعونا إلى التأمل والتفكير!

شارع عماد الدين

أو "شارع الفن".. وكان في زمن علي باشا مبارك يمتد من شارع بولاق (فؤاد - ٢٦ يوليو) الي شارع جامع الاسماعيلي، وبه ضريح الشيخ عماد الدين، ويمتد حاليا الي شارع رمسيس، والجزء الجنوبي من الشارع حتي تقاطعه مع شارع ٢٦ يوليو أطلق عليه: شارع محمد فريد.

وخلال النصف الاول من القرن العشرين كان شارع عماد الدين يموج بالانوار وصخب الزحام وابواق السيارات وفرقعة سياط سائقوا الحنطور .. ويتهادى صوت الموسيقى والغناء .. والاضواء الملونة تغدق بكرم وحماقة واجهات المسارح والكباريهات ودور السينما والفنادق والمقاهى .. اعلانات الملاهى وصور مرسومة بالالوان للراقصات والمطربات والمطربين!

وكان الشارع يموج بالناس مختلف جنسياتهم والوانهم، مثل معظم شوارع القاهرة، وتتنوع الازياء: قبعات وعمائم وطرابيش، بدلات ومعاطف وجلاليب وجبب وقفاطين .. فساتين فاخرة على الموضة او الحبرة واليشمك .. والملاية اللف والبرقع البلدى!

وشارع عماد الدين هو شاهد علي أروع الأزمنة في تاريخنا الفني، في أوائل القرن العشرين. وقد شيدت مبانيه - أشهرها عمارات الخديو - علي الطرازين الايطالي والفرنسي، وكان من أوائل الشوارع التي ازدانت بمصابيح الغاز علي جانبيه .. ومنذ البداية، كان الحرص علي تشييد المسارح والصالات والمقاهي والكازينوهات لخدمة الجاليات الأوروبية في هذه المنطقة بوسط البلد ثم أصبح الشارع ومسارحه ملتقي الراغبين من سكان الحلمية الجديدة والعباسية ومصر الجديدة والزمالك .. والأعيان من الريف المصري .. وتحولت مقاهي

عماد الدين الي صالونات فكرية وفنية جمعت "أمير الشعر "أحمد شوقي وخليل مطران والعقاد وحافظ ابراهيم والمازني، ومحمد تيمور وفرح انطون وعباس علام وأمين صدقي ونقولا تكلا وغيرهم من نجوم الأدب والصحافة ..

كان بالشارع أغرب بنسيون في مصر: مهمته استقبال السيدات والأنسات القادمات من بلاد الشام، الراغبات في احتراف فن التمثيل، بشرط ألا تكون المقيمة بهذا البنسيون متزوجة، ولا تدفع أجرة الإقامة إلا عندما تعمل باحدي المسرحيات ويتحقق لها النجاح.

في هذا الشارع بدأ البناء الفكري للمسرح الغنائي، فتألق مسرح سلامه حجازي بطريقته الفريدة في التطريب، ثم سلطانة الطرب "منيرة المهدية "التي انتقلت من تخت "شفيقه القبطية" ومقهي نزهة النفوس الي فرقة سلامة حجازي، الي أن أصبحت أول إمرأة مصرية تعتلي خشبة المسرح في عماد الدين وروايتها الأولي "صلاح الدين الايوبي "علي مسرح برنتانيا التي كانت أولي خطواتها في مشوار النجومية، ولم يشهد تاريخ الأوبريت المصري نجاحا مثل الذي شهده شارع عماد الدين بفضل فرقة منيرة المهدية.

ويذكر الشارع، عبقرية الفنان "سيد درويش "الذي أحدث ثورة في عالم المسرح الغنائي، وهو الذي آمن بأن الموسيقي للشعب .. أراد أن يغني الشعب بجميع طبقاته .. فكتب لالحانه التي شدت بها مسارح عماد الدين الخلود .

ومن المدهش، أن فن المنولوج الوطني والاجتماعي ولد في صالات ومسارح عماد الدين، وكان من أعمدة هذا الفن: يوسف وهبي، حسن فايق، سيد سليمان، إسماعيل ياسين وغيرهم...

وكم تألقت في سماء عماد الدين فرق ونجوم في تاريخ

المسرح المصري، أذكرمنهم: فرقة جورج أبيض، فرقة عزيز عيد، أولاد عكاشة، فرقة يوسف وهبي "مسرح رمسيس" وفرقة نجيب الريحاني وفرقة علي الكسار "بربري مصر الوحيد".. وفرقة فاطمة رشدي ..

أضاء جورج أبيض مسرحه "الرينيسانس "بشارع عماد الدين عام ١٩٢٣، وتبادل مع غيره من الفرق مسرح "برينتانيا "الجديد، وكان مقهي الكورسال مكانه المفضل الي جانب قهوة "متاتيا "للقاء أهل الأدب والفن والصحافة.

وظل علي الكسار "عثمان عبدالباسط" مسيطرا علي شارع عماد الدين نحو ٣١ عاما.. ببساطته وطيبته وروحه المصرية المرحة مع تمسكه بالقيم والتقاليد .. قدم خلالها ١٦٠ مسرحية علي مسرح "كازينودي باري "و١٩٠ مسرحية علي مسرح "الماجستيك"..

وقد أحدث شارع عماد الدين لنفسه أجنده وطنية بالاجتماعات التي كانت تقام في مقاهيه عقب ثورة ١٩١٩ ... عمال المترو والترام وشركات الغاز والكهرباء والتليفونات والسجاير .. وحتي جرسونات المقاهي .. وغيرهم من الطلبه وموظفي الحكومة .. فكان الشارع أحد منابر الوطنية والدعوة الي النهضة المصرية والخلاص من الاحتلال البريطاني.

واذا مضينا في رحلة قصيرة الي زمان عماد الدين وحاولنا تحقيق بعض "المواقع "فسنجد أن مدام" مارسيل "كانت من الشخصيات الشهيرة بشارع عماد الدين وهي صاحبة مسرح وكازينو "دي باري ".. كما أنها إستأجرت مسرح صغير بجوار مسرح رمسيس وأطلقت عليه "مسرح الريحاني" .. ومسرح وكازينو دي باري كان في موقع سينما ريتس .. ومسرح "الماجستيك "كان موقعه سينما "بيجال" حاليا ومسرح "الاجيبسيانا" كان موقعه سينما "ريجال" ومسرح "الكورسال"

كان موقعه سينما الكورسال، وأول عرض لفرقة رمسيس كان في موقع مسرح الريحاني حاليا، وأصله "جاراج" كان يملكه المليونير اليهودي "عاداه".. ثم أصبح سينما "راديو" الي أن حولها يوسف بك عام ١٩٢٢ الي مسرح رمسيس، والي جواره كان مسرح فرقة فاطمة رشدي ..

ومسرح "الاجيبسيانا" والذي شهد العصر الذهبي لفرقة الريحاني في العشرينات من القرن الماضي، كان أرض رمليه بلا بلاط أو خشب، وسقفه مغطي بقماش الخيام والكراسي من القش، اشتراه "ديموكانجوس "وأطلق عليه مسرح "برنتانيا "بعد أن هدم برنتانيا القديم وكان موقعه: محل كبابجي ألفي بك الآن.

ومن مقاهي عماد الدين الشهيره: قهوة الفن ناصية مسرح الريحاني، وقهوة ريجينيا وكان خلفها نقابة الممثلين القديمة، وقهوة راديوم في منتصف الشارع ثم قهوة بايرون ناصية عماد الدين والملكه نازلي (رمسيس) ومقهي الكورسال .. وكانت ملتقي نجوم الفن والأدب والصحافة.

زمن شارع الفجالة

قاهرة الشرق .. مدينة يسكنها التاريخ .. شوارعها: حكايات، قصورها ومساجدها: مشربيات على زمان حافل ومثير .. وللقاهرة فى نفوس المصريين خاصة، والعرب عامة، ايقاع شجى يحمل فى طياته شتى أنواع الألم والحسرة على ماض جميل يكاد يندثر!

ومثلما كان شارع المعز لدين الله: الشارع المتحف، بما يضمه من روائع العمارة الاسلامية على مر العصور .. والحق أقول أنه "تاريخ له شارع"! .. ومثلما كان شارع محمد على هو "شارع الصحافه" ذلك الشارع الفريد الذى يحتوى رأسه واحد من أعظم مساجد الاسلام، وفى قلبه مكتبة ومتحف، وتحت أقدامه مسرح وأوبرا .. ومثلما كان شارع عماد الدين "شارع الفن".. فقد كان شارع الفجالة فى زمانه الجميل "شارع الثقافة"!

ونرحل الى زمن شيخ المؤرخين "المقريزى "لنعرف الاصول التاريخية لهذة المنطقة "الفجالة "فيقول: "هذه الخطة كان موضعها بستانا من اعظم بساتين القاهرة فيما بين أراضى اللوق والمقس، وبه منظرة للخلفاء الفاطميين، تشرف طاقاتها على بحر النيل الأعظم ... فلما زالت الدولة الفاطمية تلاشى أمر هذا البستان وخرب، فحكر موضعه وبنى الناس فيه، فصار خطة كبيرة كأنه بلد جميل وصار به سوق عظيم وسكنه الكتاب وغيرهم من الناس"... إشارة لطيفة من شيخنا المقريزى بسكنى "الكتاب "هذة الخطة أو المنطقة والتى نشأ فيها بعد مئات السنين شارع الثقافة!

ويشير مؤرخ الخطط التوفيقية: على باشا مبارك الى أن شارع الفجالة "جميعه من الأرض المعروفة بأرض الطبالة

وهو يوازى سور البلدة تقريبا وقبل مجىء الفرنساوية كانت ارض صعبه يعسر المرور بها، ثم لما دخلت الفرنساوية أرض مصر نظمت بعض الجهات هذا الشارع وجعلته ممتدا من قنطرة باب الحديد الى قنطرة العدوى ... وابتداؤه من آخر شارع الزعفرانى وأول شارع باب الشعرية وانتهاؤه قراقول باب الحديد وطوله ألف ومائة وخمسون متراً "

وشارع الفجالة هو أحد الشوارع المستجدة ضمن مشروع "القاهرة الحديثة "فى زمن إسماعيل العظيم والذى تولى تنفيذه على باشا مبارك ناظر "وزير "الاشغال العمومية آنذاك .. ويشير "بيير توليه "قنصل عام الولايات المتحدة بمصر فى عصر الخديو إسماعيل الى "الضاحية الجديدة التى شيدت بشمال المدينة وتسمى "الفجالة "بعد إزالة كميات هائلة من الانقاض وردم الأراضى المنخفضة ووضع تخطيط جيد لهذة الضاحية التى يخترقها شارع واسع تحفه الاشجار"!

ويشير الباحث الفرنسى د. "جان لوك آرنو" الى تفضيل الأقلية المسيحية سكنى هذة المنطقة بمرور الزمن الى أن إستقرت بها وأقامت عددا من المؤسسات القبطية، مؤكدا أن استقرار الاقليات الدينية فى الاحياء الجديدة منظم على أساس القرب من الاحياء الاقدم المتميزة بكثافتها.

ونعود بالذاكرة الى نهاية القرن التاسع عشر، حيث أثمرت جهود رواد النهضة الفكرية وتحديث مصر: رفاعة الطهطاوى، على باشا مبارك، محمد مظهر باشا، عبدالله باشا فكرى وغيرهم ... وولد جيل حول مطلع القرن العشرين، أصبح شغوفا بحب المعرفة، مغرما بالقراءة، فكانت وجهته "شارع الفجالة "حيث مطابع دور النشر تخرج أحدث الاصدارات (الكتب القديمة كان مختصا بها سور الأزبكية الشهير قبل أن يكتسحه مشروع مترو الانفاق ثم عاد فى

صورة باهته كالحة!) والمكتبات التابعة لدور النشر والمكتبات الخاصة ودكاكين باعة الكتب كلها تزخر بكنوز الفكر العربى: كتابات العميد طه حسين، عبقريات العقاد، روائع توفيق الحكيم وجورجى زيدان والمنفلوطى .. أحمد لطفى السيد "أستاذ الجيل ".. محمد حسين هيكل، عبدالعزيز البشرى، امين الخولى، مصطفى عبدالرازق، المازنى، نجيب محفوظ ويحيى حقى الى يوسف ادريس ... وغيرهم من أعلام الفكر والسياسة والأدب.

كانت مكتبات الفجالة تزدان أيضا بدواوين كبار الشعراء: أحمد شوقى، محمود سامى البارودى، حافظ ابراهيم، خليل مطران، على محمود طه، على الجارم ... وتزخر بروائع الأدب والمسرح العالمى، سواء مترجمة أو فى لغتها الأصلية: انجليزية أو فرنسية .. وكتب فى التاريخ السياسى والاقتصادى والاجتماعى .. ومذكرات وسير الزعماء والادباء والفنانين .. بينما باعة الصحف على "الفرش "بجانبى الشارع ينادون على "الاهرام" و"السياسة الاسبوعية" و"روز اليوسف" و"اللطائف المصورة" و"مسامرات الشعب" الى جانب بعض الكتب مما أخرجته المطابع "فرز ثان"!

كان بهذا الشارع ايضا: عدد من المطابع الخاصة بدور النشر وورش ودكاكين اختصت بتجليد الكتب، ذلك الفن الجميل المتوارث الذى عرفته شتى بقاع العالم الاسلام منذ قرون طويلة.

وتحفظ ذاكرة الشارع: عربات سوارس وعربات الحنطور وعلى بعد خطوات تسمع أجراس الترام وصخب الزحام فى ميدان "باب الحديد" الشهير حيث المحطة الرئيسية للسكك الحديدية وحيث ينتهى اكبر عدد من خطوط الترام التى تدفع الى هذا الشارع: طلبة وشباب وشيوخ ذوى عمائم

وافندية "مطربشون" وبعض الرعايا الاجانب .. موظفون بالمحاكم الشرعية ودواوين الحكومة ومصححون فى الصحف والمطابع .. وخطباء وشعراء "تحت الطلب "يقدمون انتاجهم للاحزاب والباشوات، ومنهم من تخرج بالازهر أو دار العلوم .. وتحفظ ذاكرة الشارع ايضا - مثل غيره من شوارع القاهرة الرئيسية: المظاهرات الشعبية المنددة بالاحتلال .. الدامية فى اكثرها .. يشعلها خطباء كلماتهم النارية تهز المشاعر وتحرص على الجهاد .. وسرعان ما تصطدم المظاهرة بـــ "بلوكات النظام" وقوات الاحتلال البريطانى .. وكان عصب هذة المظاهرات فتية مدارس "راغب مرجان" الشهيرة بالفجالة!

اندثرت المطابع والمكتبات ودور النشر .. لم يعد باقيا منها سوى "نهضة مصر" التى ظلت تنشر أعمال أديبنا العالمى "نجيب محفوظ "من نصف قرن .. ومنذ عقد السبعينيات وعصر "الانفتاح الساداتى" تحول شارع الثقافة الى اشهر سوق لتجارة السيراميك والأدوات الصحية!.، كدلالة واضحة على ما آل إليه حالنا فى جميع المجالات: سياسيا واجتماعيا وثقافيا واقتصاديا ..!

واتذكر أديبنا الجميل الراحل "يحيى حقى" وهو يحدثنا فى "مرآة بغير زجاج" عن صديقة المصور بشارع الفجالة "ولافتة سوداء حال لونها تتدلى من نافذة الطابق الأعلى من منزل قديم متداع وقد كتب عليها: فؤاد فهمى - مصور فوتوغرافى"!

وأتذكر ايضا سنوات شاركت فيها كاتبنا الكبير "كامل زهيرى" هوايته فى التجوال اليومى فى الاحياء القديمة بالقاهرة .. حيث المساجد والكنائس والاسبلة والوكالات والحمامات .. جدران التاريخ فى الشوارع والحوارى، فهو وعلى حد تعبيرة "يهوى قراءة العمارة ".. وفى إحدى جولاتنا

توجهنا الى حى الفجالة .. حيث المنشآت والبيوت "الرومية "على حد تعبير على باشا مبارك .. قمنا فى ذلك اليوم برصد عدد من المنشآت القبطية فى هذا الحى، وتدوين اسمائها فى مفكرة صغيرة، منها: مدرسة العائلة المقدسة (الجيزويت) وكنيسة العائلة المقدسة، كنيسة السيدة العذراء للكاثوليك، مدرسة البطريركية اليونانية، كنيسة القديس انطون، الجمعية الخيرية القبطية، كنيسة نوترذام السوريانية الكاثوليكية، مدرسة نوتردام للبنات، مدرسة الفرير (كوليج دى لاسال) مدرسة القديس يوسف والكنيسة المارونية والمستشفى القبطى، ومدرسة ودير سانت كاترين لليونان الكاثوليك ...

ولا يمكننى أن أغفل "روبير سولية" رئيس تحرير جريدة Le monde، أشهر الصحف الفرنسية، والذى تعود جذورة الى عائلة شامية مسيحية هاجرت الى مصر منذ اكثر من قرنين .. وولد بحى الفجالة وتعلم بمدرسة "الجيزويت "الشهيرة .. عرف سولية مصر ودرس تاريخها وعايش أحداثها وحتى بعد أن هاجر مع أسرته الى باريس لم ينس تجربته العميقة فى القاهرة والتى يحرص على زيارتها دائما .. سوليه ليس صحفيا شهيرا فحسب بل ايضا روائيا عظيما .. وروايته "الطربوش "التى صدرت عام ١٩٩٢ تحكى تاريخه وتجربته الخاصه، بدءا من زيارة السلطان حسين كامل لمدرسة الجيزويت بالفجالة عام ١٩١٦ ثم ينتقل خلال الأحداث عبر جيلين لتصوير عائلة "جورج بك بطرخانى" ملك صناعة الطرابيش فى مصر .. لقد صور سوليه ببراعة لوحات من "الفردوس المفقود".. القاهرة الأخرى .. بأحداثها الوطنية التاريخية .. بألوانها وظلالها .. بنواديها وكنائسها ومدارسها وشخصياتها البارزة .. وعالم لم يعد من عالمنا، تداعى .. ثم مات .. دون أن يؤبنه أحد!!

حارة اليهود ..
وحكايات "لوسى" و"خميسة"!

ان الاندماج اليهودى فى واقع المجتمع المصرى .. كان اندماجا وانصهارا نسجته الايام، من خلال التسامح الفطرى الذى ميز الانسان المصرى عبر تاريخه، وجعله بحسه الحضارى يفصل بين الدين وامور الحياة اليومية، فلم تلق حارة اليهود بالقاهرة: مصير حارات اليهود فى العالم ..!

و"حارة اليهود".. هى اشهر الاماكن التى عاش فيها يهود مصر، وتتبع قسم الجمالية، وتنقسم الى قسمين: شياخة اليهود الربانيين، وشياخة اليهود القرائين .. ليس معنى هذا ان اليهود المصريين قد عاشوا فى جيتو كما عاشوا فى اوروبا، فنشأة الحارة، كان ففى الاساس طبقيا وليس دينيا ..

تشغل حارة اليهود: مساحة كيلو مترين مربعين تقريبا، تبدأ من وسط شارع الصاغة، تتفرع بداخلها نحو ١٢ حارة وزقاقا، تكثر بها المنحنيات والعطوف، وتتصل عن طريق سبعة منافذ، بحى الخرنفش وجنوب الحسينية، وتجاور شارع الموسكى وخان الخليلى والصاغة وحى الحسين .. وقد فصلها عن شارع الحمزاوى "سوق الحمزاوى الكبير "شارع الازهر عند شقه.

والتمييز بين مستويات الحياة الاجتماعية والاقتصادية ليهود مصر، كان يخلق بالفعل تباينا ملحوظا على نفس النحو الذى كان قائما فى المجتمع المصرى وسكان الحارة الذين يمثلون افقر الطبقات اليهودية، كانوا جزءا من نسيج المجتمع من حيث اللغة والثقافة والتقاليد المتوارثة.

التسامح وعلاقات الود تسود الجميع: مسلمين ويهود واقباط، معايشة مجردة من كل تعصب دينى، مع احتفاظ اهل

كل دين بشخصيتهم الاجتماعية الذاتية، ونوع من المشاركة الوجدانية فى مناسبات الافراح والاحزان والاحتفال بالاعياد.

جو من التسامح الفطرى كان يظلل حياة اليهود المصريين، لم يعكره سوى استفزازات وتحركات المنظمات الصهيونية بدء من عام ١٩٣٨م، وما بعد حرب ١٩٤٨م التى كشفت عن الوجه القبيح للصهيونية ووضوح اهدافها التوسعية الدموية .. وتأثر كثير من يهود مصر بالدعايا الصهيونية، وفكرة الحنين الى وطن يجمع كل يهود الشتات .. والحلم بالارض التى وعدهم الله!

وهو ما عبرت عنه الاديبة الاسرائيلية "ادا اهارونى "فى روايتها "الخروج الثانى "بقولها:

"لقد كان الشعب كريما معنا، ولكنى لا اريد ان اكون ضيفا محتملا فى ارض غريبة بعد الان!.. لقد حان الوقت لنشكرهم على حفاوتهم والبدء فى التفكير فى وطننا الحقيقى! "

الغالبية العظمى من سكان حارة اليهود كانوا يتمتعون بالجنسية المصرية، ومعظمهم كانوا من الفقراء، وبعضهم من متوسطى الدخل .. والواقع الاجتماعى يشير الى ان الحارة كانت موطنا للعديد من الاسماء اليهودية التى صعد نجمها فى سماء الارستقراطية اليهودية، مثل عائلات: قطاوى، موصيرى، هرارى .. وبعض العائلات الثرية الشهيرة كانت تتباهى بان "اقدامها لم تطأ هذا الحى الاسرائيلى"!

واختلطت التقاليد اليهودية بالعادات الشرقية داخل بيوت الحارة، كما اختلطت تلك التقاليد والعادات بالثقافات الاوروبية المختلفة داخل بيوت العائلات الثرية فى احياء الزمالك وجاردن سيتى ومصر الجديدة مما ازعج جيل الشباب بمشكلات الهوية، فى اطار الظروف لمحيطة بهم، والذين وجدوا فى الافكار الصهيونية تعبيرا عن "الشعور القومى

"والرغبة فى هوية اجتماعية وسياسية!

حالة من التماذج الاجتماعى والاندماج، اكسبت يهود الحارة كثير من التقاليد الاجتماعية، فعلى سبيل المثال، تقاليد الزواج ومراسمه من اهم المعالم والظواهر التى تتباين بشأنها الحضارات، تباينا عظيما، لكن يهود الحارة تأثروا – الى حد كبير – بعادات وتقاليد الزواج فى مصر، واخذوا منها الكثير، مثل: حمام العرس، تخطيب الايدى والارجل بالحنة، اظهار منديل البكارة! .. اقامة الولائم للمدعويين .. بل حتى عادة "قرص العروس فى ركبتها "!!

وكثير من مسلمى الحارة كانوا يشاركونهم افراحهم ومناسباتهم الخاصة: مولد طفل، السبوع و" زفة المطاهر "وعمل الاحجبة واعداد الخرزة الزرقاء والاحتفال بايام وليالى عيد البوريم واحراق دمية "همام" الشرير .. والاحتفال بـ "التفلين" الذى يقام للطفل الذى يبلغ ١٣ عاما ودخوله عالم الرجال!

معابد حارة اليهود

لم يتبق بحارة اليهود من بين احد عشر معبدا سوى ثلاثة فقط وملجأ للمسنين "دار رحمين اسحق ليشع الخيرى".

اهم المعابد الموجودة حاليا بالحارة، هو معبد "ابن ميمون Maimonedes" او "راب موشى".. بالتحديد فى ١٥ درب محمود، الجزء المعروف بعطفة حمام اليهود، وابن ميمون هو الفيلسوف والطبيب والعالم اليهودى الشهير، ورئيس الطائفة، ولد بقرطبة عام ١١٣٥ م وتوفى بالقاهرة عام ١٢٠٤ م، واول بناء لهذا المعبد كان عقب وفاة ابن ميمون، ونفس هذا المكان شهد لقاءات ابن ميمون بتلاميذه ومريديه، كما كان ايضا عيادة لعلاج مرضى الحى .. والمعبد منخفض عن

مستوى الارض، شيد على مساحة ٦٠٠ متر مربع، واجهته من الرخام الفاخر، ومن خلال قرون مضت تجدد واعيد بناؤه مرات عديدة، واخر عملية ترميم كانت فى مايو ١٩٦٧ .. مما يدل على ان يهود مصر كانوا يمارسون شعائرهم ويجددون معابدهم بكل حرية .. حتى فى أسوأ لحظات الصراع العربى – الاسرائيلى!

وهو المعبد الوحيد فى مصر الذى بنى هيكله داخل ساحة المعبد دون ان يكون للهيكل قبة او سقف .. وسرداب يدخله الزائرون حفاة الاقدام، الى الغرفة المقدسة التى رقد بها جثمان ابن ميمون لمدة سبعة ايام، قبل نقله الى طبرية بفلسطين حيث دفن بها، ويتوجه اليها اليهود وبعض المسلمين والاقباط لنيل البركات والتماسا للشفاء .. واسطورة يهودية تحكى بأن من كان مريضا ويرغب بالشفاء، فعليه ان ينام بهذه الغرفة، من غروب الشمس حتى مطلع الفجر، فيصحوا وقد برأ من مرضه!

بعض التمائم والرقى ما زالت عالقة بجدران المعبد، ولوحة تذكارية تسجل زيارة الملك فؤاد، الذى يروى انه رقد فى تلك الغرفة المقدسة التماسا للشفاء!

والمعبد الثانى: "رابى حاييم كابوسى "فى ٣ درب نصير، وكابوسى الذى ينسب اليه هذا المعبد، كان واحدا من ابرز علماء علماء التوراة، واشتهر بلقب "صاحب الكرامات ".. وقد برع فى اعمال السحر!..وكابوسى من اصل اسبانى، هاجرت اسرته الى مصر، التى ولد بها، وتوفى عام ١٦٣١، ودفن بضريحه بمقابر اليهود بالبساتين، والمعبد والضريح مزارين مباركين لليهود!

والمعبد الثالث: "معبد موصيرى "او معبد "باريوحاى "بشارع الصقاليه رقم ١٦ شيدته عائلة موصيرى عام ١٩٠٥،

فى نفس المكان الذى ولد به عميد العائلة "نسيم موصيرى "عام ١٨٤٨ كما كان مدرسة للتعاليم التلمودية، وتعليم اللغة العبرية وما زال المبنى بحالة جيدة!

وحتى عام ١٩٧٥، كان ما يزال قائما "معبد المصريين" اقدم واكبر معابد اليهود بالقاهرة ..

وبحارة العطار فرن "الكاشير" الذى يصنع الخبز ويعد الفطائر غير المخمرة، طبقا للعقيدة اليهودية، فعلى سبيل المثال، فى عيد الفصح الذى يوافق ذكرى خروج بنى اسرائيل من مصر لا بد ان يذبحوا شاه او جديا، ويأكلون قطعة من العظم المشوى وخبز الكاشير .. ولابد ان يكون الدقيق من قمح زرع وحصد بأيد يهودية خالصة، حتى يصبح حالالا فى شريعتهم .. وقد عرضت الحاخامخانة هذا الفرن للبيع فى نهاية عام ١٩٦٩، غير انه لم يأت بالثمن المناسب، فتم اغلاقه!

مشاكل حارة اليهود: الفقر، الامية، البطالة، التسول، نقص الرعاية الاجتماعية، بدأت تشكل محور اهتمام فى اجتماعات مجلس الطائفة، وفى اندية الشباب، وعلى صفحات الجرائد والمجلات اليهودية .. وحملات تدعو اثرياء الطائفة للتبرع من اجل النهوض اجتماعيا بسكان الحارة، وحثهم على الاسهام فى اقامة المدارس والمراكز الاجتماعية ومكاتب الرعاية الصحية.

كان هناك تقليد متوارث التزمته بعض الاسر الثرية، فى ايام الاعياد الدينية، بدعوة بعض من فقراء الحارة، لتناول وجبات فاخرة لايحظون بها سوى مرات تعد على اصابع اليد الواحدة طيلة حياتهم، فكنت تراهم يجرون اسمالهم وبؤسهم الى فيلات الاحياء الراقية: المعادى، الزمالك، جاردن سيتى .. وكان لهم الحق فى اخذ ما تبقى من لفائف من ورق الصحف

.. يدسونها فى جيوب جلاليبهم او معاطفهم البالية، لا يطلب منهم سوى الدعاء لهذه الاسرة بالخير والبركات!

بعض العائلات كانت تكتفى بالتصدق على بعض المعدمين .. اما كيف يعيش هؤلاء البؤساء؟ .. فذلك امر من النادر ان يهتم به اقطاب العائلات ذات الثراء والنفوذ، وكان فى نظر البعض – معيار للنجاح – فمن خلال هؤلاء البؤساء، يمكن للاثرياء ان يقيسوا المسافة التى تفصل بينهم وبين الحارة، التى غادرها اباؤهم خوفا وتحسبا من ان يطأوها باقدامهم مرة اخرى!!

صور ومشاهد: فى هذا الحى الشهير، كان يعيش نحو ٢٠ الفا من اليهود، حتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ .. ومن الشائع ان "ليفى اشكول "رئيس وزراء اسرائيل الاسبق و" موشى ديان "قد ولدا بهذا الحى!

لا شيئ يذكرك الان بأن هذا الحى كان لليهود سوى "نجمة داود "السداسية محفور او مشغول بالحديد على بوابات بعض المنازل المتبقية من ذلك العهد، رحل عنها اصحابها، فى موجات هجرات متعاقبة، منذ عام ١٩٤٨ وحتى عام ١٩٦٧.

العتبات العليا لهذه الابواب كان يوضع بداخلها اوراق مخطوطة تحوى اربعة نصوص من التوراة، تتحدث عن خروجهم من مصر فى زمن موسى، لتظل ذكرى الخروج فى وعى اليهودى دائما عندما يتجاوز عتبة بيته!.. وحتى لاينسى ما عانوه من ذل ملوك الفراعنة!

وكانوا يتركون موضع حجر بدون بناء، حسرة على هدم هيكل سليمان!.. مثلما كان يحدث فى حفلات الزواج عندما يقدم الحاخام كأسا قرأ عليها السبع بركات الى العروسين، فيشربان منها ثم تكسر، ليذكرا دائما هدم الهيكل!

كان الحرفيون من يهود الحارة، يعملون فى صياغة

الذهب والفضة، وصناعة الاحذية، ومواقد الجاز واصلاحها، وترميم الاثاثات، والكهرباء والميكانيكا .. اما فى مجال التجارة فقد تركز نشاطهم فى تجارة الاقمشة والورق والادوات الكهربائية.

بعض ربات البيوت من اليهوديات، كن يعملن بالحياكة وصنع الحلوى والمربى وتقطير الزهر .. وغالبا ما كن يشاهدن خارجات من بيوتهم حاملات وجبات الغداء الى ازواجهن فى المحال والورش ..

وعلى ناصية عطفة او زقاق، كنت تسمع نداء عجوز على بضاعتها من البوريك، المحشو بالجبن او بالعجوة!.. ونداءات لباعة متجولين .. او دلالات وسماسرة يجتهدون من اجل ضمان خبز الغد .. ممرضات ومستخدمين ببعض المراكز الاجتماعية .. شحاذون محترفون او على شيئ من الاستحياء!.. عاطلون يندبون حظهم وشقائهم .. شيوخ يدعون العلم ببواطن التوراة .. وشباب اعضاء بنادى "المكابى" .. او اعضاء باحزاب شيوعية!

ومن احدى النوافذ المفتوحة، تنساب الى الاسماع، انغام عذبة شجية، يبدعها على عوده وبصوته الفنان "زكى مراد" والد الفنانة الجميلة الراحلة "ليلى مراد "عندما كان يعيش فى الحارة.

وتجدر الاشارة الى ان الرئيس الراحل جمال عبدالناصر كان يعيش فى حارة "خميس العدس" وبالتحديد فى منزل "شاموئيل القرائى" عندما كان صبيا فى الخامسة عشر من عمره عام ١٩٣٣ ولمدة خمس سنوات!

فى عام ١٩٩٩ كنت اتردد على حارة اليهود ابحث وانقب عن حياة من الزمن المفقود، واصور واجهات ما تبقى من معابد وبيوت عتيقة .. وعرفت ان ما تبقى من يهود

الحارة لا يتجوز ٦ سيدات معمرات رفضن الهجرة وترك وطنهن مصر .. والتقيت بالسيدة "خميسة يوسف ابراهيم التفاحى" ٨٤ عاما وشهرتها "لوسى "زوجها يوسف هاجر الى اسرائيل ومعه ابناؤه: سارينا ونينا والبير وابراهام، وكان يأتى لزيارتها كل عامين واكتشف اهل الحارة انه كان يملك عمارة بحى الضاهر واخرى بالموسكى!.. شقيقه "جاكوب "كان يملك ورشة لصياغة الذهب ثم باعها مثل كل اليهود الذين باعوا ممتلكاتهم وغادروا مصر!

وحدثتنى "خميسة" عن الحياة فى الحارة زمان .. اجواء جميلة، صاخبة، الكل يعمل .. الامانة والمحبة والعشرة هى سمة العلاقة بين اليهود والمسلمين والاقباط يتشاركون جميعا فى الاعياد والمناسبات الخاصة .. وقالت ان من تبقى من اليهوديات كن متزوجات من مسلمين او اقباط واكثرهن احتفظن بديانتهن اليهودية ..

وطبقا للعقيدة اليهودية، فقد حرم اليهود على انفسهم فعل اى شيئ فى يوم السبت فكان سكان الحارة يستعينون بالمسلمين من جيرانهم لينوبوا عنهم فى اضاءة النور او اشعال وابور الطهو .. او ان يمد احدهم يده فى جيب اليهودى لالتقاط قرش لشراء شيئ!.. وقالت "خميسة "ان بعض اطفال المسلمين انتبهوا لهذا الامر، فكانوا ينتظرون يوم السبت فيمرون على بيوت اليهود لعرض خدماتهم .. وبنهاية اليوم، قد يحصل الواحد منهم على اكثر من عشر مليمات!

واستمعت الى "ليئة متاتيا" ٨٦ عاما جدها الكبير كان صاحب العمارة الشهيرة بميدان العتبة والتى هدمت منذ سنوات وراح معها كل تاريخها!.. اكدت ليئه على "العيشة الحلوة فى الحارة زمان .. لا فرق بين مسلم ويهودى "وانها رفضت مرارا مغادرة الحارة التى عاشت فيها عمرها كله

وستموت فيها .. وتذكرت تبادل الزيارات المنزلية لجاراتها من المسلمات والقبطيات .. فهذه الزيارات كانت وسيلة الترفيه الوحيدة وقضاء امسيات جميلة بين التسالى واحتساء القهوة المصنوعة على "السبرتاية" ولعب الكوتشينة"!

واضافت "كنا سعداء جدا .. كنا ناكل كثيرا ونلعب ونقوم بتصرفات حمقاء ونضحك على اى نكتة .. احنا مصريين!.. وتذكرت فجأة عم "يعقوب" بائع الطعمية التى لا مثيل لها والسعيد من يحصل على اقراص منها قبل نفادها ..على الرغم من مغالاته فى السعر فالواحدة بمليم!.. وقالت ان بعض اقاربها الذين هاجروا الى اسرائيل حاولوا التكيف مع حياة "الكيبوتز" لكنهم دوما كانوا يشعرون بالحنين الى الحياة المصرية فى حارة اليهود!

وقد كتب "شارل نواوى" فى مذكراته ان بعض من اليهود المصريين الذين هاجروا الى فرنسا "حملوا معهم فى حقائب السفر: حلة نحاس ووبور بريموس او سبرتاية وكنكة قهوة .. فالقهوة لا يمكن تذوقها الا على الطريقة المصرية "!

وتجدر الاشارة الى "موريس شماس" وهو من مواليد حارة اليهود ١٩٣٠ وكان يكتب بانتظام فى صحيفتى "الشمس" و"الكليم" ثم هاجر واقام فى القدس وعمل بهيئة الاذاعة الاسرائيلية .. فى كتابه الاول "الشيخ شابتاى وحكايات من حارة اليهود" مجموعة قصص قصيرة، صور فيها ذكراياته عن الحياة فى الحارة واهداها "الى اليهود الذين اقاموا بين الشعب المصرى كجزء من ذلك الشعب العتيق" وبالنسبة اليه كان يهود الحارة "مصريون اصلاء نماذج حقيقية من اولاد البلد" وعقب مغادرته مصر، حافظ على ذكرياته فى الحارة "مثل نفحة عطر صاف"!!

حكاية الأرمن فى مصر

عاشت الجالية الأرمينية فى مصر إزدهار مماثلا لما شهدته الجاليات الفرنسية والإيطالية واليونانية "الجريح" .. ويوازى أيضا ما نعم به الأخوة "الشوام" و"يهود مصر" ونظرائهم من يهود أوروبا عندما هاجروا إلى مصر وإتخذوها مستقرا ومقاما ..

الدولة الفاطمية .. والعصر الذهبى الأول للأرمن فى مصر:

فى عهد الخليفة المستنصر توالت الأزمات على الدولة الفاطمية وإستشرت حالة من الفوضى حتى فقد الخليفة سيطرته وتقلص نفوذه .. فى حين تقاسمت فرق الجند أقاليم الدولة، فقد تحكم الأتراك فى القاهرة والفسطاط، وبسط السودان والمغاربة نفوذهم على صعيد مصر، وإستولى اللواتية والملحية على الإسكندرية والبحيرة!

راسل الخليفة المستنصر عن طريق: أبى الفرج محمد بن جعفر – متولى ديوان الإنشاء – والى عكا "بدر الجمالى" طالبا إليه القدوم لإصلاح حال البلاد، رحب الجمالى بالدعوة التى تحقق له طموحاته، وإشترط على المستنصر أن يستعين برجاله من الأرمن وأن لا يبقى على أحد من عساكر مصر.

قدم بدر الجمالى من عكا فى مئة مركب تحتشد بالأرمن ونزلوا أولا فى "دمياط" و"تنيس" ثم توجهوا إلى "قليوب" وكتب إلى الخليفة "لا أدخل القاهرة ما لم يقبض على – بلدكوش – قائد الأتراك" .. وإستقبله الخليفة فى نهاية جمادى الأولى ٤٦٦هـ/ يناير ١٠٧٤ وأكرم وفادته وأطلق يده فى إصلاح أحوال البلاد .. وكتب المقريزى "فصار من حينئذ معظم الجيش من الأرمن" .. قلده المستنصر الوزارة ومنحه

لقبه "السيد الآجل أمير الجيوش" ..

عمل بدر الجمالى على إستتباب الأمن فى كل ربوع مصر وإعادة النظام إلى القاهرة وإستبد بأمور الدولة وفى عهده توافد الآلاف من الآرمن إلى مصر تحت رعايته، وتحسنت أحوال الفلاحين وعامة الناس .. ولم يخل سجل من السجلات المستنصرية من الإشادة بفضله "حتى أصبحت المملكة بلطف الله محفوظة النظام".

أدخل بدر الجمالى الكثير من الإصلاحات الإدارية فى مصر .. وشيد سور القاهرة وأعاد تحصينه وشيد الكثير من المنشآت الدينية والمدنية فى القاهرة والإسكندرية وصعيد مصر، وعمل على تأمين الطرق إلى جميع ولايات مصر.

فى نهاية عصر المستنصر تفرغ الجمالى للإشراف على الدعوة الفاطمية، ونقل الخليفة سلطة الجمالى إلى ولده "الأفضل" فى إحتفال ضخم وأمر أن يدعى له من فوق المنابر بعد الدعاء للخليفة ولبدر الجمالى .. وعقب وفاة والده أصبح الأفضل وزيرا للخليفة ولقب بـ"السيد الأجل الأفضل أمير الجيوش، سيف الإسلام ناصر الإمام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين" .. تعاقب على الحكم عدد من الخلفاء الضعفاء وكانت السلطة الفعلية بيد الوزير القوى الأفضل .. وإتخذ لنفسه دار على نيل الفسطاط سماها "دار الملك" وحولها إنتشرت دواوين الدولة، ونقل الإستقبالات والمآدب الرسمية إلى دار الملك و"صار يتصرف فى الدولة كالملوك والسلاطين" .. وعقب وفاته بدأ حصر تركته فى دار الملك .. خزائن إحتوت ملايين الدينارات وخزائن إحتوت ما لا يحصى من الجواهر والذهب والفضة وأصناف الديباج .. وأجمع مؤرخو ذلك العصر على أن حصر تركة الأفضل إستغرق "مدة شهرين وأياما "!!

في ذلك العصر، كان لسياسة التسامح التى أتبعها الفاطميون أثرها فى تنامى نشاط الأقباط واليهود.. وإزدهرت صناعات: النسيج والسكر والورق .. وأسهم الأرمن واليهود فى إزدهار تجارة مصر الدولية: إلى أوروبا وبيزنطة وبلاد الرافدين والهند والصين وإفتتحت أسواق جديدة .. وإنعكس هذا الإزدهار على البلاط الفاطمى وعامة المصريين!

من "صاحب الباب" إلى "بهرام"!

شهدت السنوات الأربعون الأخيرة من عصر الدولة الفطامية، تطورات خطيرة وصراعات أدت إلى تدهورها وعجلت بسقوطها .. فى تلك الفترة، برز إسم أمير الجيوش "سيف الإسلام أبى الفتح يانس الأرمنى" ولقب بـــ"صاحب الباب" ونسبت إليه إحدى طوائف الجند المعروفة بـــ"الطائفة اليانسية" ..

توالت الفتن وتصاعدت الصراعات فى عهد الخليفة "الحافظ لدين الله" ثم بين الخليفة وابنه وولى عهده الأمير حسن، وإنقسمت فرق الجيش، فأرسل الأمير حسن إلى "بهرام الأرمنى" والى الغربية، الذى أتى إلى القاهرة متحصنا بالآلاف من جنوده الأرمن .. وتولى "بهرام" الوزارة فى جمادى الآخرة ٥٢٩هـ/ مارس ١١٣٥ ولقب بـــ"سيف الإسلام تاج الخلافة" مما آثار حفيظة أمراء الدولة بتولى "نصرانى" الوزارة!.. وأصبح بهرام "مقدم الأرمن" .. ولاشك أن الوزراء ذوى الأصل الأرمنى، والذين تولوا منذ "بدر الجمالى" قد حرصوا على إحاطة أنفسهم بجنود من الأرمن، وشجعوا هجرة الأرمن إلى مصر من أجل هذا الغرض .. فالطائفة الجيوشية كانت فى أغلبها من الأرمن، كذلك الطائفة اليانسية كانت فى معظمها من الأرمن .. وبعد أن إستقر "بهرام" فى

السلطة لم يتردد فى تبنى سياسة أرمينية وطلب من الخليفة السماح له بإحضار إخوته وأهله من بلاد الأرمن، فاذن له، حتى صار منهم بالديار المصرية نحو ثلاثين ألفا ، وشيد فى عهده عدد من الكنائس والأديرة و"صار كل ميسور من الأرمن يبنى كنيسة" .. وعهد بهرام إلى أخاه "الباساك" ولاية قوص أعظم ولايات صعيد مصر، وتنامى نفوذ الأرمن حتى "خاف أهل مصر منهم أن يغيروا ملة الإسلام"!.. حسب تعبير عدد من المؤرخين: ابن ميسر والنويرى والمقريزى.

الأسرة العلوية .. العصر الذهبى الثانى للأرمن فى مصر :

مع تولى محمد على باشا عرش مصر .. حرص على إلغاء جميع مظاهر التمييز الدينى وألغى الجزية المفروضة على غير المسلمين، وتنامت أجواء التسامح التى ميزت الشعب المصرى عامة .. فتوافدت الهجرات من أوروبا إلى مصر خاصة اليهود والأرمن والإيطاليون واليونان .. وكونوا جاليات أسهمت بشكل بارز فى جميع الأنشطة الإقتصادية والإجتماعية، وشكل التجار منهم طبقة ثرية وفرت لمحمد على باشا مصادر تمويل للمنشآت اللازمة للصناعات الناشئة فى مصر.

توافدت الهجرات الأرمينية إلى مصر، وإستعان بهم محمد على فى الوظائف الحكومية، فقد كانوا الأكثر دراية باللغات الأوروبية والنظم الإدارية والمالية .. ونشط الأرمن فى مجالات التجارة وإحتكروا حرفا ومهنا معينة .. أطباء وصاغة وتجار ذهب .. وفى عهود خلفاء محمد على حاول اليهود التضييق على نشاط الأرمن بإعتبارهم أكبر منافسيهم!

تزايدت أعداد الأرمن وتركز أغلبهم فى القاهرة والإسكندرية وسرعان ما إندمجوا فى المجتمع المصرى، مثل

غيرهم من الجاليات الأجنبية .. وفى عام ١٨١٨ شيدت كنيسة الأرمن الأرثوذكس، ومدرسة "بجبا ذاريان" الدينية فى منطقة بين السورين .. وصعد نجم "بوغوس بك نوبار" وكان من كبار أعوان محمد علي ومستشاره فى الشئون التجارية والمالية، كما كان عضوا بـــ"ديوان مجلس التجار المصرية" .. وأصبح "ارتين أفندى" مستشار محمد على باشا لشئون التعليم .. وهو والد "يعقوب باشا ارتين" وكيل مدرسة "المهندسخانة" عام ١٨٣٤ بينما عين الباشا "يوسف بك حكيكيان" الأرمنى أول ناظر لمدرسة المهندسخانة ١٨٣٤-١٨٣٨ كذلك لمع اسم رجل المال والتجارة "بوغوس يوسفيان" ١٧٦٨- ١٨٤٤.

نوبار باشا .. أول رئيس وزارء فى تاريخ مصر :

فى ٢٤ شعبان ١٢٩٥هـ/ ٢٨ أغسطس ١٨٧٨ أصدر الخديو إسماعيل "أمر عال" بإنشاء أول مجلس للنظار (الوزراء) وعهد إلى "نوبار باشا نوباريان" بتشكيل الوزارة، ونص خطاب التكليف كالآتى: "قد صممنا على تفويض إدارة الحكومة إلى هيئة تكون مسئولة فى كافة الأمور والإجراءات، وهذا بقصد تنظيم وترتيب أصول إدارة حكومتنا الخديوية على الأسس والقواعد المتخذة حديثا ، وقد وجهنا إليكم رياسة هذه الهيئة ومنحناكم الأذن فى تشكيل وترتيب هيئة النظارة وفى إجراء الأشياء اللازمة فى هذا الخصوص، ولى الأمر العظيم أن تقوموا بتشكيل وترتيب الهيئة المذكورة بصورة تستوجب حسن النظام وإدارة أمور الحكومة التى هى أقصى غاياتى وآمالى وبعد إتمام التشكيلات يجب أن تهتموا بعرضها علينا ولذلك أصدرنا أمرنا هذا".

وفى الثانى من سبتمبر صدر "أمر عال" إلى "صاحب

الدولة رئيس مجلس النظار" بأن يتولى أيضا وزارتا الخارجية والحقانية "العدل" .. وأن أعضاء مجلس النظار متضامنون فى المسئولية وقراراته بالأغلبية.

غير أن إضطراب الأوضاع السياسية والمالية وضغوط إنجلترا وفرنسا وقناصل الدول وضباط الجيش الذين تأخرت رواتبهم .. كل ذلك أدى إلى تقديم نوبار باشا لإستقالته فى ١٩ نوفمبر ١٨٧٩ ويحسب له أنه عمل على الحد من سلطات إسماعيل باشا وعدم حضوره جلسات مجلس الوزراء!

كما تجدر الإشارة إلى "الكسان ميساكيان" صراف باشى "وزير الخزانة" فى عهد محمد على و"آرتين بك تشراكيان" ناظر التجارة والأمور الخارجية ١٨٤٤ – ١٨٥٠، و"يعقوب أرتين" بك الذى كان وكيلا لنظارة المعارف العمومية عام ١٩٠٦ و"ديكران باشا ابرويان" الذى كان ناظرا للخارجية.

مؤسسات وشخصيات أرمينية شهيرة!

كانت المذبحة التى قام بها الجيش التركى ضد الأرمن فى ٢٤ إبريل ١٩١٥ نقطة تحول فارقة فى تاريخ الشعب الأرمينى .. نجح بعضهم فى الفرار من المذبحة ولجأوا إلى الدول الأوروبية المجاورة، وإلى مصر – فى إحصاء عام ١٩٢٧ كان تعدادهم ١٧,١٨٨ ألفا الغالبية العظمى عاشت فى القاهرة والإسكندرية، وحتى عام ١٩٥٢ كان تعدادهم نحو ٦٠ ألفا .. ومع تطورات العصر برز نشاطهم فى مجال طبع الإسطوانات وتجارة "الراديو" وفى الطباعة والزنكوغراف والتصوير .. وزاد عدد الأطباء الأرمن والمحامين والمحاسبين والمهندسين والسكرتارية بدواوين الحكومة وتزايد نشاطهم فى تجارة الذهب والورق، واشتهر من رجال المال والاعمال: اليكسان ميساكيان ودوليتيان وهاجوب يعقوبيان

صاحب العمارة الشهيرة بشارع سليمان باشا شيدها عام ١٩٣٤.

وشيدوا عدد من المؤسسات الدينية: بطريركية الأرمن الكاثوليك، كنيسة القديس جريجورى المنور الرسولية، كنيسة سورب كريكور الرسولية، كنيسة القديسة تريز الكاثوليكية.

حتى العشرينات من القرن الماضى عاش الأرمن ومارسوا أنشطتهم فى أكثر أحياء القاهرة كثافة "بين السورين" و"درب الجنينة" حول كنائسهم ومدارسهم وأنديتهم ومحال تجاراتهم، ثم إنتقلت الغالبية منهم - مع الرواج الإقتصادى - إلى ضواحى القاهرة خاصة: مصر الجديدة والنزهة والمعادى وحلوان ..

كانت مدرسة بجباذاريان - التى سبق الإشارة إليها - قد نقلت من "بين السورين" إلى درب الجنينة عام ١٨٥٤ وتغير إسمها إلى "خورنيان" .. وفى عام ١٩٠٤ نقلها "بوغوس نوبار" رجل المال والأعمال إلى حى بولاق .. فى عام ١٨٩٠ أسس "بوغوس بو سفيان" المدرسة الأرمينية بالإسكندرية، وفى عام ١٩٠٧ تأسست مدرسة "كالوسيديان فارجان" والتى ضمت روضة أطفال، وما تزال المدرسة قائمة بشارع الجلاء .. ثم شيدت مدرسة راهبات الأرمن الكاثوليك عام ١٩٢٥ بمصر الجديدة بتبرع من بوغوس نوبار ..

وللأرمن أربع نواد إجتماعية بالقاهرة وإثنين بالإسكندرية، وثلاثة أندية رياضية بالقاهرة وإثنان بالإسكندرية .. وبالقاهرة أيضاً ملجأ لكبار السن، ومؤسستان خيريتان: الصليب الأحمر الأرمنى والإتحاد الخيرى الأرمنى .. وجبانتان بالقاهرة للأرمن الأرثوذكس والأرمن الكاثوليك .. ومؤسسة ثقافية هى "إتحاد هوسابير الثقافى" الذى أسس فى بعض المدارس فرقا فنية للحفاظ على التراث الأرمنى

وكورال للأطفال .. كما تعمل مؤسساتهم الإجتماعية والتعليمية على الحفاظ على تراث أجدادهم، خاصة بعد تزايد الزواج بين الأرمن وغيرهم من المسلمين والأقباط المصريين!

اسس الارمن عدد من الصحف التى اشتهرت فى مجتمعاتهم ببلاد الشرق اقدمها "نيجوس" وتعنى النيل اسسها الاب "جيفونت بابازيان" بالاسكندرية عام ١٩٨٩ ثم صحيفة "هوسابير" يومية يملكها حزب باشتاق والتى اسسها الاخوين "ديكران وارتين" عام ١٩١٣ ثم توالت صحف: سفنكس وارنيك وليرابير وغيرها ... والاشهر هى "آريف" الشمس، يومية يملكها حزب رامجافار وتأسست عام ١٩١٥ والتى رأس تحريرها "فاهان تيكيان" ١٨٧٨-١٩٤٥ "امير شعراء الارمن" ثم انتقلت الى القاهرة فى ٩ اغسطس ١٩٢٤ ومازالت تصدر حتى يومنا هذا.

وكانت حياة الارمن فى الاسكندرية ونشاطهم الاجتماعى والاقتصادى تجسد فكرة "استدعاء ارمينيا لتعيش فى وجدانهم" وشهد النصف الاول من القرن العشرين ذروة ازدهارهم، حيث نشطوا فى مجالات التصوير والطباعة والزنكوغراف – نحو ١٥ مطبعة – اقدمها مطبعة نازاريتيان ١٨٩٩ وفى مجال الصناعات المعدنية: مصانع فاهان، موشيج ديرمينجيان، جبريان، بكمريان .. وفى عام ١٩٣٦ اسس "اوفيج بلوجاريان" مصنعا لانتاج المحابس البرونز والطلمبات، واسس "ارام اينماجيان" الشركة الاهلية لتجارة وصناعة البراميل واسس "ارتين اسبنجيان" شركة للهندسة الميكانيكية و"دير ساهاجيان" مصنعا لالات الخراطة الميكانيكية واسس "نورايز اوهانيان" مصنع كنج عثمان للمسامير .. وفى صناعة وابور الجاز اشتهر مصنعه "بيولس" و"فولكان" كما نشطوا فى مجال صناعة الاحذية وفى دباغة الجلود وصناعة شنط السيدات

اشهرها "هاجي اشجيان".. كما نشطوا فى مجال صناعة الدخان: مصانع ايكان، ملكونيان، جاسراجان، ماتوسيان "ايسترن كومبانى".

ايضا اشتهر عدد من الفنانين الرسامين على رأسهم "يرفانت دميرجيان" ١٨٧٠-١٩٣٠ وفاهان هوفيفيان، وبوزانت جوجامانيان، واشود زوريان .. ثم "كريكور مجرديتشيان" صاحب اللوحة الشهيرة للاميرة فاطمة حيدر صاحبة القصر مقر "متحف مجوهرات اسرة محمد على" بالإسكندرية!

فى عام ١٩٤٨ اسس المصور السينمائي "اوهان" و"ابوتسولو كريازى" ستوديو رامى للتصوير السينمائى بالاسكندرية، واشتهر "سيتراك ميشيان" صاحب "فابريكة" اسطوانات بشارع عبدالعزيز والذى سجل معظم روائع سيد درويش .. واشتهر ستوديو "تاصيبيان" بشارع المهرانى والمعامل التابعة له فى زمن افلام الابيض والاسود!.. واشتهر "هاجوب اصلانيان" مهندس الديكور السينمائى والفنانات: فيروز الطفلة المعجزة ونيللى ولبلبة وميمى جمال وانوشكا.

صاروخان .. والمصرى أفندى!

الكسندر هاجوب صاروخان ١٨٩٨ - ١٩٧٧ فنان الكاريكاتير الأشهر، ولد بقرية "أردانوش" فى القوقاز، كان شغوفا بالرسم فإلتحق بمعهد فنون الجرافيك فى فيينا عام ١٩٢٢ ثم هاجر إلى الإسكندرية عام ١٩٢٤ حيث عمل مترجما من اللغتين التركية والروسية بالجيش البريطانى ثم رحل إلى القاهرة حيث تعرف على عدد كبير من محررى الصحف والمجلات من خلال عمله بمحل الزنكوغرافى الأرمنى "آرام بربريان" الذى تخصص بإعداد كليشيهات معظم

الصحف والمجلات المصرية والأجنبية، وفى هذا المحل تعرف على "محمد التابعى" وكان رئيسا لتحرير مجلة روز اليوسف، فعمل تحت رئاسته وبرزت أهمية الكاريكاتير – لأول مرة – فى الصحافة المصرية، ثم إنتقل معه عندما أصبح التابعى رئيسا لتحرير آخر ساعة .. ثم إنتقلا معا إلى صحيفة أخبار اليوم .. كان صاروخان مشاغبا منتقدا مزمنا للأوضاع السياسية والإجتماعية فإبتكر شخصية "المصرى أفندى" الشهيرة على عينيه نظارة بإعتباره مثقفا وبيده مسبحة بإعتباره متدينا !!

خص صاروخان برسوماته أيضا مجلتا: "لابورس إجيبسيان" و"إيماج" الشهيرتان والصحيفتان الأرمينيتان "كاردوش" و"آريف"، فى عام ١٩٤٥ أصدر كتابا بعنوان "هذه الحرب" كان نموذجا لفن الكاريكاتير السياسى، فى عام ١٩٥٥ حصل على الجنسية المصرية، وفى عام ١٩٥٧ أعدت مجلة "ستوديو" الإيطالية ريبورتاجا بإعتباره "واحد من أشهر رسامى الكاريكاتير فى القرن العشرين".

ارماناك .. وارشاك مصرف :

المصور الفوتوغرافى "ارماناك ارزرون" والذى اشتهر باسم "ارمان" فى الوسط الصحفى .. ولد فى "ارزوروم" بتركيا عام ١٩٠١ بصحبة أسرته هاجر إلى الإسكندرية عام ١٩٠٧.

كان شغوفا بالرسم خلال سنوات المدرسة .. إلى أن عمل مساعدا للمصور "تدير" ثم إنتقل عام ١٩٢٤ إلى القاهرة وتتلمذ على المصور النمساوى "زولا" الذى كان يمتلك ستوديو خاص بالقرب من ميدان "سوارس – مصطفى كامل" ثم بعثه زولا إلى النمسا لدراسة تقنيات تلوين الصورة، فى عام

١٩٣٠ افتتح ستوديو "ارمان" بميدان مصطفى كامل ثم انتقل إلى شارع سليمان باشا عام ١٩٥٥ حتى وفاته عام ١٩٦٣ .

كانت مجلة المصور ترسل إليه نجمات السينما لتصويرهن "صور غلاف" .. صور أرمان الملك فاروق والملكة ناريمان وشقيقات الملك وبناته، ومجموعة شخصية لمصطفى النحاس باشا فى قريته سمنود، ومجموعة أخرى للبارون امبان مؤسس حى مصر الجديدة، ومجموعة أوبرا عايدة كاملة، ورؤساء وزارات وباشاوات عصر الملكية، والرئيس محمد نجيب والرئيس جمال عبدالناصر ..

ورث ابنه "ارمان" عن والده حب التصوير وساعده منذ أن كان طالبا بالجامعة الأمريكية عام ١٩٦٠ بادءا رحلة طويلة مع الكاميرا .. وإشتهر ببراعته فى إلتقاط صور الزفاف للمشاهير!

والمصور الشهير الفنان "ارشاك مصرف" .. ولد وتربى فى بورسعيد، كان له أخ وحيد "زاريه" الذى عمل مصورا بشركة "شل" وكان يمكل ستوديو بمنطقة التوفيقية .. تميز أرشاك بطبيعته الهادئة المتأملة مما جعله عاشقا للكاميرا والجمال فى كل صوره .. إمتلك محلا للتصوير وبيع الكاميرات والأفلام بالقرب من سينما راديو، كون ثروة ساعدته على هواية السفر وإلتقاط المناظر الغريبة الجديرة بتصويرها، سافر إلى العديد من دول أوروبا وآسيا وأفريقيا وبعض الدول العربية .. فى عام ١٩٤٧ عمل مصورا بجريدة الأساس التى أنشأها النقراشى باشا رئيس حزب السعديين ورئيس الوزراء، وكان معه مجموعة من شباب الصحفيين الذين إشتهروا فيما بعد .. عقب ثورة ١٩٥٢ أغلقت الجريدة ثم عمل بقسم التصوير بصحيفة الأهرام وكان يؤكد دائما على أن "روح العمل الجميلة بين المصور

والصحفى هى التى تغلف الموضوع بالمصداقية والقوة" ..

كان ارشاك عاشقا لباريس، لكن عشقه الأكبر كان لمصر وكان يقول "أن كل مكان فيها يجود بمناظر ساحرة تستحق التأمل والتصوير خاصة الأقصر وأسوان والنوبة وما تضمه من آثار أمجاد الفراعنة" .. عندما تزوج ابنه من فتاة فرنسية، دعا أسرتها على نفقته الخاصة لزيارة مصر ومشاهدة آثارها الخالدة .. كان ارشاك حريصا على جواز سفره المصرى وتجديده.

ارتبط ارشاك بعلاقات طيبة مع رجال الدولة خاصة الرئيس محمد نجيب ثم الرئيس جمال عبدالناصر الذى أحب الكاميرا وتعلم من ارشاك فن التصوير، ومع ذلك كان يطلب منه تصوير أولاده داخل المنزل، فى مختلف مراحل أعمارهم .. وصحبه ارشاك فى أكثر رحلاته الداخلية والخارجية.

شوارع بأسماء أرمينية :

أسهمت كثير من الشخصيات الأرمينية – سواء فى عصر الدولة الفاطمية أو فى العصر الحديث – بدور بارز فى السياسة المصرية، وقد كرمتها الحكومات المصرية بإطلاق اسمائها على عدد من المعالم والشوارع والحارات تخليدا لذكراهم:

سور بدر الجمالى: عقب الإنتهاء من تأسيس مدينة القاهرة الفاطمية، شيد جوهر الصقلى سورا من الطوب اللبن حولها عام ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م ولكنه كان بناءا ضعيفا ، إلى أن إستقدم الخليفة المستنصر بدر الجمالى الأرمنى ليعيد إلى الدولة الأمن والرخاء .. ثم أعاد تحصين القاهرة وشيد حولها السور الثانى عام ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م ولا تزال بقايا هذا السور قائمة وأبوابه الأثرية الهائلة: باب الفتوح وباب النصر وباب

زويلة .. صممها وأشرف على تنفيذها ثلاثة أخوة من المهندسين الأرمن، على الطراز البيزنطى!

شارع نوبار القديم: فى هذا الشارع كان قصر نوبار باشا بجوار جامع أولاد عنان "الفتح حاليا " وكان يسمى شارع باب الحديد وهو الممتد من ميدان "باب الحديد – رمسيس حاليا " إلى ميدان قنطرة الدكة، ومازال قائما سبيل وكتاب "أم حسين بك" إحدى زوجات محمد على باشا، وكان يسكن به: يعقوب آرتين باشا فى قصر والده: آرتين بك تشراكيان، فى عام ١٩٣٢ تم توحيد محور شارعى توبار وكامل باشا باسم "شارع إبراهيم باشا/ الجمهورية حاليا".

شارع نوبار باشا الجديد: الشارع الشهير الحالى الممتد من باب اللوق، مرورا بميدان لاظوغلى، إلى شارع المبتديان جنوبا، ومن قبل كان يسمى شارع "الدواوين" ثم أطلق عليه: شارع نوبار باشا عام ١٩٣٢.

سبيل نوبار باشا: القائم بميدان الطيبى بشارع السد البرانى بحوار مدافن الأرمن.

بركة وحارة الأرمن: كان بالقاهرة عدد من البرك التى اشتهرت بفعل مياه فيضان النيل ومنها: بركة الفيل وبركة الأزبكية ... جففت هذه البرك فيما بعد، وكان الأرمن يسكنون حول هذه البركة فى العصور الوسطى ثم هجروها إلى الشمال بمسافة كيلو متر فى "حارة الأرمن" حاليا وكانت تسمى "بركة جناق" التى جفت فى نهاية القرن التاسع عشر وأقيم على أرضها بيوت "درب عجور"!

حارة كنيسة الأرمن: تصل ما بين شارع "الأمير فاروق – الجيش" غربا إلى شارع "الخليج المصرى – بورسعيد" شرقا ، وقد سكن بها جماعة من الأرمن وشيدوا بها كنيسة لهم.

شارع ديكران باشا: وهو الشارع المواز لشارع عماد الدين من الناحية الشرقية ويمتد من شارع نجيب الريحانى جنوبا إلى شارع رمسيس شمالا.

حارة آرتين بك: إلى الشمال من مستشفى صيدناوى بشارع الجمهورية، والمستشفى أقيم فى موقع قصر "آرتين بك تشراكيان" ناظر/ وزير التجارة والأمور الخارجية ١٨٤٤ – ١٨٤٨ فى عصر محمد على باشا.

كوبرى وشارع باغوس: حظى هذا الكوبرى بقدر من الشهرة، أشرف على بنائه الأرمنى بوغوس نوبار مستشار محمد على باشا فى شؤون المال والتجارة.

شارع يعقوب آرتين: الممتد بين ميدان الإسماعيلية وميدان سفير بمصر الجديدة وهناك: شارع "دوليتان" بشبرا المظلات وشارع "هاجوبيان" بحى المطرية ...

هذه بعض صفحات من تاريخ الأرمن –الأصالة والطيبة– فى مصر .. التى أقبلت منذ قديم الزمان على "الآخر" وأشرعت له أبوابها .. وكانت لها مع كل الجاليات الأجنبية حكاية .. حتى حوت ذاكرتها كل الحكايات التى لا تنتهى!